

297.07
A22 u H
C.I

دكتور ابراهيم احمد الغدوي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الأمويون والبيزنطيون

الجدار الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

تجتاز الدول الإسلامية اليوم مرحلة هامة من مراحل اليقظة السياسية والاجتماعية ، والعمل على نيل مكانة لاثقة بها بين مجموعة أمم العالم . وتتطلب هذه المرحلة دراسة دقيقة مستفيضة لمقومات الدول الإسلامية ، وفهم التطورات التي مرت بها فهماً علمياً صحيحاً ، حتى يستطيع أولو الأمر في العالم الإسلامي السير على هدى هذه الدراسات في توجيه بلادهم نحو ما يحقق لها العزة والسودد . فالتبصّات التي لا تدعمها الدراسات العلمية تتعرض للمآثر والأخطاء التي قد تؤدي بها أو تحرمها من أن تؤتي أكلها .

ويعتبر عصر الدولة الأموية الحقبة الجديرة بالبحث والدراسة ، إذ تدين معظم الدول الإسلامية اليوم في نشأتها وما يسودها من مظاهر حضارية إلى تلك الفترة المبكرة ، وما حفلت به من أعمال . فقد أخذ الإسلام ينتشر إذ ذاك بين البلاد التي دخلت حظيرة الدولة الأموية ، ولا سيما بعد أن أدرك سكانها أن هذا الدين نظام اجتماعي كذلك ، حافل بالقواعد والأنظمة التي تضمن لهم عيشة راضية في ظلها . ثم توج الأمويون هذه الوحدة الدينية بغرس بذور الوحدة اللغوية والثقافية التي ما زال رباطها يصل بين الشعوب الإسلامية حتى الوقت الحاضر . ويهدف هذا الكتاب إلى معالجة الدور الذي قام به بنو أمية في توجيه سياسة الدولة الإسلامية في الفترة المبكرة من تاريخها السياسي ، وبيان ما لأعمالهم

من أثر في تدعيم صرح الإسلام وتقويته حتى شمع وعلا . وكان التوفيق حليف
بنى أمية في خطواتهم لإعزاز دولة الإسلام لأنهم جهدوا على جعل البحر الأبيض
المتوسط بحيرة إسلامية فقد تقلدوا مركز الصدارة في هذه الدولة . إذ أدرك
الأمويون أن هذا البحر قلب العالم النابض ، وعصب الحياة لأية قوة تنعى البقاء
وارتقاء مدارج الزعامة العالمية . وهذه الحقيقة حجر الزاوية في صرح كل دولة
كبرى عرفها العالم حتى الوقت الحاضر .

وقد تناولت في الفصل الأول خبرة الأمويين زمن الجاهلية بالبحر الأبيض
المتوسط لاتصالهم بإقليم الشام ، الذي ارتادته قوافلهم مراراً وتكراراً في رحلات
الصيف التجارية ؛ ووضع الأمويون هذه الخبرة في خدمة الجيوش الإسلامية
عند قيام الفتوحات على عهد الخليفين أبي بكر وعمر . وأدى اشتراك الأمويين
في فتوح الشام إلى تفصيل أحدهم وهو معاوية بن أبي سفيان واليا عليه . وهنا
تطلع الأمويون إلى السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية الناشئة ،
وتم لهم تحقيق أمنيته بفضل اعتمادهم على أهل الشام ومراقبته .

وبدأت منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام سياسة الأمويين لإزاء
البحر الأبيض المتوسط والاهتمام به لخدمة مصالح دولة الإسلام . إذ عرف معاوية
أن البيزنطيين أعداء المسلمين يعملون في دأب على استرداد ما استولوا عليه من
شواطئ هذا البحر . فعاجلت في الفصل الثاني جهود معاوية لإنشاء بحرية
إسلامية ساعدته في الاستيلاء على الجزر البيزنطية التي تهدد أرض المسلمين ،
والإطاحة بقوة البيزنطيين البحرية في معركة ذات الصواري التي انقلب المسلمون
بعدها إلى سياسة التوسع البحري .

وكانت آية هذا التطور حملات المسلمين على القسطنطينية عاصمة الدولة
البيزنطية ، إذ أدرك الأمويون أن تدعيم قوة المسلمين البحرية تتطلب كسر
شوكة هذه العاصمة التي تقف لمشاريعهم البحرية بالمرصاد . ومن ثم تناولت

في الفصل الثالث اضطلاع دمشق عاصمة الدولة الأموية بتنسيق القوى الإسلامية الحربية ، وإعداد ثلاث حملات كبرى حاصرت القسطنطينية ونالت من سطوتها وشلت حركتها مدة طويلة .

وقد تردد صدى الحملات الأموية على القسطنطينية في جهة أخرى هامة مطلة على البحر الأبيض المتوسط . إذ تطلع الأمويون إلى بسط سلطانهم على شمال إفريقيا وطرد البيزنطيين منه ، ليبعدوا عن أرض الإسلام كل خطر يهددها من هذه الناحية . فتناولت في الفصل الرابع حملات الأمويين المتكررة على شمال إفريقيا ، وكيف استفادت من أحداث حصار القسطنطينية . وتجلت هذه الحقيقة السالفة عندما أسس عقبة بن نافع الفهري مدينة القيروان التي أصبحت مركز الحملات الإسلامية في قلب شمال إفريقيا البيزنطية ، إذ صادف تأسيس عقبة للقيروان انشغال الدولة البيزنطية بالدفاع عن عاصمتها ضد الحصار الأموي الثاني المعروف بحرب السنوات السبع . ومن ثم قضى عقبة ثلاث سنوات في تخطيط القيروان دون أن يخشى هجوماً من الحاميات البيزنطية في المدن الساحلية بشمال إفريقيا لافتقارها إلى الأمداد والعتاد .

وباستيلاء الأمويين على شمال إفريقيا خرج البيزنطيون من آخر معقل لهم في الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، الذي ورنوا عن أمهم الدولة الرومانية القديمة تسميته « بحر الروم » ، وغدا حرياً أن يدعى « بحر المسلمين » . على أن قيام الدولتين الأموية والبيزنطية جنباً إلى جنب أدى إلى ظهور تجارب حضارى بينهما . ومن ثم عالجنا في الفصل الخامس مظاهر التجارب الحضارى بينهما ، وبيان ما تتمتع به الأمويون من عقلية سكان البحر الأبيض المتوسط ، وما اتسمت به من اتساع الأفق ومقدرة على الاستفادة من التراث الذي خلفه البيزنطيون في البلاد التي دخلت في حظيرة الدولة الإسلامية .

واستطاع الأمويون بذلك أن يضعوا أسس الحضارة الإسلامية التي

ازدهرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وغدت رباطاً قوياً شد أزر الشعوب الإسلامية المطلة عليه. وكان عمال بنى أمية في الدول الإسلامية نماذج عالية للتفاني في الواجب والإخلاص للسلطة المركزية وتنفيذ ما يعهد إليهم به على أحسن ما يرتجى. ولذا استطاعت الدولة الأموية أن تشعر بالترباط والتضامن بين أجزائها، وسارت فيها النهضات العلمية والمظاهر الحضارية الإسلامية سيراً موحداً مضطرباً.

وأدى اهتمام الأمويين بالبحر الأبيض المتوسط وتقوية بلادهم المطلة عليه إلى ترك القسم الشرقي من دولتهم ملجأ للعناصر المعادية لهم. فاضطربت العراق وفارس بالحركات المناهضة للبيت الأموي، واستطاعت أن تعطي به في النهاية عن عرش الخلافة الإسلامية. وكان لذلك الانقلاب نتائج بعيدة المدى في تطور حياة الدولة الإسلامية وتاريخها. إذ ارتبطت أحداث الدولة الإسلامية بما نبع في آسيا من قوى وحركات، وغدا البحر الأبيض المتوسط لا يلقى اهتماماً إلا من الدويلات الإسلامية التي جنحت إلى الانفصال عن السلطة المركزية ببغداد، أو استقلت بشؤونها عنها تمام الاستقلال.

وقد ظل التراث الأموي رغم هذه التطورات ماثلاً أمام أولى الأمر في الدولة الإسلامية على مر العصور. فكانت جهود الأمويين في تحقيق التعاون السياسي بين قوات المسلمين، وتدعيم هذا التعاون بغرس بذور اللغة العربية وتهيئة الجو لانتشارها، نماذج حية في العالم الإسلامي يعمل قادته على محاكاتها والسير بها إلى الأمام. وإن الدراسات التفصيلية للعصر الأموي كفييلة أن تهيئ للدول الإسلامية اليوم خير القواعد التي تقيم عليها سياستها ونهضتها، وتشيد عليها صرح علاقاتها الثقافية وما تبغيه من تضامن جماعي. وبذلك تستطيع الدول الإسلامية أن تعيد سالف مجدها وعظمتها على البحر الأبيض المتوسط الذي يعد حتى الوقت الحاضر محور أحداث العالم.

ابراهيم أحمد العمري

١٥ / رجب سنة ١٣٧٢ هـ
٢٠ / مارس سنة ١٩٥٣ م
القاهرة في

بنو أمية للأنبياء ما فتحوا

ولله عهديت ما سادوا وما داروا

كانوا ملوكا سرير الشرق تحنهم

فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

عالمين بالشمس في الأطراف دولتها

في كل ناحية ملك وسلطان

أحمد شوقي

أمير الشعراء

الفصل الأول

مهد الخلافة الأموية

ورحلة الصيف

عرب الشام قبل الإسلام

الشام على عهد البيزنطيين :

شاهد حوض البحر الأبيض المتوسط الشرق منذ فجر تاريخه قصة صراع عنيف بين الشرق والغرب حين اصطدمت في القرن السادس قبل الميلاد أطماع الفرس القدماء بحركة امتداد الاستعمار الأغريقي على شواطئ آسيا الصغرى المعطلة على بحر إيجه . وظل أوار هذه الحرب ، التي عرفت هذه الحلقة الأولى من سلسلتها باسم الحروب الميديّة^(١) ، يتأجج على أدوار متباعدة متتابعة ، من نقطة الجانب المغلوب على أمره سواء في الشرق أو الغرب نحو العار الذي لحقه ، واسترداد سلطنة وكيانه ، والانتقام لما نزل بأرضه من هوان وإذلال .

وتجلت بداية هذه الحروب الطويلة الأمد حين عيى الملك دارا الفارسي (٤٩١ ق . م)^(٢) جيوشه ، وزحف بها على بلاد اليونان وصال فيها وجال ، منزلاً بها ما حلّ له من ضروب الهزائم والدمار . وظهرت صحوة الغرب في صورة

(١) مبدئياً هي القاطعة الفارسية الواقعة شرق آسيا الصغرى . والحروب الميديّة تعتبر أول صراع عنيف بين فكرة الأوتقراطية الشرقية ممثلة في الإمبراطورية الفارسية ، والديمقراطية الإغريقية ممثلة في ولايات العالم الإغريقي . وهذا لا يمنع أن صراعاً سابقاً قد نشب بين الفرس والإغريق ممثلاً في الثورة الأيونية ، ولكن الصراع لم يكن قد امتد بعد إلى العالم الأوربي ، وإنما اقتصر على آسيا الصغرى ، حيث أبونيا الإغريقية التي خضعت للفرس .

(٢) هزم دارا اليونانيين في معركة ماراثون (Marathon) سنة ٤٩١ ق . م .

واضحة للرد على حركات الفرس حين استطاعت مقدونيا أن تلم شمل الأغريق وتعي قواهم . فانبعث الغرب تحت لواء الإسكندر المقدوني (٣٣٦-٣٢٣ ق.م) الذي جاب الكثير من بقاع الشرق حتى قوض أركان دولة الفرس وتخلد اسمه في حواريات هذا الكفاح .

ومنذ غزوة الاسكندر لبلاد الشرق وقصة الصراع بين الشرق والغرب تمثل فصولا طويلة في تاريخ القسم الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى أن كر العصور وسر الأزمان لم يخفف من حدة هذا النضال الذي عرك أوصال الطرفين . ولكن إذا تركت جانبا الفترات التي اندفعت فيها عجلة الطرفين الحربية تطوى ما أتاحتها لها قوتها الذاتية من أراضي وبلاد الطرف الآخر ، ثم تكرر راجعة بعد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، تظهر سمة خاصة اتصفت بها هذه الحروب ، وتلك الظاهرة هي انجلاء كل من الفريقين المتناضلين إلى حماية وتقوية حدود البلاد القريبة من تخومهم . ونجحت هذه السمة بأوضح صورها حين ورثت الأمبراطورية البيزنطية تراث أمها الأمبراطورية الرومانية الكبرى في الشام والأراضي المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي .

وكان للعوامل الجغرافية أثر كبير في تحديد مجرى الحروب الفارسية وحمل الأمبراطورية البيزنطية على المحافظة على تقاليد الدولة الرومانية الكبرى في الدفاع عن أراضيها والسير على نهجها خطوة بخطوة في تلك السبيل . ذلك أن سياسة الدولة البيزنطية اصطدمت في هذه البقعة من أمبراطوريتها بالصحراء الشامية التي واجهت من قبل روما وأباطرتها . فهذه الصحراء أشبه بمثلث قاعدته على خط عرض ١٠° ورأسه تقترب من آسيا الصغرى حيث تتلاقى أراضي الشام الحصنة بمروج العراق . وأقصر جوانب هذا المثلث يطل على الغرب حيث يحده شبه جزيرة سيناء والبحر الميت ووادي الأردن وجبال لبنان ، وينتهي رأس المثلث عند حلب تقريبا . أما الجانب الثالث فيمتد من الجنوب الشرقي لحلب ويمحده

نهر الفرات الذي يلتقي عند الطرف الجنوبي الشرقي لزاوية المثلث بنهر دجلة في
البحر المعروف بشط العرب^(١).

وهذه الصحراء لم تسكن كما يتصور المرء امتداداً شامعاً من رمال لا يمكن
اجتيازها وفلاة موحشة مقفرة ، إذ على النقيض من ذلك لعبت هذه الصحراء
دوراً هاماً في حلقة الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، فقد اشتملت على
بعض مسالك تجارية اخترقت بقاعها ذات الحصى والتي انتشر فيها بين هنا وهناك
بعض الحشائش والنباتات . وقد أدرك القدامى طبيعة هذه الصحراء وقسموها
أقساماً تساعد على الأفاقة من مسالكها . فأطلق بطليموس على قسم منها اسم
بلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea) نسبة إلى مدينة البتراء^(٢) التي
ازدهرت لمروور القوافل التجارية بها ، على حين سمي الجزء الأوسط والجنوبي
الشرقي من الصحراء باسم بلاد العرب الصحراوية (Arabia deserta) ،
أما الجزء الباقي من الصحراء الذي نال قسطاً كبيراً من التأثير الروماني فسماه
الشام (سوريا)^(٣).

وهذا التقسيم الجغرافي يفسر السياسية التي وجدت الامبراطورية البيزنطية
نفسها ملزمة باتباعها في تلك البقعة من أراضيها . ذلك أن قيام عدوتها دولة
الفرس على الطرف الشرقي من هذه الصحراء فرض عليها لوناً جديداً من الدفاع
وضعت الدولة الرومانية الكبرى أسسه ومعالله العامة . إذ كانت سياسة الرومان

(1) C. P. Grant, The Syrian desert, 1, 2:

T. Mommsen, The provinces of the Roman Empire II, 19.

(٢) البتراء (Petra) كلمة يونانية معناها صخر ، يقابلها الرقيم في المراجع العربية ،
واسمها الحديث وادي موسى ، وكانت تقع على طريق القوافل العام من سبأ ببلاد اليمن إلى
البحر الأبيض المتوسط .

(٣) Grant, op cit , 6, 10, 11 .

دأب عرب الشام على تقسيم هذه الصحراء ، التي أطلقوا عليها اسم بادية الشام ، إلى قسمين
هما بادية الشام وبادية العراق . على أن هذا التقسيم كان عاماً ، ولم يكن له أثر ملحوظ في حياة
سكان هذه البادية عامة .

اتخاذ البحار والأراضي التي لا يمكن اجتيازها كالجبال مثلاً حدوداً طبيعية تقف عندها أطراف فتوحاتهم ، أما الحدود التي لا تتمتع بهذه الحصانة الطبيعية فدأبوا على حمايتها بعقد أوامر الصداقة والتحالف مع الجيران المظلين عليها . ووقفت الصحراء الشامية بمعزل عن تطبيق السياسة الرومانية الخاصة بالحدود الطبيعية ، مما حمل روما على اتباع نمط خاص في هذه الصحراء جاء فذا وفريدا في تلك البقعة المظلة على عدوها اللدود ، إذ اتجهت روما إلى إقامة سلسلة من الحصون على طرف الصحراء المظلة على الفرات للمحافظة على الحدود ، مع الاستعانة أيضاً بالقبائل الضاربة في هذه الصحراء في أعمال الحراسة والدفاع^(١).

ومنذ القرن الرابع الميلادي تولت الامبراطورية البيزنطية أيضاً تنظيم هذه البقعة من أراضيها التي تفصلها عن منافستها دولة الفرس ، وفضلت اتباع سياسة روما الخاصة بعدم الاندفاع وراء مشاريع حرية لا طائل من ورائها فيما وراء الفرات . فدعمت سلسلة الحصون في الصحراء الشامية ، ثم نظمت ولايتها الشرقية بأن جعلت سوريا وفلسطين ولاية واحدة عرفت باسم الولاية الشرقية (Oriens)^(٢).

وكانت هذه الحصون أشبه بمعسكرات تقيم بها فرق الجيش التي عهدت إليها مهمة حراسة الحدود والطرق التجارية التي تحتاز الصحراء . فكان في بصرى معسكر رئيسي يتبعه عدة مراكز أخرى لحاميات انتشرت في بعض مناطق ذات أهمية حرية أو تجارية . ومن أمثلة ذلك حصن نمارا (Namara) الذي تحكم في منطقة حوران لسيطرته على الينبوع الوحيد بهذه البقعة . وكان كل حصن من هذه الحصون الهامة عبارة عن بناء مستطيل الشكل على جانبيه الأبراج ، ويحيط به جدار سميك^(٣).

(1) Garat, op cit, 1 - 11 .

(2) J. B. Bury, History of later Roman Empire I, (1931), 27.

(3) Bury, op cit, 94 ;

Mommsen, op cit, 153; Cambridge mediaeval History II, 32, 33

واقترن بإقامة الحصون اعتماد الامبراطورية البيزنطية على الإمارات العربية التي قامت في صحراء الشام بالدفاع عن أراضيها ضد الفرس . وهذه السياسة تبين مدى ارتباط الحروب الفارسية بالمجرات العربية التي استقرت في بلاد الشام ، إذ رأت الدولة البيزنطية اتخاذ القبائل العربية الضاربة في صحراء الشام وكلاء وحواجز تنفذ سياستها في تقليم أطراف الخطر الفارسي . فأنجحت إلى اصطلاحهم بالمال وإغداق أرفع الألقاب على رؤسائهم الذين كانوا خير وسيلة لقادية مهمة الدفاع في هذه البيئة الصحراوية . ولكن المهم هنا هو بيان دور هذه الإمارات العربية في خدمة الدولة البيزنطية بإبان حروبها مع فارس ، وأن ذلك في مجريات الأحداث في بلاد الشام .

تعتبر سياسة البيزنطيين إزاء الإمارات العربية صورة صادقة لما سارت عليه الإمبراطورية الرومانية السكيري إزاء الإمارات المعاصرة لها ، وربما اتخذ البيزنطيون أعمال روما نموذجاً نهجوا على منواله . وأقدم هذه الإمارات ملكة الالباط التي اتخذها الرومان حاجزاً يقيمهم شر دولة البارتيين الفارسية^(١) . واتسمت رقعة هذه الامارة في القرن الأول المسيح حتى امتدت من عاصمتها البتراء إلى دمشق شمالاً وإلى مدائن صالح أو الحجير جنوباً وإلى الفرات شرقاً . ولكن الامبراطور الروماني تراجان قضى على نفوذ هذه الامارة سنة ١٠٥ م^(٢) . وكان ذلك جزءاً من السياسة الرومانية التي دانت بها الامبراطورية البيزنطية فيما بعد ، وهي تقليم أطراف هذه الامارات العربية والقضاء عليها إذا غدا استقلالها خطراً يهدد سلامة الامبراطورية .

(١) تسمى المقاطعة الجنوبية من إيران موطن الفرس باسم « فارس » وحرص اليونان كلمة فارس إلى بارسيس وألقوها على كل البلاد ، ودولة الفرس البارسية من التي عاصرت الإمبراطورية الرومانية السكيري . ولكن تولت أسرة الساسانيين مقاليد الحكم في فارس سنة ٢٢٦ م . وهي التي عاصرت الإمبراطورية البيزنطية .

(٢) Hilli, History of Syria, 382 .

ونجحت هذه السياسة الرومانية مرة أخرى مع إمارة تدمر التي بلغت أوج
عصورها بين سنتي ١٣٠ و ٢٧٠ م . فقد حاقت هذه الإمارة روماء ، ونفذت
سياستها ضد الفرس ، إذ نجح أنزبنة حاكم تدمر في طرد شاور الأول الفارسي
من الشام سنة ٢٦٥ م ، ومنحه الامبراطور الروماني لقب حاكم الشرق (Dux
(Orientis) اعترافاً بجهوده وخدماته . ولكن ما أن اعتزت هذه الإمارة بقوتها
وسيطرتها حتى خطبها الامبراطور أورليان ، وقضى على عاصمتها تدمر سنة ٢٧٣ م ^(١) .
ومهد القضاء على تدمر إلى ظهور مملكة الغساسنة التي عاصرت حوثياتها
الإمبراطورية البيزنطية . إذ بدأ أخذت روماء تدمر سلطان الإمارات العربية
الواحدة بعد الأخرى كانت قبيلة عربية أخرى تسير قدماً في التدعيم لنفسها على
أقاص البراء وتدمر ، ونجحت في إقامة حكم لها في المنطقة الواقعة إلى الجنوب
الشرفي من دمشق ^(٢) . وحوالي نهاية القرن الخامس الميلادي دخل أفراد هذه
القبيلة الذين عرفوا بالغساسنة في دائرة النفوذ البيزنطي ، واتخذتهم الإمبراطورية
وكلاء لتنفيذ سياستها ضد الفرس .

وعلا شأن الغساسنة لاشتداد موجة الأطماع الفارسية في القرن السادس
الميلادي . إذ فضلا عن الحملات الفارسية التي هاجمت الشام وتوغلت كثيراً
في غيره من الأراضي البيزنطية ، أقام الفرس إمارة عربية أخرى هي دولة الاعميين
في أخيرة لناوثة البيزنطيين وعماهم الغساسنة . فالدولة الفارسية نهجت على سياسة
البيزنطيين في استخدام القبائل العربية الضاربة في المنطقة الخصب الواقعة إلى غرب
الفرات والأطراف الشرقية لصحراء الشام ، وجعلت منهم دولة أخذت إسمها من
عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن نغم الزعيم الحقيقي لهذه القبائل التي لم تسمها ^(٣) .
وفي القرن السادس الميلادي وصلت دولة الغساسنة ومنافستها دولة الاعميين

(1) Hitti, op cit, 393 - 396 .

(2) Lammens, L' Arabie Occidentale, 310.

(3) Hitti, op cit, 402.

إلى أقصى نفوذها ، واشتدكتا في حروب سريرة لخدمة الإمبراطوريتين البيزنطية
والفارسية . وأدرك البيزنطيون قيمة أعمال الفسائفة وجهودهم الحربية ، فأغدق
الإمبراطور جستنيان على الحارث الثاني الغساني - الملقب بالأعرج (٥٢٩ -
٥٦٩ م) لقب فيلارخ ، ونصبه سيداً على كل قبائل عرب الشام ، لما بذله من
جهود في حرب الفرس والახمين ولما ناله من انتصارات رائعة . إذ قضى الحارث
في معركة من أشهر المواقع التي نشبت بين الفسائفة والآخرين ونسب « يوم
حامية » على المنذر الثالث (٥٠٥ - ٥٥٤ م) المعروف بإبن ماء السماء ، وكان
المنذر رمز عظمة الآخرين وشوكة أرقم البيزنطيين في بلاد الشام ^(١) .

وإذا كانت « أيام العرب » ^(٢) قد خفلت بالكثير من الوقائع التي جرت
بين الفسائفة والآخرين ، فإن الإمبراطورية البيزنطية نظرت إلى الفسائفة وأعمالهم
من ناحية ما يعود عليها من نفع خاض . إذ عندما بلغ مجد الفسائفة السماكين
وظفوا أنهم قادرون على الشام وأخذت تكثرت لهم الإمبراطورية البيزنطية ، وبادت
بتطبيق سياسة أمباروما القديمة ، في كسر شوكة الفسائفة وإبقائهم على النعمة
لما في الصورة التي تحددها لهم ^(٣) .

وإذا كانت هذه السياسة البيزنطية صورة مكررة لنهج قديم خضعت له
الامارات العربية التي علا مجدها في الشام ، فإن أعمال الإمبراطورية البيزنطية في
ميدان الفسائفة خلقت نتائج جنى ثمارها العرب بعد أن لم الاسلام ثملهم وبدأوا
فتوحاتهم الباهرة في بلاد الشام . ذلك أن السياسة الرومانية التي ورثتها

[1] Hill, op cit. ١٥٢ .

(٢) يقصد بآيات العرب النزوات غلبة التي قامت بين القبائل بسبب النزاع على أرض
الرائع وعيون الماء . وكانت المعارك تبدأ أول الأمر بين أفراد قبائل نتيجة نزاع على حدود
ثم ينعسر الجميع في المعركة . ومن أشهر هذه المعارك حرب البسوس ، وروم داحس ، وكنكك
المعارك بين الفسائفة والآخرين .

(٣) علكة . أمراء شام : ص ٣٦ ، ٣٧ .

الامبراطورية البيزنطية في الاعتماد على العرب الضاربين في الصحراء الشامية للدفاع عن حدودها ضد الفرس وحركاتهم الحربية غرست بذوراً نمت وترعرعت في صالح القبائل العربية وإماراتها.

ولم تدين الدوائن الرومانية والبيزنطية ما يحمله الاعتماد على العرب من أخطار رغم قضايتها على إماراتهم. إذ أن إقصاء الرومان والبيزنطيين لأنباء بلادهم وبني جلدتهم عن شئون الدفاع عن إقليم الشام، وإلقاء الزمام في أيدي القبائل العربية مهد الطريق لعظمة أولئك العرب الذين لم تؤثر فيهم مطلقاً التيارات السياسية التي رفعتهم حيناً وغطت بهم حيناً آخر. فكانت تلك القبائل تستمد قوة وحيوية مضطردة دائمة من منبع دافق فياض، هو الهجرات التي وصلت إليهم نهائياً من بلاد العرب. إذ فضلاً عن أن قيام العرب بحملة الدفاع عن الحدود البيزنطية ضد الفرس جعلتهم القوة الفعالة الرئيسية في بلاد الشام، نجاء اهتمام البيزنطيين بالحروب الفارسية وتكريس جهودهم لها عاملاً ترك الجهة الجنوبية من إمبراطوريتهم بالشام المواجهة لبلاد العرب مفتوحة سهلة الاجتياز لدى القبائل العربية^(١). فأخذت هذه القبائل تدخل أراضي الشام زرافات ووحدانا بمثابة شائر عهد جديد قطف بنو أمية ثماره فيما بعد من مقر دولتهم بالشام.

القبائل العربية في الشام البيزنطية :

يتضح من خريطة آسيا أن بلاد العرب تمتد شمالاً على شكل لسان طويل ضيق أشبه بإسفين بين فارس والامبراطورية البيزنطية. ويسمى هذا الامتداد بادية الشام، وقد اقترن تاريخها بالأطوار السياسية التي جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين، لما كان لموقعها الجغرافي من أثر كبير في توجيه نشاط الفريقين الحربي وسيطرتها على منافذ البحر الأبيض المتوسط التجارية^(٢). على أن الحقيقة

(1) Mommsen, op. cit., 115, 119.

(2) De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad, 151.

السكبرى التى نوجت مميزات هذا الموقع الجغرافى القريب من أن الصحراء الشامية جزء طبيعي من بلاد العرب خضع لما تبعته إليها تلك البلاد من مؤثرات بشرية ، ومندان تردد فيه ما اضطر به خوفها من حركات قبلية فسكانت أبرز هذه المظاهر والمؤثرات الهجرات البشرية التى جاءت بلاد الشام من الجزيرة العربية . إذ يرى بعض علماء الشامية أن بلاد العرب كانت تزدهم بالسكان ازدهاماً يزيد كثيراً عما تحمله مواردها الاقتصادية ، مما حمل سكانها على الهجرة إلى الأراضي الخصبة التى تحيط ببلادهم شمالاً .

(وهذه الحقيقة تفسر مدى ارتباط صحراء الشام ببلاد العرب ، إذ كانت الهجرات تبدأ بارتداد القبائل العربية للأطراف الشمالية من بلادها ضاربة في صحراء الشام دون أن تشعر بفارق يذكرها بأنها غادرت أرضاً غير أرضها ، أو تقابل حاجزاً يجعلها تحرك أنها في بيئة غير بيئتها . غير أن هذه القبائل لا تلبث أن تعمل على الاستقرار في تلك الصحراء منتبهة فرصة مواتية للاغارة على إقليم الشام الخصيب أو التسلل إليه جاهدة على الأخذ بنصيب من خيراته . وظلت أراضي الشام الخصبة تسيل لعاب أولئك البدو الفزار بين على حدودها ، حيث كانت تفيض بالتيقذ والزيت والقمح ، المثل الأعلى للبدوى عن حياة النعم^(١) .

وتعتبر هجرة الأنباط العرب نموذجاً يوضح حركات البدو في الصحراء الشامية وثاقلمهم بالبيئة هناك ، ثم وضعهم أساس صرح نفوذ العرب السياسى في بلاد الشام قبل ظهور الإسلام . إذ حوالى سنة ٥٠٠ ق . م . غدت الصحراء الشامية من شرق سوريا وفلسطين إلى القرآت منتجع العرب الأنباط الذين أطلق عليهم الرومان اسم أهالى الخيام (Scenites) . وكانت حياتهم نموذجاً لما كان عليه البدوى في هذه الأضلى ، إذ كانوا في نضال مستمر حول استقلال أما كن

الرعي والتسكالب على الأراضي التي يمكن فلاحتها ، حتى أصبحت حياتهم مليئة بالنشاط والكفاح ، (Vita est illis semper in fuga) ^(١)

ولكن الجماعات التي استقرت منهم في الجهات التي أمكنهم استئجارها عرفوا تأسيس الإمارات . فظهرت البتراء التي اتخذها الأباطغاصمة لهم ، وبلغت أوجها في القرنين الأول والثاني للميلاديين . وعندما قضى الرومان على البتراء سنة ١٠٥ م ، أسس أولئك العرب الغضاريون في صحراء الشام إمارة أخرى في تدمر . وهكذا ظل العرب في مهجرهم يتلون حياتهم البدوية الأولى ، منهم الحضرة أو المستقرون الذين عرفوا تأسيس الإمارات ، على حين ظل القاطنون منهم على حياتهم البدوية في تنقل وترحال وحرب للاغارة ، يستفيدون من الأحوال التي تفتت من حين إلى آخر نتيجة الحروب الفارسية ، وما صاحبها من اختلال واضطراب ^(٢) .

وكانت هذه الإمارات تاتي دائماً مددا لا ينقطع من الهجرات ، بعثت بها بلاد العرب التي شجعت أحوالها على اتجاه هذه الهجرات إلى بلاد الشام ، إذ دخلت بلاد العرب السعيدة وهي أرض اليمن في فترة من الانحلال والاضمحلال الاقتصادي ، تلاها خضوع لاستعمار أجنبي في القرن الرابع الميلادي . فكانت آية التدهور الاقتصادي الهيار سد مأرب ومظاهر الاستعمار سيطرة الأحباش على صنعاء . وارتبط بهذه الأمور هجرة بني غسان إلى منطقة حوران في الشام خلال فترة من الفترات التي تصدع فيها سد مأرب ^(٣) . وهؤلاء الغساسنة هم الذين سيطروا فيما بعد على قبائل الشام وهياؤها كياناً سياسياً بعد سقوط تدمر حتى ظهور الاسلام . فسقوط تدمر أدت روما شر القبائل العربية فترة قصيرة ،

(1) Bury, op cit, 95 .

(2) Bury, op cit, 95 .

Grant, op cit, 16, 18 .

(٣) هكذا ، أمراء غسان . ص ٧٠ ، ٨٠ .

ولكن منذ عهد الإمبراطور يوليان ظهرت حركة جديدة من استقرار بعض القبائل العربية في الأراضي الشرقية من إقليم الشام .

وكان أصل أولئك العرب الذين استقروا إذ ذاك بالشام من قبيلة تنوخ التي نزلت في بادئ الأمر على الحدود الفارسية إبان فترة الاضطرابات التي تلت سقوط الدولة البارثية القديمة . وكانت هذه القبيلة بدورها من أصل عني تقاطعت بعد اضطراب أحوال اليمن على وادي دجلة والفرات . ولكن لما استقرت الأمور في فارس الملوك الساسانيين قامت محاولة لإدخال هؤلاء العرب في حظيرة الدولة الفارسية الجديدة . فهاجر كثير من عرب تنوخ إلى الشام حوالي سنة ٢٣٠ م ، أي قبل نهاية تدمر . ويطلق أحياناً على هذه المجموعة من القبائل التي هاجرت إلى أراضي الشام اسم قضاة ، وهو الأصل الذي تفرعت عنه تنوخ . واتسمت طبيعة حركات هذه القبائل بالانضواء تحت زعامة أقوى القبائل هيبية ونفوداً ، إذ لم تلبث قبيلة تدعى سليح أن هزمت من بالشام من قبيلة قضاة ، وأخذت منها عصي الزعامة التي انتزعها منهم أخيراً الغساسنة^(١) .

وحوالي القرن الخامس الميلادي اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى استخدام الغساسنة في مراقبة حركات القبائل البدوية التي كانت تجوب بين شمال بلاد العرب وصحراء الشام وصد تيارها إذا ما سار إلى الأندلس على أراضي الشام الخصبة ، وذلك فضلاً عن استخدام الغساسنة في حركاتها الحربية ضد دولة الفرس . وفي عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان العظيم ٥٢٩ م ، بلغ الغساسنة أوج عظمتهم إذ نجحوا بعد انتصاراتهم على اللخمييين عملاء الفرس ، في ضم شيوخ القبائل العربية المبعثرة في فلسطين وغيرها من الأراضي في جنوب الشام إلى دائرة نفوذهم . فاستطاع الخارث الأعرج (في المراجع البيزنطية Arethas) على عهد جستنيان

(١) R. Duissaud, les Arabes en Syrie avant l'Islam, 9, Orléans, op. cit., 161, 162 .

أن يهيم على كثير من شيوخ القبائل العربية الصارفة بالشام ، وغدت له اليد العليا عليها حتى جبال لبنان شمالاً وإلى الشاطئ الفينيقي غرباً وفي فلسطين ووادي الأردن^(١) .

ولكن سياسة الدولة البيزنطية التي لم تدع لأية إمارة عربية بالشام فرصة تدعيم فيها قوتها أخذت تعمل أعمالها منذ عهد المنذر بن الحارث نفسه . إذ أدى إمتحان الإمبراطورية البيزنطية لسلطان القساسة وكسر شوكتهم إلى فرط عقد القبائل المنضوية تحت لواء بني غسان وتحرك الأحقاد القبيلة القديمة في قومهم . وكان شيوخ هذه القبائل — ممن انشروا بأواصر القساسة زمن الحروب وأظهروا لهم الطاعة أيام السلم — ينفذون على القساسة غلو كعبهم لدى الإمبراطورية البيزنطية وما نالهم من ألقاب ورتب وعطايا وافرة . فما أن قبضت السلطات البيزنطية على المنذر بن الحارث أثناء حضوره الاحتفال بتدشين كنيسة في حوران وفيه إلى صقلية حتى هب شيوخ القبائل ضاحجة السيادة القديمة بالشام جاهدين على استرداد ما ضاع من سلطانهم^(٢) .

ويتضح من النزاع الذي نشب بين القساسة وغيرها من القبائل سوء السياسة البيزنطية وتهميتها الجو لاستقرار كثير من القبائل العربية الأخرى . فكانت الإمبراطورية البيزنطية لا تتدخل في المنازعات القبيلة بين القساسة وغيرها من القبائل إلا حين يمتد خطر منازعاتهم من الناطق الصحراوية إلى المدن الآهلة بالسكان^(٣) ، واسكن منذ أن قامت الإمبراطورية البيزنطية للقساسة ظهر الحن بعد أن أدركت نفاذهم في نصرتها في الحروب الفارسية ، واهتمام بني غسان أيضاً بالمذهب المونوفيزي حتى شجعت القبائل العربية على مناقضة سلطان القساسة^(٤) .

(١) O' leary: op cit, 164, 165.

(٢) تلكه: أنباء غسان ، من ١٦ ، ١٧ .

(٣) تلكه: نفس المرجع ، من ١٧ .

(٤) A. Kaunimov, petra et la nabatie, 344.

ويتضح أيضاً من القصائد التي أشادت في مدح الفساسنة المتأخرين أن قوتهم كانت آخذة في الضعف وعهدهم آذن بالأفول رغم ما كسبوه من نصر في بعض الجهات . فبينما تشير هذه القصائد إلى أن نفوذ أمراء الفساسنة المتأخرين وحصل في نضالهم إلى قبيلة عوف بن مرة الضاربة في شمال الحجاز ، أو في الشمال الغربي من نجد ، يتضح من ناحية أخرى ما طرأ على الفساسنة من وهن وعجز على عهد النعمان الذي حكم في العقد الأول من القرن السابع الميلادي . فسلطان محاطاً بأعداء أقوى ناصبوه العداء ، ونازعوه السلطان . ولذا على حين نجح في القضاء على بعضهم مثل قبيلة أسد الضاربة شمال مكة ، اكتفى بتهدئة قبيلة فزارة التي ينسب إليها النابغة ، وفشل في غزوة الأراضي التابعة لبي عذرة الذين كانوا يقطنون وادي الشرى الواقع شمال مكة (١) .

ويعزى فشل الفساسنة في كبح جماح القبائل العربية إلى أنهم كانوا يفاضلون في جبهة أخرى ، وهي مهاجمة أراضي الدولة البيزنطية نفسها حياً في الأخذ بالنار والانتقام لما نالهم من هوان بانقبض على زعمائهم . وكانت إغاراتهم موجهة إلى مراكز الحاميات البيزنطية بالشام ، ومحجوا نجاحاً مؤقتاً في القاء الذعر في تلك الحاميات ، منها حامية بصرى التي تعتبر أعظم مركز حربي في الشام بمد دمشق ، ومحجوا فضلاً عن ذلك في الاستيلاء على كثير من دوائرها . على أن هذه السياسة بادت أخيراً بالفشل وأجهدت الفساسنة ومكنت البيزنطيين من القضاء عليهم في النهاية . ذلك أن الأمبراطورية البيزنطية لم تكن العاسنة ، رغم استخدامهم في الحروب الفارسية وعطفها عليهم إبان أوجهم ، من السيطرة على المراكز الحربية التي أقامت بها القوات البيزنطية . فلا توجد أية إشارة إلى سيطرة الفساسنة على أي مكان محصن أو مدينة اتخذها الجيش البيزنطي مركزاً له داخل نطاق أراضيهم .

مثل دمشق وبصرى وتدمر التي أعاد تخصيصها الأمباطور جستنيان^(١).
ويلاحظ موت النعمان القسافي إقسام الرعايا التابعين لهم إلى خمس عشرة
فرقة ، السكل واحدة منها رئيس خاص ، ويحتمل أن هذه الفرق كانت خمس
عشرة قبيلة ورؤساؤها الشيوخ القدامى الذين تقاضى جانب كبير من نفوذهم زمن
الحارث والمندثر^(٢) . وإلى جانب ذلك علا ذكر بعض القبائل العربية الأخرى
إلى جانب القساسنة . إذ أن امتداد إغارات القساسنة إلى أراضى الحجاز دليل
على إحسانهم ميل القبائل العربية هناك إلى الهجرة إلى الشام ورغبتهم في
الاستقرار بها . وكان نجاح القبائل التي استطاعت أن تهجر إلى الشام في تلك
الفترة من انهيار سلطان القساسنة عاملاً هياً المبرح الذي مثل عليه بنو أمية
قصة خلافتهم وما خلفت به من أعمال وآيات . إذ قضت هذه القبائل على دفعة
الأمور بالشام زمن الخلافة الأموية ، وغدت قطب الرحى في سياسة بني أمية .
ومن أشهر هذه القبائل العربية التي استقرت بالشام إذ ذاك قبيلة بني كلب ،
إذ نزل أفرادها زمن الجاهلية بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام ووادي القرى .
وكانوا في تلك الفترة مثالا للحياة العربية التي مزجها كل عربي ، إذ كان بعضهم
بدوا والبعض الآخر حضراً ، وسيطرت هذه القبيلة على البوابع والواحات في
شرق حوران وجنوبها ولاسيما في دومة الجندل . فضلا عن ذلك أقام بعض
أفراد قبيلة كلب حول سلامة وتدمر على الطريق التجاري الهام إلى الشام^(٣) .
وورثت كلب مجد القساسنة وحلت مكانهم في الرعامة على سكان إقليم الشام
زمن الأمويين ، وأصبحت العمود الفقري لسياسة خلفاء بني أمية ولاسيما زمن
معاوية مؤسس الدولة الأموية .

(١) هكذا ، نفس المرجع ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٣١ ، ٥١ .

(٢) هكذا ، نفس المرجع ، ص ٣٣ ، ٣٥ .

(٣) القسطنطيني ، ص ١٠٦ ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

واستقرت قبائل أخرى بالشام إلى جانب قبيلة كلب في نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي . وكان بعضها من حارب الفسائفة ، وأفلح في الإقامة بالشام حيث طاب لها المقام . ومن الصعب تحديد الجهات التي نزلت بها كل قبيلة ، إذ تداخلت أراضي القبائل مع بعضها بعضاً . وكل ما يمكن أن يذكر في هذا الصدد هو المكان الذي استوطنت به الغالبية الكبرى من أفراد القبيلة . فمن ذلك أن معظم مساكن كلب استقرت في بلادية السماوة ولم يخاطبها هناك أية بطون قبائل أخرى . وهكذا استقرت القبائل العربية في نواحي متفرقة من بلاد الشام . فاستوطن بنو جحج من قريش منطقة أدرعات ، وأقامت لهم بين الرماة ومصر ، وإن كان بعضها قد نزل حوران . وأقامت جذام بين مدين وتبوك على حين نزل فخذ منها فيما يلي طبرية من أرض الأردن ^(١) .

ونالت هذه القبائل بدورها قسطاً من الحضارة البيزنطية ، كما عرفت الديانة المسيحية ودانت بها قبل ظهور الإسلام . ويرجع ذلك إلى الرهبان والقساك الذين أقاموا لهم خلوات في صحراء الشام منذ القرن الرابع الميلادي . وأصبحت هذه القبائل مسيحية العقيدة في القرن السادس الميلادي ، وقامت بدور أشبه بما قام به الفسائفة من قبل . إذ غدت عاملاً هاماً في إيصال المسيحية وتعاليمها إلى بلاد الحجاز قبل ظهور الإسلام ، كما كانت حلقة الاتصال التي حافظت

(١) غزقي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ :

القمماني ، صفحة جزيرة العرب ، ص ١٢٩ :

وروى القمماني (في ص ٢٠٦) شيئاً من شعر أحد القدامى ، يوضح هذه الجهات التي استقرت بها فروع من قبائل العربية زمن الجاهلية .

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| وقد عرفت هذا ملوك بلادها | فصاروا بأرض ذات منى ومخضر |
| وعملت من عزم في سيوفهم | كرام الفساع قد حروا أرض قبضر |
| وقد نزلت منها فضاعة مكرلا | بيدأ فأنست في بلاد الصنوبر |
| وكلب لها ما بين زمسلة عالج | إلى الحرة الرجلة من أرض مصر |

على أواصر الروابط بين هذه البلاد وإقليم الشام^(١).

والمقصود من ذكر هذا المظهر الحضارى هو الإشارة إلى الدور الذى قام به أولئك العرب الذين استقروا فى الشام من إجماع ضرب من الصلة بين سكان بلاد العرب ولا سيما الحجاز وبين البيزنطيين . وهذا الدور مهد السبيل فيما بعد لبنى أمية أن يعمموا بمراث القبائل العربية التى استوطنت الشام زمن الجاهلية . إذ كان ميدان النشاط الذى دعمت فيه هذه القبائل أقدمها هو الميدان التجارى وحرصها على التمتع بخيرات . فكانت القبائل العربية بالشام خير وسيط ساعد على انتظام طرق القوافل التى كانت تصل إلى الشام من بلاد العرب محملة بالمتاجر الشرقية ، واتصلت فى هذا الميدان التجارى بأبناء البيت الأموى ، الذين سيطروا على تجارة الحجاز ، وترددوا على إقليمهم .

وامتطاع بنو أمية أن يدعوا علاقاتهم مع القبائل العربية بالشام . فأدركوا مقوماتها وصرق كسب ودها وصادقها ، ثم لجأوا أخيرا إلى رحابها بإقليم الشام ، واتخذوه عضدا . ونصيرا حين رأوا فرصتهم قد سبغت لتأسيس خلافة لهم بعد أن سطعت شمس الإسلام فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وبددت سلطة البيزنطيين الجامعة على إقليم الشام .

(١) O'Leary, op. cit., 163 .

Bury, op. cit., 65 .

Encyc. of Islam (Art al - Islam) .

بنو أمية ورحلة الصيف

استطاعت القبائل العربية التي استقرت في إقليم الشام أن تسيطر على النشاط التجاري الذي كان المحرك وراء الأطماع التي جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين. فبينا جهدت فارس مراراً في الاستيلاء على إقليم الشام ونفادت الإمبراطورية البيزنطية في الاحتفاظ بهذا الإقليم في دائرة نفوذها، سطت القبائل العربية المضاربة في هراء الشام شوطاً بعيداً في تقاد أعنة التجارة، عصب الحياة في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. ذلك أن دور هذه القبائل في الصراع الحربي بين الفرس والبيزنطيين، الذي دونه حوالات الفريقيين، يستمر تاريخياً في تاريخ حياتها ونشاطها إذا قيس بما بذلته من جهود في حركة التبادل التجاري بين الشرق والغرب.

فالقبائل العربية التي زالت بالشام أعمت في بقاع تنهس عندها طرق القوافل الآتية من بلاد اليمن، وتسيطر على المخطات التجارية التي تنقل منها المتاجر الشرقية إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان الطريق التجاري من اليمن إلى الشام أهم الشرايين التي حملت منتجات الشرق إلى الغرب منذ أقدم العصور؛ وكان له مجريان، أحدهما بحري يذهب إلى أيلة (العقبة)، والآخر يبدأ من موزع أو صنعاء في بلاد اليمن، ثم يسير شمالاً عبر شرقاً الحجاز وماراً بمكة التي كانت في ذلك محطة تجارية على هذا الطريق، ثم ينتهي عند العلا (ديدان) وهي إحدى المخطات التجارية على حدود مملكة الأنباط. وظل الهنيدون حتى القرن الأول الميلادي ينقلون متاجرهم بأنفسهم إلى شمال بلاد العرب^(١)، وإذا وصلت سفنهم بحراً إلى

(١) في شريك بيك، تاريخ شرق الأردن وقبائلها، ص ٩٢، ٩٣.

O' Leary, op cit, 102.

أية ، وقوافلهم برأ إلى ديدان وأحياناً نيمية التي غدت نهاية طريق القوافل
المار بالحجاز . ثم تولى الأنباط بعد ذلك أمر نقل المتاجر من هذه المخطات إلى
بصرى ودمر ودمشق^(١) .

وظل هذا الطريق التجارى حكراً على هؤلاء التي ظهرت بجنوب بلاد
العرب حتى امتدت أطماع الرومان إلى نزع السيادة التجارية من أيدي عرب
الجنوب . وتبلى حرص الرومان على تنفيذ سياستهم التجارية في حملة جايوس
جالوس (٦٥ ق . م) ، التي فشلت في عهد دولة حمير الأولى ، وعجزت عن
إخضاع عرب اليمن . ولما نشطت السفن الرومانية رغماً عن الهزيمة السالفة في
مواجهة سفن عرب الجنوب في الطريق التجارى البحرى سبب اكتشافهم الرياح
الموسمية واستغلالهم لها^(٢) . وكان لهذه المنافسة البحرية أثرها في نشاط عرب الجنوب ،
إذ حولوا جهودهم إلى الطريق البرى المار بالحجاز بعد أن قل نشاطهم البحرى .
وظل الأسر قاصراً على ذلك حتى العصر الحمرى الثانى . إذ حدث تغيير جوهري
في الطريق البرى كوامه ظهور سادة جدد ، هم عرب الحجاز . فقد ألقت إليهم
مخربات الأحداث إذ ذاك ومأم التجارة الشرقية ، التي سيطر عليها اليمنيون
مدى طويلاً .

وبعزى السبب في هذا الانقلاب إلى سياسة الامبراطورية البيزنطية إزاء
جنوب بلاد العرب وامتداد أطباعها التجارية إلى هذه البقعة الحيوية ، إذ كان
قيام الأسرة الساسانية بفارس واحتكارها للطرق التجارية الآسيوية المؤدية إلى
القسطنطينية عاملاً دفع البيزنطيين على إحياء سياسة روما الخاصة بالسيطرة على
طريق البحر الأحمر التجارى ، البعيد عن خطر الفرس . ولكن الظروف قد

(١) Cf. Leary, op cit. 103, 104.

(٢) المسوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥ ، ملحق ١ : ص ٢٩

تبدلت حينئذ^(١)، ولم تصفر جهود الإمبراطورية البيزنطية عن شيء غير التمهيد
والتسكين لعرب الحجاز من السيطرة على طريق القوافل البري المؤدى إلى الشام.
ذلك أن سياسة الإمبراطور جستنيان في الاعتماد على الحبشة في السيطرة على تجارة
البحرين عجلت بزوال عظمة البحرين. إذ خضعوا للأحباش^(٢) والكهشوا في بلادهم
تاركين لعرب الحجاز مهمة نقل المتاجر إلى بلاد الشام. ولم يلبث عرب الحجاز
أن انفردوا بنقل المتاجر لأن الأحباش عجزوا عن إعادة الحياة إلى الطريق
البحري، فلم تستطع سفنهم مناهضة السفن الفارسية في المحيط الهندي، حيث
لحمت حاصلات الشرق في جزيرة سيلان.

وهكذا انحى الطريق البري بين اليمن والشام المسلك الخيوى منذ مطلع
القرن السادس الميلادي، وسكراً على عرب الحجاز وحدهم. وكان وصول عرب
الحجاز هذه السكاسة منذ القرن السادس الميلادي حدثاً شجعت العوامل الطبيعية
عليه. إذ غدا وصول المتاجر آتية إلى الشام رهناً بكسب صداقة عرب الحجاز
بعد أن زالت هيبة عرب الجنوب وفقدوا استقلالهم السياسي. فالبدوي معروف
منذ أقدم العصور بالانقياد والشجاعة وحبه للنصال إذا دعا داعي الجهاد، أو
حدث ما يكرهه على أداء عمل لا يرغب فيه، ولكن إذا كسب أحد صداقته
وأخذ منه المواتيق على أداء عمل أوفى بما عاهد عليه ولم ينحى في ذلك بلال
والنفس^(٣).

وانعكست صورة هذه الصفات التي تحمل بها البدوي في النشاط التجاري
عبر طريق قوافل الحجاز، إذ كان اعتزاز العربي بكرامته وشجاعته حافزاً أدى
إلى ضرورة قبل موافقته وأخذ وعده قبل أن تحتاز أية فائدة الأرض التي تسيطر

(١) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 214, 215.

(٢) البدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٧.

(٣) O'Leary, op cit, 149.

عليها قبيلته ، فقد اعتبر البدوي هذه الأرض ملكه المقدس الذي يجب أن يزود عنه ويحميه بأي ثمن ، وكانت موافقة البدوي تتم بظهور دفع مبلغ معين من المال أو مقابل أي شيء آخر يرتضيه الطرفان . ولكن النشاط التجاري حفز عرب الحجاز على أن يخطوا خطوة إلى الأمام أوسع من مجرد المحافظة على سلامة القوافل أثناء اجتيازها لبلادهم ، إذ رأوا من مصلحتهم أن يساهموا في نقل هذه المتاجر ويعمدوا أنفسهم لأداء هذه المهمة ^(١) . ولذا عندما تغيرت الأحوال في جنوب بلاد العرب غدوا وسطاء في نقل المتاجر ، وحين خلا لهم الجو تماماً بعد انهيار مجد دولة حمير قبضوا على ناصية التجارة نفسها ، ورضى جيرانهم المحيطون بهم في الجنوب والشمال أن يكفوا إليهم مهمة نقل المتاجر لرايتهم بمسالك الصحراء ودروبها ، ولجدارتهم على تدبير شئون القوافل أثناء ترحلها في البوابة الصحراوية ^(٢) .

وهكذا أتى زمام التجارة الشرقية في أيدي عرب الحجاز عامة ، ولكن النشاط التجاري تركز بصفة خاصة في أيدي أولئك العرب الذين استقروا بمكة ، التي ارتفعت مكانتها من مجرد محطة على طريق القوافل القديم إلى مركز تجاري هام ^(٣) . فاستغنت جماعات من سكان مكة بنقل المتاجر جنوباً إلى اليمن ، وأخرى بالذهاب شمالاً إلى الشام ، على أن القابلية العظمى منهم كرسست جهودها في نقل المتاجر إلى الشام ، إذ ظل الأحباش واليمنيون يسهمون بنصيب في نقل المتاجر من جنوب بلاد العرب إلى مكة . أما الطريق من مكة شمالاً إلى بلاد الشام فهذا حكراً على أهل مكة وحدهم ، ووفد إليهم وكلاء من قبل الامبراطورية

O'Leary, op. cit. 180

(١)

O'Leary, op. cit. 181

(٢)

(٣) وقد ظلت مكة تتحكم في الطرق التجارية الهامة التي تقطعون بلاد العرب حيث كانت تقع

في ملتقى هذه الطرق جميعاً .

البيزنطية لمقتد الصفقات التجارية ، كما استقر بينهم عملاء من فارس وغيرها من الحبشة^(١).

وكان علو شأن مكة سبباً في منح أصحاب النفوذ بها مكانة عالية على سائر عرب الحجاز ، وتمتع بهذا المركز الرفيع دون سائر القبائل قبيلة قريش ، أو أولئك القوم الذين عرفوا باسم قريش البطاح . ويبدو أن هذه القبيلة اشتركت في النشاط التجاري بالحجاز قبل أن تصل إلى مركز الزعامة بمكة ، وأن رؤسائها الذين لمواشئها أذكر كوا أهمية تجارة مكة مع بلاد الشام . فيذكر أن قصي ، الجد الذي ينسب إليه اتحاد طوئ قريش الضاربة حول مكة في منتصف القرن الخامس الميلادي ، قضى أيام شبابه الأولى بين إخوته لأمه من بني عذرة النازحين على حدود الشام . ذلك أن أباه كلاب بن مرة القرشي توفي تاركاً لأمه فاطمة ولدها ، زهرة وزيد ، وكان زيد طفلاً عندما مات أبوه ، فتزوجت أمه رجلاً من قضاة ، أخذها معه إلى بلاده من أرض بني عذرة بأطراف الشام . فاحتضنت فاطمة إبتها زيدا معها أصغره ونشأ بعيداً عن وطنه مكة مما دعا إلى تسميته قصي (تصغير قصي)^(٢).

ولما بلغ قصي مبلغ الرجولة وقع بينه وبين شخص من قضاة بني من الجفاء ، دفع القضاة إلى تعيير قصي بالعربة ، فثلاثه إلا تلحق بقومك ! فلما عرف أصل موطنه الحقيقي بمكة خرج في الأشهر الحرم إليها مع حاج قضاة ، وأقام هناك جاهدًا على إعادة مجد قريش . إذ عز على قصي أن يرى خراقة سادة بني قومه القرشيين^(٣) ، وناصب خراقة العداء حتى تمسكن من إقصائها عن مكة

O'Leary, op'cit, 183

(١)

(٢) القسري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

(٣) في القرن الثاني الميلادي هاجرت عدة قبائل من اليمن موطنها ، واستقرت إحدى قبائلها في خراقة في مكة ، وسيطرت في القرن الثالث الميلادي على كافة المناطق بها ولم يترك لها من سكانها الأصليين إلا الناصب القليل لأهمية مما آلم قصي فيما بعد .

(في القرن الخامس الميلادي) ، وولى أمر البيت الحرام ، وجمع قبائل قريش التي كان بعضها مقبلا في الشعاب وزووس جبال مكة ، وقسم منازلهم بينهم مما أكرمه لقب المجتمع ^(١) .

وبعد وفاة قصي سنة ٤٨٠ م آلت السلطات التي تتمتع بها في مكة إلى أبنائه وأحفاده من بعده ، والسكن كان المشتغلون من هؤلاء الأبناء في التجارة إلى الشام هم أصحاب النفوذ الأعلى والسلطة . وتجلي ذلك حين انقسم أحفاد قصي نتيجة النفوس على رئاسة إدارة مكة إلى معسكرين ، أحدهما ترعاه بنو عبد الدار والآخر بنو عبد مناف الذين كان أظهرهم عبد شمس . فما أن تداعى الفريقان للسلم حتى تم الاتفاق بينهما على أن تكون الحجابة والندوة واللواء في أيدي بني عبد الدار على حين آلت السقاية والزفافة إلى عبد شمس بن عبد مناف ^(٢) . وكانت سقاية الحاج والزفافة ، وهي الإشراف على جمع الضريبة التي تخصص لإطعام فقراء الحاج مقيمين أو مسافرين ، من الأمور التي تسكب القانم غليها ذكرأ غالبا وتجعله الرئيس الفعلي لمكة .

وكانت هذه الشؤون الخاصة بأسنان تحتاج إلى رجل مؤتمن للقيام عليها ، ولم يستطع عبد شمس أن ينهض بأعبائها لفقرة وكثرة أسفاره ، فتنازل عما بيده من سلطات إلى أخيه هاشم الذي كان أكثر منه تراء . وكان هاشم يستمد ثروته من نشاطه التجاري في الشام ، فقد تردد على هذه البلاد كثيرا ، وجلب منها ما تحتاج إليه مكة ، إذ حدث أن أصاب قريش قحط مرة ، فرحل هاشم إلى فلسطين واشترى منها دقيقا وعاد به إلى مكة ، ثم أمر به أن يخبز ويخز الخبز لقومه وأطعمهم ، وسمي من هذه الحادثة هاشما ، حيث كان يدعى من قبل عمرو ^(٣) .

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

Sir William Muir, The Life of Muhammad, 59.

(٢) محمد بن عبد الله بن عباس ، معجم ما قبل الإسلام ، ص ١٦٩ .

(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ١٨٠ .

الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ١٨٠ .

ويعتبر هاشم المؤسس الحقيقي لمكة التجارية وواضع أساس نشاط قريش التجاري في بلاد الشام ، إذ أعطى هذه التجارة طابعاً منتظماً وعمل على تنميتها . فينسب إلى هاشم أنه أول من سن قريش رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن ورحلة الصيف إلى بلاد الشام^(١) ، ويبدو أن هاشم نظم رحلات قريش وأعطاهما هذا المظهر الثنائي مما جعل الروايات تعدّه مبتكر نظام رحلات الشتاء والصيف . ودعم هاشم هذا النشاط التجاري الجديد على أسس ثابتة ، إذ عقد مع الدول والممالك المجاورة للحجاز معاهدات ومحالقات حتى تضرب قوافل الحجاز في أراضيها آمنة مطمئنة وتجتاز بها في هدوء ونشاط . فقد هاشم بنفسه معاهدة مع البيزنطيين وأمراء غسان غذا بمقتضاها قريش حق التجوال في بلاد الشام^(٢) . وازدهرت حياة مكة التجارية في عهد هاشم ، وعم أهل قريش بحياة رغدة هنية .

ولسكن منذ عهد هاشم يمكن نفس بداية نشاط الأمويين التجاري وحرصهم على استعادة ما سلف من نفوذهم ، الذي تنازل عنه عبد شمس لفقروه . وتجلّى ذلك عندما تحركت كروامن الفيلة في نفس أمية بن عبد شمس لما ناله عمه هاشم من مكان رفيع في مكة ، إذ طمع في التزاع الشرف الذي بلغه هاشم بأن يطم قريشاً كما فعل عمه . فكان هاشم يخرج سنوياً مالا كثيراً ينفقه على إطعام قريش وحجاج مكة كما تجلّى حين أصاب مكة القحط . ولسكن أمية عجز عن مناهضة هاشم في هذا الضار وباء ، فشل جعله موضع شناعة قريش وسخرتهم وعابوه على أفكاه . فنضب أمية وناظر هاشماً على خمسين نقعة سود الخدق تنجر مكة ، وعلى حلاء عشر سفين لمن يكسب الموقف . وربما كان شرط الجلاء عن مكة يبين مدى ما أهاج نفوس بني أمية من سيادة بني هاشم لهذه المدينة التجارية ورغبتهم في إبعادهم عن مصدر ثرائهم ونفوذهم . واحتكم هاشم وأمّية إلى كاهن

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

من خراطة أصدر حكمه في صالح هاشم . فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعم من
حضر المفارقة ، ونخرج أمية خاسراً إلى بلاد الشام ، وأقام بها عشر سنوات^(١) .

نعتبر هذه الحادثة ، التي نتخذها الروايات أول مظاهر العداء بين بني هاشم
وبني أمية ، حجة الزاوية في سياسة بني أمية التجارية ، إذ أدركوا ضرورة القبض
على أزمة النشاط التجاري إلى الشام للوصول إلى مركز الرئاسة بمكة ، واستعادة
ما كان لأبيهم عبد شمس من سلطان . وجاء اتجاه أمية إلى الشام وإقامته بها مدة
العشر سنوات رسماً جذب أنظار بني أمية إلى هذا الاقليم وحتمهم على التزود من
مناجمه الاقتصادية . وجاءت الأحداث ترقى بما تهيئ لبني أمية الاستيلاء على
تراث قریش التجاري في بلاد الشام ، إذ يموت هاشم في إحدى رحلاته إلى الشام
(حوالي سنة ٥١٠ م) ودفنه بغزة ، التي حوت بذلك رفات أول قرشي بأرض
الشام^(٢) ، خلى الجو لبني أمية ورأوا الفرصة مواتية لاعتلاء مدارج نشاط مكة
التجاري مع بلاد الشام .

و يرجع السبب في نجاح بني أمية إلى أن أبناء هاشم كرسوا جهودهم للإشراف
على إدارة مكة وتسيير شئونها الدينية أكثر من بذل عنايتهم للنواحي التجارية .
ولذا لم يستطيعوا النهوض بأعباء الرئاسة الدينية مع مطالب الرحلات التجارية
إلى الشام على نحو ما فعل هاشم . فكان اتجاه أبناء هاشم إلى الشام أمراً غير
ملفوس لأصنافهم إلى تسيير شئون الحاج والإشراف على البيت الحرام . فالتفت
بنو أمية هذه الظروف وأخذوا مقاليد إعداد الرحلات التجارية والمخروج على
رأس القوافل إلى الشام ، مسيطرين بذلك على العمود الفقري الذي ارتكزت
عليه حياة مكة والشام التجارية .

و انضح هذا التبدل الجوهرى في حياة بني أمية و بني هاشم حين أعيد تنظيم

(١) انظر بزي ، نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٢) انظر بزي ، نفس المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

الإشراف على مكة الإدارية بعد كشف عهد المطلب لغير زمزم في القرن السادس الميلادي^(١) . إذ وزعت الاختصاصات الإدارية بين الأعضاء البارزين من أحفاد قصي ، وغدت مناصبهم تنتقل وراثياً إلى أكبر أبنائهم . فاختص بنو هاشم بالشؤون الدينية من هذه الإدارة ، حيث عهد إليهم الإشراف على بئر زمزم وسقاية الحاج ، وقال بنو أمية القواء ، الذي يعتبر صاحبه كبير القواء ، والقائم على شئون الركب في الأسفار سواء في القتال أو في الخروج للتجارة . وظل هذا الأمر يتوارثه بنو أمية حتى نهض به في الأيام الأولى من فجر الإسلام أبو سفيان بن حرب^(٢) . والد معاوية مؤسس الدولة الأموية . ومن ثم يلاحظ أن بنى أمية غدوا نتيجة هذا التعديل الأخير أكثر فروع قريش ثراءً وأغلاها نفوذاً في القرن السادس الميلادي ، إذ همأ لهم نشاطهم التجاري سبل الاتصال بكثير من البيوت الكبيرة ، فضلاً عن أن نجاحهم التجاري وما تلاه من ثراء عوضهم عما عجزوا عنه من قبول من الحصول على سيادة مكة ، حتى اعتبر بعض المؤرخين بنى أمية قادة مكة وأصحاب الحل والعقد فيها قبل ظهور الإسلام .

وهكذا قبض بنو أمية بفضل زعامتهم التجارية وإشرافهم على إعداد رحلة الصيف على أزمة الأمور في مكة ، وورثوا ثمار الجهود التي بذلتها الهجرات العربية من قبل في الشام وتأسيسها بعض الممالك هناك . وإن نظرة على تنظيم بنى أمية لرحلة الصيف وقوافلها تبين التيارات التي أدرك الأمويون فيها بعد أهميتها ، وكيف حوّلوا هجراتها إلى خدمة مآربهم في الشام حين صنعت لهم الفرص بعد قيام الفتوحات الإسلامية .

(١) اجتاز تاريخ بئر زمزم أنواراً متباينة ، وقد كان يسكن إلى جوار منافيل أبي سفيان في زمزم الهجرات . الذين احتفظوا بصدانة البيت العتيق بعد صلوات بني الحارث . وأشرفوا على شئون بئر زمزم كذلك . واسكن جرعات بعد صلواتهم مما جعل حراماً نتجج في الفلج عليهم . واسكن قبل أن يرحل أكثر ملك جرهم مكادى في بئر زمزم تحفه ودفنائه ثم علم الله . وظل ملك الجرهم على ذلك حتى أكتشفه عهد المطلب .

(٢) مبروك نامق ، الترجيع السابق ، ص ١٧٤ ، ١٧٦ .

كانت دار الندوة بمكة^(١) طبقاً للنظام القبلي تقصى عملية القوم ، يعتقد جميعهم على هيئة مجلس حين يأتي ميعاد خروج قافلة من مكة فاصدق الشام . وكانت إدارة دفة المجلس وتدير شئون الأعمال التجارية التي تتناولها مناقشاته خاضعة لما يشير به رؤسامة . فقد اشتهروا بالخبرة الواسعة في ميدان المال ، فضلاً عن أن اختصاص النظر في مثل هذه الأمور التجارية منوط بهم حسب تقسيم شئون مكة الادارية . وكان يعود إلى كبيرهم قيادة القافلة وإعدادها ، لما يعلقه أهالي مكة من آمال على ضروره نجاح القافلة وجلال مطالبها . إذ كان كل فرد في مكة أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي يساهم بنصيب معين في تكاليف إعداد القافلة .

واشترك في إعداد القافلة الغني والفقير ولا سيما النساء بصفة خاصة . فحياة أهالي مكة ، الغني منهم والفقير ، متوقفة على القوافل التجارية المذهبة إلى الشام ومدى ما تدره عليهم من أرباح . إذ نطقت الأسر الغنية إلى زيادة ثرائها في هذه المشاريع التجارية الرائجة والإعلاء من شأنها بين البيوت التجارية الكبرى ، على حين رأت الأسر الفقيرة في استغلال أموالها الضئيلة في هذا الميدان سبيلاً يعاونهم على قضاء مطالب الحياة ، والحصول على مورد خارجي يسكنهم من الهوى بأعمالها . فكل فرد منهم كان يقتصد من دينار إلى دينارين أو كل ما يستطيع أن يدخره من مال يساهم في إعداد القافلة^(٢) .

كذلك اشتركت النساء في مكة في إعداد القوافل ، إذ رأت الكثيرات

(١) يقرن اسم دار الندوة دائماً بمكة ، وهي المسكن الذي اجتمع فيه سادة المدينة ليعرضوا شئونهم بينهم . وكانت دار الندوة في الأصل البيت الذي يملكه قصر مسكنه سنة ١٤١٠ م بالقرب من الناحية الجنوبية الغربية للمسجد . وعرف هذا البيت باسم دار الندوة لأن قريش تأت على الأجرام به لخدمة مسائلها العامة . وكان يحضر هذه الاجتماعات فرد الذي لا يقل سنه عن أربعين سنة . وكان يقضى بسلام في هذه الدار سواء أو اعلم لقادر الحملات الحربية . وقد آت امتياز اسم قصر إلى أولاده وأحفاده من بعده .

منهن ، ولا سيما من كبار البيوتات الملكية ، طريقاً لتنمية مواردهن والعيش في حياة رغدة هائلة . ومن أمثلة هؤلاء خديجة التي تزوجها الرسول الكريم ، والذي أشرف على إدارة أموالها واستثمارها عن طريق هذه القوافل التي اتجهت إلى الشام . على أن نساء البيت الأموي كن أكثر النساء نشاطاً في هذا الميدان التجاري . فسكان أم أبي جهل تتاجر في المعطور ، وهناك زوجة أبي سفيان تباع متاجرها بين بني كلب في الشام^(١) .

وكان العرب الأكبر في إعداد القافلة وتحويلها ، رغماً عن هذه المساهمات السابقة الذكر ، يقع على كاهل بني أمية وحدهم . فهم يجمعون الأموال من كل راجب في التجارة ، ثم يزودون القافلة بما تحتاجه إلى جانب هذه المساهمات من مال ، وكان ذلك هو القسط الأوفر غالباً . فمن ذلك أن المال الذي طلب لإعداد القافلة التي أدت إلى غزوة بدر بلغ مقدار ٥٠٠٠ دينار ، قدم بنو أمية أغلبيته الكبرى . فدامت جماعة أبو أحيحة وحدها من عائلة سعيد بن العاص الأموي مبلغ ٣٠٠٠ دينار ، إذ كانوا عبارة عن نقابة تجارية تستغل رأس مالها في هذا النشاط . وفضلاً عن ذلك ساهمت بيوت بني أمية الأخرى بمبلغ ١٠٠٠ دينار ، وبعبارة أخرى أمديفوا أمية قافلة بدر بأربعة أخماس المبلغ الذي طالب لإعدادها ، وهذه القافلة أطلق عليها اللطيمة ، وذلك إسم يقصد به غالباً القافلة التي تحمل المعطور^(٢) ، وهي أهم المتاجر الشرقية التي تنقل إلى الشام .

وهذه القافلة التي تعتبر نموذجاً لغيرها من القوافل اللاحقة إلى الشام تبين مدى ما بذله الأمويون من مال في الميدان التجاري ، وأنها توحى بضرورة وضع القافلة تحت إشراف شخصية لها نواياها حتى لا تصاب بسوء بعد كارثة تعصيب

(1) O'Leary, op. cit. 183;
Encyc. of Islam (art Mecca) .

(2) Grant, op. cit. 126.
Encyc. of Islam (art Mecca) .

كل فرد في مكة جميعها ، غنياً كان أو فقيراً . وكانت مهمة اختيار الرئيس أسراً لا يقل خطراً عن إعداد الرحلة نفسها ، إذ على شخصيته وهيئته وحدها تنووت سلامة الرحلة . فكان لا بد أن يختار من ذوي السكينة العالية والحسب المربى ، إذ يعتبر هو وأقاربه مسئولين عن تعويض المشركون في إعداد القافلة عن أية خسارة تلحق بتجارها^(١) . ولذا كان إسناد هذه القافلة إلى أبي سفيان يوحى بما تنبع به هذا الرجل من مكانة وهيبة في مكة ، فضلاً عن وظيفته الرسمية في الخروج على رأس أشباه هذه القوافل الهامة .

وهكذا كان قيام أموى على رأس القوافل التجارية أسراً لا تتطلبه الشئون التجارية غلب ، وإنما ضرورة تقتضيها سلامة الرحلة والإطمئنان على تسهيل نشاطها بالتجاسع . وهذا الأمر السالف يعمل معنى السلطات الواسعة التي خولت لبني أمية ، إذ كان رئيس الرحلة يخرج على رأس قافلة هائلة تحتاج إلى يد حازمة وسلطان مطلق . فبلغ عدد الجمال التي خرجت في قافلة بدر ٢٥٠٠ بعير فضلاً عن عدد كبير من الحراس بلغ حوالى ٣٠٠ رجل بين دليل وخفير^(٢) . وقد منع رئيس الرحلة كافة السلطات التي تخوله الاتفاق مع من يشاء لإحاطة قافلته أثناء الطريق بالأمن والهدوء . فكان يدخل في مفاوضات مع قبائل البدو التي تحتاج قافلته أرضها ، ويأخذ منهم حراس المصاطفة على القافلة عند اجتيازها أى منطقة محوذة . وإذا اقتربت القافلة من إحدى المدن يعمل على الاتفاق مع السلطات بها على إرسال حامية من الجند تدفع عن القافلة غائلة العدوان^(٣) .

وبإلى جانب هذه الامتيازات الواسعة التي تمتع بها بنو أمية لتوايهم رئاسة القوافل اكتسبوا بفضل التجارة سراناً على الاستعداد للتنازل والعمل على تقاديرها

(1) Grant, op cit. 128, 129

(2) Grant, op cit 127, 128

(3) Ibid, 128

قبل وقوعها . فعملوا في رحلات الصيف تسكر يس جهودهم للمداخلة على سلامة متاعهم أولاً وقبل كل شيء^(١) ، والاحتياط على تحقيق أهدافهم منها كقبولهم من وسائل . فكان رئيس القافلة إذا مادهم خطر يبعث بذراعه هيئة مفرقة يستنفر الناس للدفاع ، ويسكن النجاش في هذا الأمر يتوقف على حيلة الرئيس وبعد نظره .

وتجلى ذلك حين عاد أبو سفيان بمالته من الشام إلى مكة . إذ عندما اقترب من الحجاز أخذ يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان عن أحوال الطريق ، وحين علم أن الرسول يخرج بالنار نفسه والمهاجرين من غير فريش القادمة من الشام استأجر شخصاً يدعى ضمضم بن نحر الغفاري ويمنه إلى مكة يستنفر أهلها للدفاع عن ثروتهم وكيان حياتهم^(٢) . وكان هذا الذير يمنع مبلغاً كبيراً نظير تأدية مهمته ، إذ أعطى أبو سفيان ضمضم مقدار عشرين ديناراً ، ويسكن هذا القدر بعد قبلا إلى جانب الأرباح الحائلة التي تدركها تجارة القوافل وما يقرب على نجاحه من إيقاد أموالهم .

وكان خروج القافلة إلى الشام يعتبر يوماً عاماً عند جميع أهل مكة ، إذ يخرجون جميعاً لتوديعها معقون الآمال على تأجيلها تجارتها في أمن وسلام^(٣) . وانبع بنو أمية في قيادتهم هذه الرحلات الطريق التجاري القديم ، إذ بعد اجتياز بلاد الحجاز يؤدي الطريق إلى الأراضي البيزنطية عند أيلة (العقبة) التي ضمها الرومان إليهم سنة ١٠٥ م . وعند هذه المدينة يبدأ طريق تراجان الذي يمتد بين البحر الأحمر وفلسطين وينتهي عند غزة . فسكان القوافل تتابع سيرها من أيلة إلى غزة وأحياناً يذهب فرع آخر منها إلى مصرى ، التي كانت حصة الولاية العربية بالشام^(٤) وسوقاً كبيراً وفدت إليه القوافل التجارية قبل الإسلام .

(١) الطبري . المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٧٠ .

Encyc. isl. islam. (art Mecca)

O'Leary, op. cit. 180, 187

(٢)

(٣)

وتتبع قادة قوافل قریش من بنی أمیة بتسيرة عالية في ميدان التجارة هيأت لهم حتى تدار الامتيازات التي حصل عليها هاشم من البيزنطيين والفساسنة . فكانت القوافل تحت كل معونة من السلطات البيزنطية عند دخولها أريانة ، وكانت مقر الديبق المانصر الذي احتل جزء منه جزيرة «جونايا» لإكمال حركة الرقابة على أية تجارة قد تأتي بحراً . ففي أريانة كان التجار الأمويون يحرصون على الحصول على الهدايا البيزنطية لتصرف شئونهم التجارية ، على حين اقوا كل ترحيب في المدن الأخرى التي سادها قوة الفساسنة^(١) . وكانت أهم السلع التي تحرص قوافل مكة على الحصول عليها من الشام هي المنسوجات القطنية والحريرية والأقمشة المصبغة ذات اللون الأرجواني ، على حين تجلب من مصرى الأسلحة والحبوب والزيت ، وهذه كلها أشياء تهافت البدو على الحصول عليها^(٢) .

واشتهر بقيادة قوافل قریش ابن جعدان وأبو أحيمه وأبوسفيان ، وغالبيتهم من البيت الأموي . وقد ذاعت شهرتهم ليس بين بنی جلدتهم حسب ، وإنما حظوا بالمسكنة العليا كذلك بين السلطات البيزنطية . فكانت الدولة البيزنطية تعمل كل ما وسعها من جهد لإعلاء شأن أمثال هؤلاء القادة العظام ، وورثاقت السياسة الرومانية القديمة في إقامة تماثيل لهم تخليداً لذكراهم ولما أبدوه من ضروب الشجاعة والمهارة الفائقة^(٣) . ولذا يحتمل أن أبناء البيت الأموي تمتعوا بتركيز رفيع بين السلطات البيزنطية في الشام ، حيث غلبوا أساة الشريان التجاري البري وسادته الذين يعنوا فيه دم الحياة نابضاً بعد أن هبط نشاط النقل البحري عبر البحر الأحمر .

ولا سراة في أن علوشان بنی أمیة عند حکام الشام البيزنطی أوقفهم على

(1) Lamoreaux, op cit, 310, 312, 313

(2) Encyc. of Islam (art Mecca)

(3) O'Leary, op cit, 184

Lamoreaux, op cit, 313

أتمثل الطرق لا ككتاب عظيمهم والعمل على نيل رغبتهم ، مما يقتضي دراية وعلمها
بالشخصيات ذات الخطوة لدى أولئك الحكام ، وانخراطهم وسطاء لديهم . وهذا
من خلق التاجر الذي يتخذ من ترتيب الصلات بين الناس ، ومعرفة طبائعهم
وإرضاء نزواتها شعاراً للمحافظة على متاجره ونموذجها بينهم . « فإن كان جريشاً على
الخصومة . . . مقدماً على الحكم كان ذلك أقرب إلى النصفة . . . وإلا فلا
بدله من جله بمرع به يقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكم على إنصافه
من معاملته ^(١) » . هذا إلى أن التاجر يشهر بعين الفاحص الخبير التي تمكنه من
معرفة أحوال البلاد التي يحط فيها رحاله ، وضروب السلع التي تحتاجها ، والتطورات
التي تطرأ على أذواق أهاليها . كل ذلك بما يضمن له تصريف متاجره في أمن
وسلام . ومن ثم كانت رحلة الصيف إلى الشام المدرسة التي تلقن فيها الأوروبيون
دروساً في طريقة خطاب ود أهالي الشام وممراتها على إرضاء أذواقهم ، وعرفوا
حين منعت لهم الظروف فيما بعد سبل السيطرة على أزمة هذا الإقليم وهيلة
الانصراف به .

وإلى جانب هذه الخبرة الراسمة التي عرفها الأوروبيون عن أهالي الشام أدركوا
كذلك بفضل إشرافهم على القوافل التجارية مصادر السلطة والهيبة في بلاد
الحجاز وأسر السبل لاجتذاب نخوة رجالاته إلى جانبهم . وذلك أن قوافلهم
على جمع أنصبة المساهمين من أهل الحجاز في القافلة الذاهبة إلى الشام جعلهم
يخبرون شتى أصناف الشخصيات ودراسته خلقها وطبائعها . فكان وصول القافلة
من الشام إلى مكة يوم عيد عتد الجميع يخرجون فيه جميعاً لتحية الركب بقرع
الطبول ، وبمسدودهم الأمل بالريح الوفير ^(٢) الذي يحمله لهم قادة القافلة من
بنى أمية .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٠٠

(2) Grant, op cit, 130
O'Leary, op cit, 165

وكانت القافلة تسجل مسكة تباطأ أشبه بالجيش وما يحدثه في النفس من رهبة . ثم يقبل الجميع ينزاحون لأخذ نصبتهم وأرباحهم من أبي سفيان الذي جلب لهم من الشام الخير العميم . ويعودون مرحلين مقتبطين بما أصابوا من ثراء . على أن أبي سفيان وأهل بيته من الأمويين ينعمون إلى جانب أرباحهم الخبرة الواسعة عن شخصيات عرب الحجاز ومدى صلاحية عودهم . ولذا عند ما حصلوا على ما ادخره لهم الزمن من سلطان عظيم في دمشق بعد فتح الشام وجدوا لديهم قوائم جاهرة بأسماء الأعوان والأصهار الذين تغافوا في نصرة قضيتهم وتحقيق ما جاشت به نفوسهم .

وهكذا استطاع بنو أمية بفضل نشاطهم التجاري ، ومشاركتهم على الخروج في رحلات الصيف إلى الشام أن يكونوا أصحاب المركز الأول في الحجاز ، والقباض على أزمة حياة الاقتصادية . ومن ناحية أخرى كسب الأمويون مكانة مرموقة في إقليم الشام ، ولا سيما أنهم حرصوا على إغناء الأملاك والعقار الذي منحهم هبة بين السكان . فاشترى أبو سفيان ضيعة في البلقاء ^(١) بفضل ما أخذته عليه التجارة من ثراء وافر . ولا شك أن هذه الخطوة التي قام بها أبو سفيان جعلت الأمويين المشغولين بالتجارة على صلات قوية مع أهل الشام وقربت الألفة بينهم .

وأصبح الأمويون بذلك قبل ظهور الإسلام مباشرة العمود الفقري في النشاط التجاري بين الشام والحجاز وأصحاب السكينة الموعودة في كل ما يتصل بهذا الميدان . وعرف الأمويون بعد ظهور الإسلام كيف ينعمون بالأمس التي وضعها زعمائهم زمن الجاهلية في إقليم الشام حتى شيدوا عليها صرح دوائهم العالي .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

قيام البيت الأموي في الشام

يعتبر العقد الأول من القرن السابع الميلادي مشرق ظهور الأمويين على مسرح الأحداث السياسية في بلاد الشام ، إذ أدت سياسة البيزنطيين في إضعاف الفساسة والقبض على سادتهم إلى غروب شمسهم بشكل مدروس واضح ، وتهيئة للمسرح أسطوان بنى أمية في الشام . وآية ذلك أن الأباطرة البيزنطيين لم يقضوا الطرف عن الفساسة بعد تثبيت أمراءهم ونفوذهم خارج بلاد الشام ، وتأيموا السياسة التقليدية الخالدة التي تنادي « فرق تسد » فأخذوا يوقعون الشقاق بين قبائل الفساسة بمد أن انفرط عقد اتحادهم وسطوتهم ويفرون القبائل العربية الأخرى على التحرش بهم والإجهاز على البقية الباقية من نفوذهم . وكان الأمويون المترددون بقوافلهم التجارية على بلاد الشام يرقبون هذه الأحداث عن كسب جاهدين على الابتعاد عن تيار المنازعات وقائمين بما يحدونه من رعاية وظلمانية لدى هذه القبائل جميعاً .

وظل الأمويون على هذا النهج حتى انجذبت الساطعات البيزنطية إلى الاستمالة بالقبائل العربية الضاربة في شمال الحجاز على إخماد حركات بعض الفساسة الذين لم ينكسروا راية العصيان . وكانت وسيلة الإيقاع التي عمد إليها البيزنطيون هي إغارة حفيظة هذه القبائل العربية على ما ارتسكبه الفساسة نحوهم من عسف في أيام أوجهم . وجاءت الأحداث بما عهد للبيزنطيين السيل ، إذ اتخذت من ادعائها حق حماية المسيحيين ببلاد العرب تسكئة للاقتضال بالقبائل العربية في الحجاز ، وكان القرشيون في مكة إذ ذاك سادة القبائل العربية وأقواها بسبب زعامتهم التجارية التي نالوها بفضل بنى أمية ونشاطهم التجاري .

إنجحه البيزنطيون إذ ذاك إلى الانصال بقبيلة قريش متورعين بحماية المسيحيين في الحجاز حيث كان برأسهم شخص يدعى « أبو الأمير الراهب »^(١) . على أن

(١) Kammerer, op cit. 345

الفرشيين أبوا على البيزنطيين تدخلهم في شؤون قبائل الحجاز خشية ترجيح كفة قبيلة على أخرى . فالتذبت قریش أحد سادة البيت الأموي ، وأوسعهم نجارة ، وهو عثمان بن عفان ، لمفاوضة السلطات البيزنطية وحملها على الحد من نشاطها في الحجاز ، ومبدياً لها مغبة سياستها ، إذ عليه أن يذكر البيزنطيين بسيادة مكة على سائر القبائل الأخرى وما لها من أهمية كبرى في النشاط التجاري للإمبراطورية البيزنطية ، وأن الأفضل هو كسب تأييدها السياسي ، لا شد أزر المسيحيين^(١) .

وذهب عثمان بن عفان إلى عمال الحدود البيزنطيين (في إقليم الثغور) المقيمين في بصرى ، وقاوضهم على الأسس السالفة ، وأضاف إليها بيان الدور الذي يمكن أن يلعبه العرب في تعضيد البيزنطيين في حروبهم المستمرة إذ ذلك مع الفرس . فاشهر البيزنطيون هذه السفارة العربية وحملوا على اجتذاب عرب الحجاز إليهم للقضاء على فلول الفساسة ، فأغدقوا على عثمان بن عفان لقب « فيلارخ » وهو من أرفع الرتب البيزنطية ، ولكن يبدو أنهم راوغوا في تحقيق مطالبه الأساسية وهي السكف عن منازعة قریش سيادتها في الحجاز^(٢) .

عاد عثمان بن عفان إلى مكة وهو يدرك تماماً أهداف البيزنطيين في إيقاع الفرقة والشقاق والشحناء بين صفوف العرب ، فبنى أن ينفذ مطالب البيزنطيين بتحرير بعض عرب الحجاز ضد الفساسة ، حيث أدرك أيضاً بتأليب نظره ما عليه الإمبراطورية البيزنطية من ارتباك وما بدت عليه من علامات الأفول في تلك الرقعة من أراضيها الممتدة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي . وجاءت الأحداث تترى بما يزيل للبيزنطيين من نفوذ في الشام وفي شمال بلاد العرب ، ويحقق ما أدركه عثمان بن عفان ، إذ مرعان ما غزا الفرس بلاد الشام (٦١٣/٦١٤ م) ، وقوضوا أركان البيزنطيين هناك^(٣) . ثم إن هزقل لم يكفد يتعم باسترداد الشام

(1) Kammerer, op. cit. 345

(2) Ibid , 345.

(3) Ibid, 343-346.

وإبعاد الشبح العارسي عن أراضي دولته المظلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى حتى ظهر نور الإسلام وكتب للعرب الذين ذاقوا من البيزنطيين ألوان التعذيب والتشتيت العزة عليهم ، ثم دفعهم على حمل نواء الإسلام إلى الشام وإزالة نفوذ البيزنطيين نهائياً منه .

وتعتبر سفارة عثمان بن عفان دليلاً على مطالع نفوذ الأمويين السياسى فى إقليم الشام قبل الهجرة زمن قليل . ثم لم يلبث الأمويون أن حازوا قصب الميقات فى الميدان السياسى فى ذلك الاقليم كذلك حين أخذ الرسول الكرى يدعو القبائل العربية الضاربة فى شمال الحجاز وجنوب الشام إلى الدخول فى دين الإسلام . إذ استعان الرسول فى تلك البقاع بمال من بنى أمية وبغيرهم ممن عرف بالخطوة عند الأمويين والدخول فى دائرة نفوذهم . فكانت سياسة الرسول تهدف إلى استخدام نفوذ الأمويين بين القبائل العربية فى جنوب الشام لئلا يدين الاسلامى بينهم ، وإيقاد غيرهم من مشاهير العرب الدائرين فى فلكهم على رأس العرب التى بعثها إلى قبائل الشام .

جعل الرسول الكريم عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر ونيوك ^(١) ، تلك البلاد الوثيقة الاتصال بالحدود البيزنطية والقبائل العربية الضاربة على نفوذها . وبعث عمرو بن العاص ، صاحب اليد الطولى على معاوية فيما بعد زمن التحكيم ^(٢) ، إلى أرض عمان بالقرب من الشام ، إذ وجهه الرسول إلى نفوذ الشام التى ارتأت بها أقوام بلى وعذرة ، حيث تربطه صلة القرى بأولئك العرب هناك . فكانت أم العاص بن وائل امرأة من بلى . مما حذى بالرسول إلى اختيار عمرو لاستنفار تلك القبائل لمناجحة الشام اعتماداً على صلة القرى بينه وبين أخوال أبيه فى أرض بلى ^(٣) .

(١) القرى ، المرجع السابق ، ص ٣٢

(٢) كان والد عمرو ، وهو العاص بن وائل ، من أغز أمية ، أى سفيان أرضا والدمناوية

(٣) القرى ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٠٤

وهكذا كانت سياسة الرسول في إطلاق يد هذا النفر من بني أمية وغيرهم من المواليين لهم سياسة صحيحة ، نستند إلى تأليف نفوذهم للإسلام والإفادة من مجهوداتهم في نشره ، ونجلى ذلك حين خرج عمرو بن العاص إلى تخوم الشام^(١) . إذ عندما بلغ عين ماء في أرض جذام يقال لها السلاسل توقف حتى يسير غور هذه البقعة ، وبعث إلى رسول الله يطلب منه مدداً . فوجه إليه الرسول أبا عبيدة من الجراح على رأس الأمداد ، ثم زود الرسول أبا عبيدة بشعليات حربية تجعل لعمرو مركز الصدارة على الجند جميعاً . ولما وصل أبو عبيدة إلى معسكر عمرو انضوى تحت لواءه امتثالاً لأمر الرسول ، إذ حين خاطب عمرو أبا عبيدة قائلاً : « إنما جئت مدداً لي ، قال أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله قال لي لا نتخلفاً ، وأنت إن عصبتني أطعتك ، فقال عمرو فأنا أمسرت عليك ، فقال أبو عبيدة ، فدونك ذلك^(٢) .

وكان الرسول حازماً خبيراً في إتخاذ هذه السياسة وكسب ولاء بني أمية وأنصارهم في غزواته لمنطقة تخوم الشام ، إذ رأى بعد غزوة مؤتة ضرورة نشر الإسلام بين عرب الشام وإخراجهم من حظيرة البيزنطيين . فقد واجهت حملة مؤتة عند معان من أرض الشام قوات البيزنطيين التي انضم إليها حال وصولها أرض البلقاء المستعربة من ظلم وخدام وبيهاء وبلى ، في مائة ألف رجل ، عليهم قائد من بلى^(٣) . وهكذا يدل على حصافة الرأي في انتداب عمرو بن العاص لكسب ود بلى ونشر الإسلام بينهم لما كان لهم من مركز الصدارة في تلك البقعة من تخوم الشام .

(١) كان خروج عمرو إلى تخوم الشام نحو آثار غزوة مؤتة ، ونشر الإسلام بين القبائل العربية في شمال بلاد العرب وإخراجهم من دائرة التبعية للبيزنطيين .

(٢) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

Muir, The Life of Muhammad, 397

(٣) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولما توفي الرسول كشف الأمويون القناع قليلا عن أطماعهم السياسية في إقليم الشام . إذ أتي عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأبناؤه البقاء على عمالتهم في تبوك وفدك وغيرها ، ورفضوا طلب أبي بكر للدخول في إدارته لتصرف شئون تلك النواحي المتاخمة للشام ، وأجابوا بقول يحمل الكثير من المعاني ، فسرتها الأيام فيما بعد حين قضوا على أزمة الخلافة الإسلامية « نحن أبناء أبي أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا »^(١) .

على أن بني أمية وجهوا نشاطهم نحو إقليم الشام ، واشتركوا في المغازي التي أرسلت إلى شتى أرجاءه دون القناعة بإدارة بلدة من البلاد المتاخمة له . إذ أدركوا أن الشام المسرح الذي يحذر بهم إظهار مواهبهم فيه ، وأن يسكبوا بحمل الدين الإسلامي إلى أهله أسنى الذكر ، لموضوع ما فاتهم من سبق في اعتناق الإسلام . فحارب أبناء سعيد بن العاص بن أمية في مغازي الشام وقتل منهم الكثير حتى قيل : « ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجلا من بني سعيد بن العاص ميتا »^(٢) .

وهكذا خضب بنو أمية بدمائهم أرض الشام وغذوا به بذور سلطنتهم الذي أرنع على عهد معاوية ، بعد أن استفاد بنفسه من أحداث الفتوحات زمن الخلفيتين أبي بكر وعمر . وتحلى إقبال الأمويين على الشام بعد انتهاء أبي بكر من حروب الردة واتجاهه إلى إعداد الجيوش لفتح هذا الإقليم . فكان نصيبهم هو الأوفر في المساهمة في العمليات الحربية من حيث قيادة الجيوش وعدد الجند الذين وضعوا تحت تصرفهم .

جهز أبو بكر أربعة جيوش ، جعل عليها يزيد بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح . وضم جيش يزيد

(١) القرطبي . المرجع السابق . ص ٢٢ .

(٢) القرطبي . المرجع السابق . ص ٢٢ .

بن أبي سفيان أعظم الحارثيين مراسلوا أعظم قفراً وخرج أبو بكر بنفسه مع يزيد بن أبي سفيان يودعه ، وصار الخليفة ماشياً ويزيد راكباً ، إجلالاً لهذا القائد الذي رغب الخليفة في تكريمه لما له من شأن في هذه الحملة المتجهة إلى الشام ، ولجعل له مركز الصدارة فيها عوضاً عن خالد بن الوليد الذي ذهب إلى العراق ، وصار جيش يزيد في المقدسة ، يحمل علمه معاوية بن أبي سفيان أخو القائد ومؤسس الدولة الأموية فيما بعد ^(١) .

واتجه ككل جيش من الجيوش الإسلامية جنوب منطقة معينة من إقليم الشام ، لاحتفظ فيها مدى صلة القرى أو ديارية قادة الجيوش بقضاياها وأحوالها . فقول أبو عبيدة الجبارية ، ومزرجيل بن حسنة الأرمني في المنطقة القريبة من بصرى وعمرو بن الحارث القرطبي ، ويزيد بن أبي سفيان البلقاء . وكان اختار القائد الأخير للبقاء على أساس معرفته الوطيدة بها . فكان لأبي سفيان بالبقاء قرية أو ضيعة تابعة له إسمها « بقبش » مما بين جليلا مدى نشاط الأمويين وخبرتهم بالشام قبل ظهور الإسلام وإبان انتشار الفتوحات الإسلامية به ^(٢) .

ولم يقتصر نشاط الأمويين في هذه الفتوحات الإسلامية الأولى في إقليم الشام على يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية وخروجهما معاً على رأس جيش واحد . إذ بعث يزيد بأخيه معاوية إلى جيش أبي عبيدة بن الجراح أشد أزره في زحفه على بلاد الشام ، مما جعل على الاعتقاد بأن قادة الجيوش الإسلامية الأخرى في الشام اعتمدوا على خبرة أفراد البيت الأموي بتلك البلاد . وفضلاً عن ذلك سارع سائر أفراد البيت الأموي إلى المساهمة في حملات المسلمين على الشام ، واضطلعوا بمهمة بث روح الحماس والحمية في نفوس المقاتلين المسلمين . فاشترك

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤٣٩ .

الطبري ، المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) البكري ، فتوح البلدان ، ١٣٥ .

أبو سفيان نفسه في جيش ابنه يزيد المحارب في الشام ، وصاحبه بعض أفراد بيته من النساء .

وكان للنسوة من البيت الأموي نصيب ملحوظ في العمليات الحربية التي قامت بها جيوش المسلمين ، فضلاً عن تشجيع الجند على مواصلة القتال . إذاً من أبو سفيان النساء اللاتي خرجن مع الجيوش وأجعلن خلف الصفوف بأن يقذفن بالحجارة كل من رجع إليهن من جند المسلمين . وكذلك اشترك نساء البيت الأموي اشقرا كاهلياً في معركة اليرموك الخاصة التي جلبت الشام إلى المسلمين ، إذاً قامت جويرية ابنة أبي سفيان مع زوجتها في هذه الواقعة ، إلى جانب غيرها من النساء ، اللاتي ظهر منهن أيضاً عند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان . وتوج هذا النشاط الحربي الذي أبداه الأمويون في هذه المعركة الكبرى أعمال أبي سفيان نفسه ، الذي أصبح عينه يومئذ مطراً باسمه بذلك في سجل كفاح آل بيته في حروب الشام ^(١) .

وعرف الأمويون كيف يتعمدون بتار جهودهم في فتوحات الشام على عهد الخليفة ابن بكر وعمر . إذ استطاعوا أن يكسبوا ثقة هذين الخلفيتين وأن يحتفظوا بمركزهم الرفيع في إدارة شؤون إقليم الشام وأن يوسعوا سلطانهم فيه . فبينما ساءت العلاقات بين الخليفة عمر والقائد خالد بن الوليد ، وعزل الأخير عن قيادة الجيوش الإسلامية ، وعلى حين حاسب الخليفة عمر عمرو بن العاص فاتح مصر حساباً شديداً ولم يدع له فرصة يقدم فيها نفوذه في مصر ، نجد أبناء البيت الأموي في إقليم الشام يسرون قدماً في مدارج السلطان وتدعم قبضتهم على شئونه . إذ نجح أبناء البيت الأموي في الشام القردى في المصير الذي لاقاه خالد وعمر ، وزادت دعائهم قوة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه . وتعتبر سياسة هذا

(١) الضمير ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩ .

كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

الخليفة تجدد أفراد البيت الأموي بالشام ، سواء جاء ذلك عقواً أو تحت إملاء ظروف خاصة ، ظاهرة تدعى الانتباه إذا ما قورنت بسياسة إزاء غيرهم من القادة والولاة .

وتجلبت هذه السياسة حين توفي يزيد بن أبي سفيان ، فقد عهد الخليفة عمر إلى معاوية بن أبي سفيان إدارة ما كان خاضعاً لأخيه يزيد من بلاد الشام . هذا إلى جانب توسيع الخليفة عمر سلطان معاوية في إقليم الشام حين نظم إدارة هذا الإقليم ، إذ عندما توجه عمر إلى إقليم الشام للمرة الأخيرة سنة ١٧ هـ ، ورتب الجيوش بها وقوى حصونها ، عزل شرحبيل بن حسنة وأقام مكانه معاوية . واتضح ميل عمر إلى تفضيل أبناء البيت الأموي حين سأله شرحبيل « أمن سخطه عزافتي يا أمير المؤمنين ؟ فأجاب لا ، إنك لك أحب ، ولكنني أريد رجلاً أقوى من رجل »^(١) ، وبذلك كان معاوية يتولى الأردن ودمشق عند وفاة عمر .

وإذا كان الأمويون قد نعموا بميزات جعلت أيا بكر وعمر يفضلانهم على غيرهم في إدارة إقليم الشام ، فإن الأمويين ساروا وفق سياسة مرسومة تهدف إلى تجنب إثارة شكوك الخليفة عمر نحوهم ، وما يفجم عن ذلك من إقصائهم عن الشام محط آمالهم . إذ قدم معاوية من الشام مرة وهو والى عليها من قبل عمر ودخل على أمه هند بالحجاز لزيارتها ؛ فقالت له « يا بني ، .. قد استعذلك هذا الرجل (أي عمر) ، فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته » . ثم دخل على أبيه أبي سفيان ، فقال له « يا بني ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين ... قد قلدوك جسيماً من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم ، فإنك تجرى إلى أعد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لثقت فيه »^(٢) . وإن هذا الاتفاق في المعنى رغم اختلاف اللفظ يوضح تماماً

(١) التاريخ ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الجديد ج ١ ، ص ١٤ ، ١٥ .

أعمال الأمويين في البقاء عمالاً على إقليم الشام ، فضلاً عن أن نصيحة أبي سفيان كشفت عما راودهم من طموح جهدوا على تحقيقه رويداً ، فاعمدوا أولاً إلى كسب ود الخلفاء وعظمتهم .

وتوالى الأحداث مما يكسب الأمويين نفوذاً وحظوة عند الخليفة عمر ، الذي أدرك بثاقب نظره أهليتهم عن غيرهم في تصريف شؤون الشام . إذ حدث أن وفد عمرو ومعاوية على الخليفة ليتحدثا معه في شؤون ولايتيهما ، واعترض عمرو على بعض أقوال معاوية مما جعل الأخير على أن يهتم بذكر مثالب عمرو في إدارة مصر . على أن عمرو أدرك بذهائه قصد معاوية ، وعمل على أن يصرفه عن الخوض في أحوال مصر بأن لطمه على وجهه . فاستاء الخليفة وأمر معاوية أن يقتص نفسه . ولكن كياسة معاوية تجلت حين أجاب « إن أبي أمرني ألا أقضي أمراً دونك » ، فأرسل عمر إلى أبي سفيان ، الذي تجلت كياسته كذلك في قض هذه المأثرة وما يحصل أن تحطيه ورأسها من أضرار بأن تنازل عما لحق بابنه من إهانة في هذا القول الحكيم « لهذا بعثت إلى ! أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت ذلك له » .

ومن أمثلة نجاح معاوية في التخلص من المآزق والعمل على نيل رضى الخليفة عمر نيقال والياً على إقليم الشام ما حدث بينه وبين الخليفة حين قدم على ذلك الإقليم في إحدى زياراته المتكررة . إذ خرج معاوية في موكب حافل لاستقبال عمر ، لكن الخليفة لم يرفه ذلك وأعرض عنه ، فسار معاوية راجلاً إلى جوار الخليفة حتى قال له عبد الرحمن بن عوف ، أتعبت الرجل ، حينئذ سأل الخليفة معاوية عما دعاه إلى الخروج في هذا الزهو والركب الحافل ، فأجاب معاوية « لأننا في بلاد لا نمنع فيها من جواسيس العدو ، ولابد لهم مما يرهبهم من هيئة السلطان ، فإن أمرتني بذلك أقت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهت » . وهكذا

استطاع معاوية بلباقته التي افتقر إليها غيره من الولاة أن يفوز برضى الخليفة ،
إذ أجابه عمر قائلا : « لئن كان الذي تقول حقا فإنه رأى أريب ، وإن كان
باطلا فإنها خدعة أديب ، وما أسرك به ولا أنهارك عنه ^(١) » .

وهكذا دعم الأمويون نفوذهم في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم السياسي
في صدر الإسلام ، لا شعرا كهم في الحملات التي بعثها الرسول إلى إقليم الشام ،
وكذلك في الجيوش التي فتحت هذا الإقليم . ثم سرعان ما بذلوا غيرهم من قادة
المسلمين ، حتى سكنوا لأنفسهم في إقليم الشام . واستمر على شأنهم القرظي
حيث يقول « فانظر كيف لم يكن في حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في
أعمال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أحد من بني هاشم ، فهذا وشبهه هو الذي
حد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم وأخرج كأسهم وفعل أمرانهم ^(٢) » .

ولما توفي الخليفة عمر بن الخطاب خطا الأمويون خطواتهم التالية نحو تثبيت
أقدامهم في إقليم الشام ، واعتباره الحصن الذي يحميهم من النوازل والخطوب .
وكلت هذه الخطوة بالنجاح لأن البيت الأموي في الحجاز استطاع أن يفوز
بالخلافة بعد عمر بن الخطاب . إذ جاء انتخاب عثمان بن عفان خليفة فرصة أتاحت
للأمويين في الشام أن يلبثوا دعائم سلطنتهم وهيكلاتهم ، معتمدين على أن أحد
أفراد البيت الأموي هو الخليفة في الحجاز .

ولم يستطع الأمويون أن يحققوا شعورهم بأن انتخاب عثمان خليفة أمر حقيق
لهم ما كانوا يطمحون إليه من السيادة والرياسة . إذ غير عن ذلك أبو سفيان ،
والد معاوية مؤسس الخلافة الأموية ، حين وفد على عثمان لانتخابه خليفة
وسمه رطل من بني أمية . فقال أبو سفيان للمجلس الذي ضمهم من بني أمية ،
وكان إذ ذاك قد عني لأفئدتكم أحد من غيركم ؟ فقال الحاضرون لا ، فقال عندئذ

(١) ابن عبد ربه ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٢) القرظي ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

« يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما رأيت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثته^(١) » .

وإذا كان أبو سفيان تطامع إلى خلافة عثمان على أنها بداية لوصول بني أمية إلى قوى شئون المسلمين ، فإن ابنه معاوية أدرك أهمية إقليم الشام والدور الذي يمكن أن يؤديه الاحتفاظ بالخلافة دائماً في بيت أمية ، وأنه المقر الذي يجب أن تنتقل إليه حاضرة هذه الخلافة . وتجلت هذه السياسة التي رسمها معاوية بشكل واضح حين أطلق له عثمان وأخبره من بني أمية العنان في إدارة الولايات الإسلامية . إذ دعم معاوية نفوذه وسلطانه في إقليم الشام وأصبح والياً عليه كله بعد سنتين من خلافة عثمان^(٢) . ولذا ما أن ثارت الولايات الإسلامية على عثمان لتجيزه لأقاربه وتفضيلهم على غيرهم في تصريف شئون المسلمين حتى انطلق معاوية للدفع عن عثمان معتمداً على جاهه وسلطانه في إقليم الشام .

وأفصح معاوية عن نواياه في نقل حاضرة الخلافة إلى الشام وعن اعتزازه بهذا الإقليم حين وفد على عثمان سنة ٣٥ هـ مع سائر الولاة من بني أمية وغيرهم للاستشارة في هذه القلاقل والفتن التي انتشرت ضد عثمان . إذ حضر معاوية مع عثمان مجلساً ضم علياً بن أبي طالب وطليحة والزبير ، وفهم مدى سخط الناس على تفضيل عثمان لأبناء البيت الأموي ، وأن الموقف غذا بالحجاز خطيراً . فعندما انقضى عقد المجلس وخلي معاوية بعثمان أشار عليه قائلاً « يا أمير المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا »^(٣) .

وهذه الفكرة التي دان بها معاوية رفض تنفيذها عثمان ، وأبى مفارقة

(١) التميمي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

(٢) السري ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) السري ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٠١ .

الحجاز . ولكن معاوية صمم على متابعة خطته ، وهي الدفاع عن بقاء الخلافة في بيت بني أمية . إذ مر في طريق عودته إلى الشام بعد انتهاء مؤتمر الولاة الأمويين يقوم من المهاجرين في المدينة ، وخاطبهم قائلاً : « لقد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغموراً في قومه ... حتى بعث الله رسوله ، فسبقتهم إليه ... فسدتهم بالسبق لا بغيره ... وسيدوم هذا الأمر ما استقمتم ، فإن تركتم شيخنا هذا (أي عثمان) يموت على فراشه ، وإلا خرج منكم ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم »^(١) . وكشف معاوية بذلك القناع تماماً عن سياسة الأمويين في شأن الخلافة بينهم ، وأن الاعتداء على عثمان والاتجاه إلى القوة في تنفيذ ذلك يرجع كلفة بني أمية بفضل مؤازرة أهل الشام لهم .

وكان معاوية حصيفاً بعيد النظر حين لوح لعثمان بترك الحجاز والانتقال إلى الشام والاعتماد على قوة ذلك الإقليم . إذ أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذي تدار منه شؤون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها . فقد هاجرت معظم القبائل الهامة من بلاد الحجاز وأقامت في المعسكرات التي تحولت إلى مدن زاهرة في الأقاليم المفتوحة ، وفقدت بلاد العرب بذلك مكانتها باعتبارها محور ارتكاز الدولة الإسلامية . وعجل أهل المدينة أنفسهم بالقضاء على ما تبقى لحاضرتهم من هيبة وسلطان ، وبنوا أن منابع القوة غدت مركزة في مدن خارج إقليم الحجاز حين وفد الثوار من سائر الأمصار لشد أزر الناقمين على عثمان بالندية . إذ تطورت أحداث الثوار وقتلهم عثمان إلى أن المسألة أصبحت مسألة قوة ، وأن إزالته شخصية عثمان لن تحدى قتيلاً ، لأن القوة كامنة خارج إقليم الحجاز والقوز لمن يسيطر على أعنتها^(٢) .

ونجحت هذه الظاهرة بعد أن توجع على بالخلافة ، إذ أقام مقر حكمه في الكوفة

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .

(2) Wellhausen, The Arabi Kingdom, 53, 54.

تاركا الحجاز ، وسيطر منها على الدولة الإسلامية عدا الشام التي تحصن بها معاوية
وتعصب عليها العامة . ويعتبر النزاع بين علي ومعاوية نزاعاً بين العراق والشام ،
استطاع أن يصد فيه معاوية ، رغم انتصارات علي بن أبي طالب الحربية ، بفضل
طاعة أهل الشام وولائهم له . فقد تلى رجحان كفة علي في معركة صفين حادثة
التحكيم التي جلبت التفرقة في صفوف جيش علي بن أبي طالب ، على حين جنى
معاوية بعد هذه المعركة ثمار جهوده في إقحام الشام وبقاء أهلها على الولاء له . ثم لم
تلبث الأحداث أن هيأت الجو لمعاوية تماماً حين قتل علي بن أبي طالب . إذ آثر
الحسن التنازل لمعاوية^(١) ، الذي أصبح بذلك خليفة المسلمين (٤١ هـ / ٦٦١ م) ،
وورثت جهود أسلافه وأبائه من بني أمية في إقليم الشام . وقد تابع معاوية
جهوده في إعراز دولة الإسلام ، حتى سجل له التاريخ إحلال المسلمين سكان
البيزنطيين في سيادة البحر الأبيض المتوسط .

(١) آثر الحسن التنازل عن حقه في الخلافة حين رأى تفاقم جند العراق عن نصرته ،
وعقد صلحاً مع معاوية اعترف فيه بأن معاوية خليفة المسلمين طوال حياته . ولكن جاء هذا
التنازل هامة تحول في تاريخ معاوية وسلالته من بعده .

الفصل الثاني

معاوية قاهر البيزنطيين

المرحلة الأولى في الجهاد الأموي

ضد البيزنطيين

استبصار معاوية على منطقة الشام الساحلية :

كان الرعييل الأول من أولى الأمر في الدولة الإسلامية قادة من الطراز الأول في إدارة شئون دولتهم ، وإيثار ما يضمن لها الاستقرار والأزدهار ، ويهيئ لها سبل الطمأنينة والسودد ، على ما عدها من الأمور التي يزينها الحموى أو التي يعوزها رائد نفع أرض الإسلام . وحمل لواء هذه الطبقة الأولى من مؤسسي الدولة الإسلامية الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي سجل له التاريخ الفوز بقصب السبق في تنظيم البلاد التي استظلت على عهده بلواء الإسلام . إذ وضع لإدارتها دستوراً سار خلفاؤه على هديه في النهوض بشئون دولة الإسلام ، والعمل على رفاهيتها وتنظيم أحوالها ، حتى ساد السلام « دار الإسلام » على حد قول المصطلح الذي أطلقه الرحالة المسلمون الذين جاؤوا بفتح الدولة الإسلامية فيما بعد ، وأسهبوا في وصف ما رقت فيه من أمن وهدوء وسعادة .

وكانت إحدى الخطوات التي اتخذها الخليفة عمر بن الخطاب في ميدان تنظيم الدولة الإسلامية وتدعيمها تنصيب معاوية بن أبي سفيان والياً على ما كان تابعاً لأخيه يزيد بن أبي سفيان من أرض الشام ، حين اختطفت المنية هذا القائد الأموي الأول من مسرح الأحداث في تلك البلاد . إذ جاءت خطوة

الخليفة عمر بن الخطاب فرصة أتاحت لمعاوية متابعة الجهود التي بذلها من قبل في الدفاع عن الدولة الإسلامية ، فرد غائلة البيزنطيين عنها وحصرهم في عقر أرضهم من « دار الحرب » على حد قول المصطلح الإسلامي ، الذي نعت الأمبراطورية البيزنطية بالمعدوان والتخرش بأرض الإسلام .

لقد سعى معاوية أولى دروس الجهاد ضد البيزنطيين في مدرسة الفتوحات الإسلامية التي قامت زمن الخلفيتين أبي بكر وعمر . وقد خرج منها بفائدة اختص بها وحده ، وجعلته قدراً على متابعة الرسالة التي ادخلها له الزمن في الجهاد البيزنطيين بعد أن انفرد بحكم الشام وغدا المهيم عليه . إذ اضطلع معاوية بمهمة فتح المدن الساحلية من بلاد الشام ، وأدرك من العمليات الحربية التي دارت رحاها بينه وبين البيزنطيين في تلك المدن ما عليه خصومه من بأس وصلف وعناد . فقد عجم عودهم وعرف حقيقة أمرهم وطبيعة معدنهم مما خفي على غيره من قادة المسلمين الذين غابت عنهم هذه الأمور — التي سماها معاوية — وسط أحداث انتصاراتهم الباهرة وسحقهم البيزنطيين في ساحة اليرموك وأرض أجنادين . وكان لطبيعة الميادين الحربية بأرض الشام أثرها في تفنق ذهن معاوية وتحديد خطته إزاء البيزنطيين ، إذ دارت رحى المعارك الحربية بين المسلمين والبيزنطيين في الشام في جهات حددتها جغرافية هذا الاقليم ، ورتبت أحداث الوقائع حسب مسرحة الطبيعة . ذلك أن تضاريس الشام تتألف بتتابع من أراضي منخفضة وأخرى مرتفعة ، تمتد موازية لبعضها البعض من الشمال إلى الجنوب مع ميل نحو الشرق . وكان لكل قسم منها تميزاته ، وليكن اقتصر هذه الأقسام على أربع مناطق متباعدة ، الأولى على الساحل ، والثانية أرض جبالية بها الغابات ، والثالثة وديان الأردن ، والأخيرة المنطقة الملاصقة للصحراء^(١) .

(1) Hitti, History of Syria, 130.

وبدأ المسلمون فتوحاتهم في المنطقة الأخيرة المتصلة بالصحراء ، حيث ينتهي عندها الشريان التجاري القديم الذي سارت فيه القوافل التجارية من مكة والمدينة إلى دمشق . عروس المنطقة الرابعة في الشام . وامتدت العمليات الحربية الإسلامية إلى البلاد الواقعة شرق الأردن والبحر الميت ، التي كانت أولى البقايا التي استولى عليها المسلمون من أرض الشام . ثم تلى ذلك سقوط دمشق ومحاولة المسلمين تدعيم ما سيطروا عليه من أراضي الشام . فأحسوا ضرورة الزحف إلى ما وراء دمشق والاستيلاء على المنطقة الشمالية عندها من أنطاكية وحمص وحلب ، وتم لهم النصر في تلك الجهة كذلك ، وثبتوا أقدامهم في شطر هام من إقليم الشام .

وهكذا انصرف المسلمون على طول الطريق القديم الذي ارتادته قوافلهم التجارية في رحلة الصيف ، تاركين للمنطقة الساحلية التي فصلتها سلسلة جبال لبنان عن داخلية البلاد . وهذه المنطقة الساحلية كانت موضع اهتمام البيزنطيين ورجالهم ، إذ أقاموا عندنها المعاقل للدفاع عنها وخصصوا حاميات كبيرة لشد أزرها ، منها حاميات قيصرية وعسقلان وغزة ويافا ، فضلاً عن الحاميات المربطة في المدن الأخرى الهامة مثل عكا وصور . وترجع العناية بهذه المدن إلى أنها نقط قربة من أماكن يمكن أن يحتار عندها الحاجز الجبلي الذي يفصل الساحل عن داخلية البلاد . فكان اتصال الساحل بالمنطقة الخلفية يتم عبر عدة فتحات هامة ، الأولى عند خليج الإسكندرونة ، حيث تؤدي إلى العراق ، والثانية فتحة عند وادي نهر الكلب شمال طرابلس ، وأخيراً فتحة عند مرج بن عامر شرقي عكا^(١) . وأدرك المسلمون أثناء فتوحاتهم في إقليم الأردن خطورة بقاء المدن الساحلية ولاسيما صور وعكا في أيدي البيزنطيين^(٢) . إذ جاءت الأمداد البيزنطية من هذه

(١) Hilli, History of Syria, 130, 131.

(٢) أطلق اليونانيون على المنطقة المحيطة بصور مباشرة اسم (سوريا) ، ثم عمموا الاسم =

المنطقة الساحلية لدفع المسلمين ، وعرفت تقدم عمرو بن العاص . واستدعى ذلك تأزر القوات الإسلامية ، حيث طلب القائد العام للمسلمين بالشام ، وهو أبو عبيدة بن الجراح ، من يزيد بن أبي سفيان أن يسير من دمشق لمعاونة القوات الإسلامية بمنطقة الأردن . وقد لبى يزيد الدعوة ، إذ سار بجيوشه إلى سواحل الأردن وعلى مقدمتها أخوه معاوية^(١) الذي بدأ منذئذ يدرك حقيقة هذه المنطقة وأنها مفتاح الشام والمخاض الذي يجب النزاع سيطرة البيزنطيين عنه لضمان بقاء المسلمين بهذا الإقليم .

أظهر معاوية في فتح هذه المنطقة الساحلية عبقرية مسكرة ، وبذل فيها جهودا ذات « بلاء حسن وأثر جميل »^(٢) ، على نحو ما شهد له بذلك قادة المسلمين بالشام . فاستولى أعماله الموقفة في هذه المنطقة بالاستيلاء على عرقه ، على حين استعصت سائر المدن الساحلية الأخرى على أخيه يزيد . إذ كانت هذه المدن فضلا عن متانة حصونها ومنعتها متصلة بالبحر مباشرة تطلق منه الأمداد البيزنطية والمؤن التي تضمن لها المقاومة والبقاء . فترك يزيد لأخيه معاوية مهمة إخضاع هذه المدن ، وعاد إلى دمشق^(٣) .

وانتهت معاوية نحو مدينة من أهم المدن الساحلية بالشام وهي قيصرية . وكانت هذه المدينة قد استعصت على عمرو بن العاص نفسه ، ذلك القائد الماهر الذي

== فيما بعد حتى أصبح يتولى سائر الأراضي التي خضعت لهم . ولم يستعمل العرب ذلك الاسم الدلالة على الأراضي الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط كما فعل اليونان ، وإنما أطلق العرب اسم الشام على هذه المنطقة جميعها ، ابتداء من جبال طوروس التي بها تمررت قسما شمالا إلى شبه جزيرة سيناء جنوبا ، والتي يحدهما غربا البحر وشرقها صحراء بلاد العرب . وتنقسم هذه المنطقة جغرافيا إلى أربعة أقسام ، الأولى المنطقة الساحلية عليها المنطقة الجبلية ثم دويلان الأردن وأخيرا المنطقة اللاصقة لصحراء بلاد العرب .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

فتحت منطقة فلسطين . إذ بعد مغادرة عمرو بن العاص فلسطين متجهاً ففتح مصر ، سار معاوية إلى هذه المدينة وألقى عليها الحصار . وظل معاوية متابعاً في حصاره أمام مقاومة المدينة وعنادها ، إذ كانت مثل سائر المدن الأخرى تتلقى الأمداد والآلات الدفاع من البحر ، وصلت هجمات المسلمين المتوالية . وظل الحصار الإسلامي على قيسارية عدة سنوات حتى تمكن معاوية أخيراً من اقتحامها سنة ٥١٩ هـ / ٦٤٠ م بفضل خيانة يهودي بالمدينة يدعى يوسف . إذ أتى ذلك الرجل إلى المسلمين ليلاً ودلهم على طريق يمكن مهاجمة المدينة منه بعد أن أخذ منهم أماناً لنفسه وأهله . ونجح معاوية بذلك في اقتحام المدينة ، وأخذ منها كثيراً من الأسرى والغنائم أرسلها إلى المدينة بالحجاز ليعلن لساكنات المركزية بها نبأ هذا النصر المبين . واستقبل الخليفة عمر هذه الأنباء بالفرح العظيم وقدر لمعاوية هذه الجهود الطيبة والنفائى في تأدية واجبه ^(١)

وكانت الأحداث تسير في الشام في ذلك الوقت بما يزيد في قوة معاوية ويجعله ينعم بتأثير انتصاراته . إذ كان انتقال عمرو بن العاص إلى ميدان مصر ، ثم وفاة يزيد أخى معاوية عاملاً مهدداً للجو الانفراد بإدارة شئون الشام واستكمال فتوحاته ^(٢) . فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في فتح ما بقي من المدن الساحلية ويصف له حال المنطقة الساحلية بالشام الخاضعة للمسلمين ، ويذكر أنها معرضة للخطر البيزنطى . فأمره الخليفة بالعناية بتحصين المدن الإسلامية على الساحل ، وترتيب الجند فيها ، وإقامة الحرس على مناطرها ، واتخاذ المواقف لها زيادة في الحيلة من أى هجوم مفاجئ . ثم أمره بعد ذلك بغزو ما تبقى من مدن فلسطين ^(٣)

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ . Mint, The Caliphate, 124, 143.

(٢) تولى أبو عبيدة بن الجراح إدارة الشام ، ولما تولى أبناء الربيع (الطاعون) الذى اجتتاح الشام (١٨ هـ / ٦٣٩ م) عين الخليفة عمر بن الخطاب مكانة يزيد بن أبي سفيان . ثم خلف معاوية أخاه يزيد .

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

سار معاوية لفتح مدينة عسقلان وأقى جنداً شديداً في حصارها ، إذ يستدل من أوصاف الرحالة المسلمين المتأخرين لها أنها كانت شديدة المنعة قوية الحصون ، لها أسوار مزدوجة ، وأهلها يستطيعون مقاومة الحصار مهما طال لسكينة أبار المياه العذبة بها ، وأشجار الجوز التي تعبق أودع السكان . وكانت هذه المدينة تدعى لأهميتها وعظمتها عروس الشام ، ويكثر بها الزيتون والسكرم^(١) . ولذا أقى معاوية تعباً وعناءً في حصار المدينة ولم يستطع الاستيلاء عليها إلا صلحاً . وما أن دخلها حتى أقام بها جنداً طراستها والدفاع عنها^(٢) . على أن الطريقة التي خضعت بها هذه المدينة زادت معاوية يقيناً بما عليه أعداؤه البيزنطيون من عناد ، ودأبهم على فض مضاجع المسلمين ، وأنهم لا يسلمون أية مدينة في سهولة ويسر .

وأتت سياسة معاوية في تحصين المدن الساحلية التي استولى عليها ثمارها حين جدد البيزنطيون غاراتهم بشكل عنيف على سواحل الشام أواخر عهد الخليفة عمر وأوائل خلافة عثمان . إذ تمكنت المدن الإسلامية من دفع هذا الخطر المفاجئ ، ثم سار إليها معاوية حيث شد أثرها وأصلح ما خرب منها . ووضع معاوية في هذه المدن جنداً جديداً أغرام على الإقامة فيها بجميعه إقطاعيات من الأرض يستمرها ويتمتع بحيراتها .

وتابع الخليفة عثمان سياسة سلفه عمر بن الخطاب في السماح لمعاوية بفتح ما تبقى من مدن الشام الساحلية ، وزاد عثمان على ذلك بأن ترك الحرية التامة لمعاوية في تصريف شؤونه بإقليم الشام . فأنجحه معاوية إلى مدينة طرابلس التي كانت ميناء دمشق ومفتاح حياتها الاقتصادية . وكانت هذه المدينة تزد سائر مدن الشام في حصونها وبهاؤها ، ولها ميناء عظيم يسع عدداً كبيراً من السفن .

(١) Le Strange, Palestine under the Muslims, 401, 402.

(٢) الأندلسي ، نفس المرجع ، ص ١٢٩ .

وامتازت هذه المدينة كذلك بأن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، فصل أمواجه إلى أسوارها ، على حين يحيط بسورها البرى خندق عظيم ، ويعلو الجدار آلات الدفاع من المراتب . وزاد في منعة هذه المدينة ومنهولة حصولها على الأمداد وجود أربع جزر صغيرة تقع إحداها وراء الأخرى^(١) في مياه البحر القريبة منها وتدخل في تبعيتها .

وجه معاوية إلى هذه المدينة سفيان بن عبيد الأزدي وأعد خطة محكمة للاستيلاء عليها ، وكانت تهدف إلى تضيق الحصار عليها براً وبحراً ومنع الأمداد من الوصول إليها من الأساطيل البيزنطية . فبنى القائد الأموي حصناً في مرج يقع على أميال من المدينة سمى إليه وحى حصن سفيان ، وضيق الخناق على أهالي طرابلس . ولكن يبدو أن الحصار البحري لم يكن على نسق الحصار البرى وأن البحر كان مفتوحاً أمام الأهالي . إذ لما استند الحصار كثب سكان المدينة إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يطلبون منه إرسال أمداد أو إيفاد سراكب يهرجون عليها . ولما لم يكن ثمة مناص من التسليم بحث إليهم الامبراطور البيزنطي سقناً هربوا عليها في جنح الليل ، وختل حصون المدينة من المدافعين عنها^(٢) .

وفي صباح اليوم التالي حين هاجم المسلمون حصون المدينة لم يلقوا مقاومة ، حيث هجرها الجند ومن كان قادراً على الدفاع ، فاستولى عليها سفيان وأخير معاوية بذلك . فاهتم معاوية بإعادة تعمير هذه المدينة لما لها من أهمية في حياة الشام الاقتصادية ، ولا سيما منطقة دمشق خاصة . فأرسل إليها جماعة كبيرة من اليهود وكذلك حامية عظيمة للدفاع عنها . وكان يحدد أفراد هذه الحامية كل عام ليجعل القوة المدافعة عن المدينة دائماً من الجند الشديدي البأس والمراس^(٣) . ويعتبر معاوية بذلك أول مدعم لفتوحات الإسلامية بالشام ، والمنظم للتنظيم

(١) Le Strange, OP. Cit, 348

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

الإداري الذي سبق أن وضعه الخليفة عمر بن الخطاب لهذا الإقليم . إذ كانت
الأجناد ، وهي الأقاليم الخربية التي أنشأها الخليفة عمر بن الخطاب في بلاد الشام
حين وفد إليها وعقد بها مؤتمر الحامية سنة ٦٣٩ م ، تقتصر إلى المنافذ الطبيعية
لها على البحر . لجند الأردن كان معتوراً لبقاء عكا وصور بأيدي البيزنطيين ،
وجند دمشق مضيقاً عليه بسبب مقاومة مدينة طرابلس ، وكذلك جند فلسطين
كان يعوزه الاستقرار بسبب بقاء عنقلان على المقاومة . وهكذا جاء معاوية
واضطاع بمهمة الاستيلاء على هذه الثغور الحامة ، وحقق المسلمين الاستقرار
في ربيع الشام .

على أن معاوية أدرك الشيء الكثير من البيزنطيين إبان العمليات الخربية
التي اشتبك فيها معهم ، كما تفتحت مواهبه في تلك الفترة وهيأته لما ادخره له
المستقبل من مشاريع كبرى في سبيل إعزاز الإسلام ورفع رايته . إذ عرف معاوية
أن بقاء المسلمين في الشام لن يأخذ صيغة تامة ولن تستقر دعائمه طالما دأب
البيزنطيون العناد ، وما تحذنه به أنفسهم من الاعتداء على أرض الإسلام .
فالتجّه معاوية إلى التصدي للبيزنطيين وجعلهم يدركون حقيقة الفتح الإسلامي
بالشام ، وأن العرب الجدد الذين حلوا لواء الإسلام يختلفون تماماً عما عرفوه من
عرب القبايلة وغيرهم من بدو شمال بلاد العرب .

ولم يكن معاوية الشخصية التي ترچل الأعمال وتقبل على ما تحذنه به
نفسه دون روية وإعداد ، إذ أدرك ضرورة الاهتمام أولاً بولاياته بالشام وخلقها
خلقاً جديداً حتى تصبح قادرة على أداء الرسالة التي أقيمت على عاتقه وكاهل
رعاياه من هذا الإقليم . وأثبت معاوية في هذه المرحلة التمهيدية أنه حري بأن
يلقب «قيصر العرب ، وقاهر البيزنطيين» .

أداة الجهاد ضد البيزنطيين

عزف معاوية بعميق ريقه الفذة أن الجهاد يتطلب حسن إعداد طافات البلد الذي يدير شؤنه ، وما يتصل بذلك من تأمين سلامته الداخلية بالقضاء على عناصر الاضطراب وإزالة كل ما يؤدي إلى الفلج وعدم الاستقرار ، ثم انتقاء الأشخاص الذين يعرفون كيف ينفذون خططه وأهدافه ، وكان معاوية حراً في تنفيذ هذه السياسة وإعداد الأداة الحربية لمناهضة البيزنطيين منذ أطلق الخليفة عثمان بن عفان يده في إقليم الشام بتصرف في إدارته كيفما شاء . ولذا استهدف معاوية في سياسته الداخلية تحويل إقليم الشام وأهله ، بذوته وقواته وما به من شخصيات ذات مواهب عالية ، إلى الدفاع عن أرض الاسلام وإعلاء كلمة المسلمين .

وضع معاوية نصب عينيه تحرق البيزنطيين الما اضياع ممتلكاتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وأنهم لن يهدأوا إلا باستردادها وإخراج المسلمين منها مرة أخرى ، وألا طمأنينة للمسلمين ولا استقرار لهم إلا إذا انحدت كفتهم وتم إعدادهم لنأدية ما يعهد إليهم به من واجبات الجهاد . وأظهر معاوية في هذا الاتجاه من ضروب الخلق والكياسة ما يمكنه من أن يخلق من العرب سادة الصحراء أمراء للبحار ، وأن يفودوا الأساطيل عبر عباب المياه بنفس المهارة والبراعة التي قادوا بها سفن الصحراء عبر الرمال والصحاري ، وحقق بذلك انقلاباً كفل للمسلمين السكينة العليا على البيزنطيين . ثم دعم معاوية مجهوداته بلم شمل رعاياه في صعيد واحد ، بإعلاء من نظامهم القبلي وتغايدهم البدوية مادة مدربة قادرة على زلزلة صرح أعدائهم .

أقبل معاوية على تنظيم المادة التي أمانه بجهد وحساسة وتبهرتها لمهمتها الجديدة . فوجد في الشام غالبية عظمى من السكان العرب الجنديين ، الذين حملوا

أرض هذا الاقليم منذ أمد بعيد قبل الاسلام . وقام إلى جانبهم جماعات من عرب الشمال^(١) الذين وفدوا إلى الشام مع تيار الفتوحات الاسلامية . وكان هذان المنصران يحملان في نفوسهما ما فطرا عليه منذ أقدم المصور من إحن وبغضاء تولدت عندهما قبل ظهور الاسلام . وقد عرف أهل الجنوب باليمنيين ، وكان لهم قديماً قسط وافر من الحضارة والمدنية ، وكذلك السيادة على عرب الشمال الذين عرفوا بالمصريين . وقد جهد المصريون قبل الاسلام على التخلص من رقة عرب الجنوب ، ولكن لم يتمكنوا من غير الزعامة الثقافية ، حيث أصبحت لغتهم العربية اللغة السائدة في أنحاء الجزيرة ، وظلوا من الناحية السياسية يؤدون الجزية لعرب الجنوب ، واشتبكوا معهم في بعض الوقائع الحربية أوجبت نيران الحقد والبغضاء .

ولما ظهر الإسلام قضى على النزاع القبلي ، واستطاع الرسول أن يظهر قلوب العرب من الضغائن والأحقاد ، وتجلى ذلك بصورة واضحة في المدينة بصفة خاصة . ثم جاءت موجة الفتوحات الاسلامية وحملت كثيراً من المصريين معها إلى الشام ، واستقرت غالبيتهم في دمشق وفلسطين . ويظهر أن عوامل البغضاء كانت كالأظى في الرماد ، قابلة للاستعمال إذا ما تهيأت لها الفرص . غير أن محررين الخطاب لم يتبحر تلك الفرص أمام هذه الأحقاد لما ألقاه على عاتق العرب من أعمال الفتح الرائعة . ولكن ما أن جاء عهد الخليفة عثمان حتى وجدت البغضاء بين القبائل

(١) أقدم سكان بلاد العرب إلى قسمين رئيسيين ، هم عرب الشمال وغالبيتهم أقما في نجد والحجاز ، وكانت لغتهم هي العربية الفصحى ، وأقدم الآخر عرب الجنوب وغالبيتهم سكنوا اليمن وعلى طول الساحل المطاور ، وكانت لغتهم شبيهة أو الجزيرة . وكانت السيادة دائماً لعرب الجنوب في النواحي السياسية حتى حين سادت لغة عرب الشمال سائر البلاد قبل الاسلام . وكانت العدواة منتشرة بين هذين القسمين ، ولم يضح حينها إلا ظهور الاسلام . على أن المضاعف الشخصية فيما بعد أثار العدواة القديمة ، وظهر التنافس بين عرب الجنوب وعرب الشمال في آخر أيام الدولة الأموية . وكان من العوامل الهامة التي قضت على هذه الدولة .

العربية منتفخاً لها ، وبدأت طلائعها جاية في إقليم الشام بين المضريين
والثيميين^(١) .

وهكذا وجد معاوية تركمة مثقلة لا بد من تصفيتها والاستفادة مما بها من
مميزات للقيام بمشاريعه الحربية ضد البيزنطيين . وكانت مهمته غير سهلة ، إذ هو
من المضريين أو عرب الشمال ، على حين معظم سكان إقليم الشام القدامى من
الثيميين أو عرب الجنوب . ولكن معاوية استطاع أن يوجههم إلى حيث يريد . وخطى
خطواته الموقفة في تلك السيل بقم قبيلة بني كلب ، التي كانت أهم وأقوى القبائل
الثيمية في الشام إذ ذاك ، إلى دائرة نفوذه .

وكانت هذه القبيلة وريثة مجد العساسنة وأفرادها سادة إقليم الشام حتى
أصبح اسم بني كلب مرادفاً لعرب الشام . وكانت عظمتهم تستند إلى أسس
اقتصادية قوية ، إذ كانوا يملكون غوطة دمشق ومنطقة جنوب جبل حوران
وواحة دومة الجندل وتبوك . وهيات لهم هذه البقاع السيطرة على الطرق التجارية
التي تخترقها فضلاً عن الينابيع المائية الكثيرة بها^(٢) . وكان معاوية يدرك أهمية
هذه القبيلة منذ أيام الخليفة عثمان ، الذي تزوج امرأة من بينهم تدعى نائلة .

وأبدى معاوية مهارة وكياسة في إزالة طلائع التنافر التي كادت تندلع في إقليم
الشام بين قبيلة كلب وغيرها من القبائل الثيمية وبين المضريه من عرب الشمال .
إذ كان أولئك العرب الثيميون بالشام ممن تأثروا بالنظم البيزنطية وتعودوا بذلك
الخضوع للنظام الذي يعتبر من أهم أركان الدول . نعم إنهم كانوا على وفاق مع
سكان الشام الآراميين الأصل ، وامتزجوا معهم في المدن الكبرى غير متخذين لهم
مسكرات خاصة بقيمون بها . وكان لهذه الظاهرة أثر كبير بعد الفتح الإسلامي ،

(١) سيد أمير كلأ ، نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(٢) Lammens, Etudes sur Le règne du Calife Mo' Awia Ier , 286, 289.

إذ بينا أقام العرب الفزاة في العراق في معسكرات جديدة منفصلة عن السكان ، سار العرب النازحين حديثاً إلى الشام مع نياز الفتوحات على نهج أسلافهم القذافي وعاشوا داخل جدران المدن الشامية . ولذا كان من السهل القضاء على بوادر الشقاق القبلي بالشام ، إذ استطاع معاوية أن يجذب إليه عرب الجنوب القذافي ، الذين ألفوا طاعة الأمراء والحكام ، ولم يحدوا طرقياً في تحويل ولائهم إلى هذه الشخصية الإسلامية الجديدة^(١) .

وتخرج معاوية بجهوده في هذا الميدان بمعاكسة سلفه عثمان بن عفان ، إذ صاهر قبيلة بني كلب ليضمن له شعبة وأتباعاً ، ويحقق لنفسه استقراراً وأمناً . فتزوج بابتنة أحد سادة قبيلة بني كلب وتدعى ميسون ، وكانت من بيت عريق يقيم بالقرب من بدمر . وفطلا عن ذلك كانت غالبية منازل هذه القبيلة لا تبعد عن دمشق ، مقر معاوية ، سوى بضعة أميال . وكان والد ميسون ويدعى بحدل ممن نال مكانة عالية في الشام بعد الفتح الإسلامي ، إذ منحه المسلمون إقطاعاً من الأرض في دمشق ، مما يدل على الخدمات التي أداها المسلمون في فتوحاتهم في الشام^(٢) .

وجنى معاوية ثمار جهوده في تنظيم قبائل الشام وضمها إلى صفوفه ، إذ غدا اليمنيون يكونون غالبية الجيش الشامي وعدة معاوية في حملاته ضد البيزنطيين ، ورددوا له دائماً قولهم رهن مشيخته وطوش إرادته . وساهم اليمنيون كذلك بشكل رائع في الحملات البحرية ، حيث فضل معاوية الاعتماد عليهم في الميدان البحري ، وتعبئة أساطيله منهم للقيام بالجهاد في هذه الجهة التي تتطلب إخلاصاً تاماً . وأثبت اليمنيون أنهم جديرون بثقة معاوية حيث امتازت حملاتهم البحرية على البيزنطيين بالعنف والشدة^(٣) . ولم يتردد معاوية في إبداء المال للمجدد

(1) Wellhausen, op cit, 131, 133 .

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب العربية ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(2) Lammens, op cit, 286.

(3) Lammens, op cit, 52, 53.

الجنين : فسكان السكبيون منهم يأتون في المرتبة التالية للسفيايين في العطاء ، ونال ألفان منهم شرف العطاء ، لكل فرد ألف درهم من الخيالة . ومنحهم الخليفة حق تنظيم شؤونهم المحلية دون تدخل من الحكومة المركزية^(١) .

وأكل معاوية هذا العمل بمراقبة شيعته من بني أمية ، فعاملهم بحذر وتدهر وسكته ، حتى لا يصبحوا موضع خطر عليه في يوم من الأيام . ونجح في هذه المهمة أيضاً لأنه أخفى عن نفسه مظاهر الطاغية في حكمه ، وإنما عاملهم كسيد من سادة القبائل القديمة ، يعقد اجتماعات لهم بعد صلاة الجمعة في المسجد ويباحثهم في شؤونهم ، كما عقد لهم أعياد هذه المجالس في القصر واستقبل وفودهم التي تأتي من سائر الأمصار ، ويصفي إلى شكائهم^(٢) .

واهتم معاوية بالنواحي الاقتصادية لإقليم الشام ، باستطاع الاتفاق منها على مشاريع الحربية ضد البيزنطيين . وكان هذا الاهتمام موضع عنايته منذ أن انفرد يشنون الشام . إذ كتب إلى الخليفة عثمان بن عفان يطلب منه الحصول على أراضي وضياع الشام التي يذهب ريعها إلى بيت المال في مكة نظراً للحملات الحربية الواسعة التي يشنها ضد البيزنطيين ، فضلاً عما يتطلبه من نفقات لاستقبال سفراء الدولة البيزنطية ، وتدمير مصاريف البعثات التي يوفدها إلى القسطنطينية^(٣) . وأجاب الخليفة إلى طلبه^(٤) ، مما جعل معاوية يضع الحجر

(١) Krenner, Orient under the Caliphs, 319.

(٢) كارل بركاان ، من تاريخ . ص ١٤٩ .

(٣) Krenner, op cit, 125.

(٤) كانت الأرض التي غالب بها معاوية تابعة في الأصل للأباطغ الذين دخلوا في الولاء للدولة البيزنطية . ولما هزم البيزنطيون حرب شنت من بطارقة الأباطغ وهجروا مراكزهم ، على حين نزل كثير منهم أيضاً في حملات المسلمين على الشام . نصارت مراكزهم ومراكز تابعة للسلطات المركزية الإسلامية مباشرة . ولم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل فيها لها بيت المال ، فيخرج عقد مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية في أمره عن العام إلى عثمان أن يرى أحوال عليه من الزواجر في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسائل أمراءها ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها . وصحب في كتابه عنه المزارع الصائفة

الأول في بناء اقتصاديات الشام والاستقلال بمرافقه الاقتصادية ليرجعها حسبما يشاء في النواحي الخيرية .

وانتقل معاوية من تنظيم الشام وأهلها ومرافقه إلى إعداد الهيئة للمباشرة التي تقوم بتنفيذ مشاريعه الخيرية ضد الميزنطين . وكانت هذه الهيئة من شيمته الخالصين له وعدت ساعده الأيمن في أداء كل ما يريد . وكان اختيار معاوية لهذه الطبقة من الرجال اختياراً سليماً دل على صدق فراسته وحسن مواهبه . فالت أن اشتغال معاوية بعد إسلامه مع الرسول الكريم جعله يفرح عن كتب الشخصيات التي كتب له التاريخ أن يتصل بها فيما بعد سواء في ميدان الحجة والصدقة أو العداوة والبغضاء . إذ كان كثير من الشخصيات التي ناهضت معاوية فيما بعد ، وكذلك التي استطاع أن يجذبها إلى جانبه ، من صحابة الرسول ومن التفت حوله واضطلعت بأداء مشاريعه .

وكان للبيئة التي نشأ فيها معاوية أيضاً أثر كبير في اختيار معاوية ، فهو ابن أبي سفيان زعيم مكة وأعظم شخصياتها حكمة وتجربة ، وأوسعها اتصالاً بالبيوتات الكبرى في مدن الحجاز ومع القبائل العربية بها كذلك ، إذ استلزمته أعماله التجارية توسيع دائرة اتصالاته ودراسته مع من يتعامل معهم ، ومعرفة كل واحد منهم معرفة دقيقة لا يلبس فيها ولا غموض . فتلقت معاوية على يد هذا الرجل العظيم أصول الحكم وإدارته كما يفهم أهل مكة ، ووفق وجهة النظر التي رآها أبوه ، من حيث تكوين الانصار والأشباع واصطلاح الرجال والعمال .

وحكذا أخذ معاوية بقلب النظر في صفحات رجال الحجاز ومدنها ليتلقى منهم من هو جدير بثقته ، وحرى بالتموض بمشاريعه التي تعينه على تأمين دولة

— ومنها له وسأله أن يسطر لها ما يقوى بها على — وصفت له . لم يكتب إلا هذا بل ذلك كذا .

ولم تزل يد معاوية حتى قتل عثمان وأقصى إلى معاوية الأمر ، فأمرها على حالها .

انظر ابن عساکر ، عس للرجع ، ص ١٨٣ .

الإسلام وتعليم أظفار أعدائه البيزنطيين . فأخذ من أبناء مدينة الطائف^(١) بعض رجالها الممتازين . وكان أبناء ثقيف أشهر أهل هذه المدينة التي اعتبرها حجاز قريش توأم مكة في البهاء والعظمة ، كما نظر إليها المسلمون على قدم المساواة مع مكة والمدينة بعد انتشار الإسلام في أرجاء بلاد العرب . وكان لقريش اتصال وثيق مع بني ثقيف قبل الإسلام ، وعرفوا فيهم الذكاء المدايح والنشاط الوافر ، فضلا عما كان لقريش من أملاك بالطائف جعلتهم أشد اتصالا ومعرفة بحقيقة سكانها والتميز بين طبقاتها . وضع من بني ثقيف على عهد معاوية شخصية النفيرة بن شعبة وزيد بن أبيه^(٢) ، وكانت لها جهود موفقة في تأمين سلامة الدولة في الداخل ، وتهيئة الجو لمعاوية للتفرغ إلى مشاريعه الخارجية .

وظهر من شيعة معاوية في ميدان العمليات الحربية ضد البيزنطيين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وحبيب بن مسلمة ، وبصر بن أبي أرطام ، والضحاك بن قيس ، وأبو الأعور السلمي ، وشريحيل بن الصامت الكندي . وكان الأربعة الأول من أصل مكي ، أما أبو الأعور فمن القيسية أو عرب الشمال الذين يمت لهم معاوية بصلة القرى . وفضلا عن ذلك كان والد أبو الأعور من الشخصيات التي حاربت إلى جانب أبي سفيان في معركة أحد ومن المؤيدين لبني أمية ، مما جعل ابنه موضع عناية معاوية ورعايته^(٣) ، ولم تكن العناية وحدها هي الأساس الأهم والأوحد في انتقاء معاوية هؤلاء الرجال دون غيرهم ، وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبابكر وعمر ورأى أن يستفيد من جهودهم ومواهبهم ، ولا سيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام^(٤) .

(١) تقع مدينة الطائف على ارتفاع كبير من الأرض يبلغ ستة آلاف قدم ، وكثرت بها الأشجار المثمرة من وسفت ، أنها قطعة من أرض الشام . وكانت مصيف القليقة الأرستقراطية من أهل مكة . واشتهرت بالورود ذات العطر والتي استند منها أهل مكة ما احتاجوا إليه من طيب . وكثرت بالطائف الكروم والنبي والزيتون ، وكان يبيدها رائحا ويقل عليه سكان مكة .

(2) Wellhausen, op cit, 113.

(3) Lammens, op cit, 42, 43.

(4) Ibid, 44.

وتبين هذه السياسة حرص معاوية على اختيار ذوي التجارب الواسعة ،
أو من فهم مطلق يمكن استغلالهم عن طريقها لتدعيم نفوذه في الشام ، ثم متابعة
مشاريعه ضد البيزنطيين . وكان ممن يمثل هذه الظاهرة عبد الرحمن بن خالد
بن الوليد ، إذ هو من تلك الشخصية التي عزها الخليفة عمر ، ورأى معاوية أن
يعيد لابن خالد بن الوليد شيئاً من النفوذ والسلطان ، وأدى ذلك إلى ظهور طبقة
جديدة من الرجال « *homines novi* » ساروا في ركاب معاوية وتقاتلوا في
نصرة قصيته وتحقيق أهدافه . ولذا غدت هذه الطبقة الجديدة من الرجال تتكون
من أبناء الطبقة الوسطى من قرش ، الذين لا يحشى معاوية منهم بأساً
أوضراً^(١) ، إذ آثر معاوية الابتعاد عن أفكاره ذوي المطامع الواسعة ووضعهم
تحت مراقبته ، ولكن أفرقهم بالمعالي والمناجح ليضمن ولائهم وهدوئهم .

وآتت سياسة معاوية فوزاً محققاً ، فكان أولئك الرجال الذين اعتمد عليهم
في الدفاع عن أرض الإسلام وحمايتها ممن يلعون بشنون الشام ويعرفون أحوالها
معرفة جيدة . إذ وفدوا جميعاً إلى الشام مع الجيوش الإسلامية الأولى وهم في ريعان
الشباب باستثناء مخرجيل ، وبدأ كثير منهم حياة العامة الأولى تحت إمره يزيد
بن أبي سفيان ، الذي كان معاوية على مقدمة جيوشه . ثم انتقلوا إلى التسمية
لمعاوية بعد وفاة أخيه يزيد ، واحتفظ بهم معاوية دون أي تغيير حيث كانوا أداة
مدربة صالحة للنهوض بأعباء مشاريعه . وأثبت معاوية بذلك أنه خير سلاطة
بني أمية وأجدرهم على تنفيذ سياستهم الرسوخة في الاحتفاظ بالأعوان والأنصار
ومتابعة هذه السياسة على أحسن الوجوه^(٢) .

وتفانى أولئك القادة في الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين ،
فاشتهر حميد بن مسلمة بحملاته المظفرة البرية في أرض الجزيرة وأرمينيا وقيادتهما

(١) Hammer, op. cit., 43.

(٢) Ibid., 44, 45.

بأسيا الصغرى ، على حين نشهر بصر بن أبى أرطاة فى ميدان المعارك والغزوات
البحرية فى البحر الأبيض المتوسط . ونجلى صدق وإخلاص هؤلاء القادة حين نشبت
الحرب الأهلية بين على ومعاوية ، إذ وقفوا إلى جانب معاوية وأزروه فى نصاله .
فحارب حبيب إلى جانب معاوية فى معركة صفين ، وسار أبو الأعور لمساعدة
عمرو بن العاص فى استرداد مصر من عامل على بن أبى طالب عليها ، على حين
نوجه بصر بن أبى أرطاة إلى بلاد الحجاز لإعادتها إلى التبعية لمعاوية ^(١) .

ومثلت تعاون أتباع معاوية على كسب النصر له فى الحرب الأهلية بينه
وبين على ، على حين أتم بعض معاونيه الآخر ، وهم المقيرة بن شعبه وزباد بن أبيه ،
تدعيم هذا النصر قبله بعد . إذ كانت الجهة الشرقية من دولة معاوية تتطلب عناية
خاصة من حيث نوع الولاة الذين يديرون شؤونها ليتفرغ طرويه ضد البيزنطيين
على الجهة الغربية . فسكان على أولئك الولاة تثبيت سلطان الأمور بين أهل
العراق الذين كانوا دائماً يرفضون راية المقيان ضدهم ، ويأخون من الدخول فى
التبعية لأهل الشام . فبين معاوية المقيرة بن شعبه وهو أحد رجال الطائف من
بنى ثعلبة المخاضين على الكوفة ، وأدى هذا الوالى مهمته خير أداء ، إذ أخذ
يفسد بدهائه التبايع العلاقات بين الخوارج وبين الشيعة أتباع على بن أبى طالب
وشغلهم بذلك عن مناوأة معاوية ومعارضته ^(٢) .

وقام معاوية بعمل آخر رائع أكتسب به شخصية أخرى عظيمة من أبناء
الطائف وهو زياد . وكان هذا الشخص ممن يحيط بأصله الغموض ، فاستقدمه
إلى دمشق واعترف به ابناً غير شرعى لأبى سفيان ، ورفعته إلى مصاف إخوته .
ومنذ ذلك الحين تفانى زياد فى خدمة البيت الأموى وإعلاء شأنه . فولاه
معاوية على البصرة ، واستطاع أن يحمى الفتن والفتلاقل بها بعد أن كان لا يهدأ

(١) Lammenet op cit. ٤٨، ٤٩ .

(٢) كارل بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١١٥ - ١٢٦ .

لها قرار . وعندما توفي المغيرة سنة ٦٧٠ م صار زياد والياً على البصرة والسكوفة
كأنطاك ، وتابع سراسمه في إخماد الفتن بالعرفان وقضى عليها تماماً ، إذ حل
منظمات المقاتلين القليلة القديمة العهد بهذه البلاد وأعاد تنظيمها على أسس جديدة .
فقسم الجند بالعراق إلى أربعة أقسام ، جعل على رأس كل قسم منها رجلاً من
الموالين للبيت الأموي ومن يستطيع كبح جماح أولئك الجند ^(١) .

وعندما زياد يحكم من البصرة نصف الامبراطورية الإسلامية وأمن جانبها
وجعل الهدوء يسود أرجائها ، مما مكن معاوية من استئناف جهاده ضد البيزنطيين .
فتداعى شيعه معاوية الأنصار على أراضي الدولة البيزنطية ، وحفظوا بجهادهم
« كتاب مغازي معاوية » . وبلغ من نفاقهم أن أطلقوا عليهم أسماء للتكريم
والتمجيد ، فلقب حبيب بن مسلمة « بحبيب الروم » لإغرائه الموافقة على أرض
الروم ، أي البيزنطيين ^(٢) ، على حين أخذ عبد الرحمن بن خالد يغير متوياً على
تخوم الدولة البيزنطية ويوقع بحندها الخزائن القادمة . أما بصرى بن أبي أرطاة
فقاد أسطول معاوية الناضج وسجل به تاريخ المسلمين البحري المبكر على
صناعات البحر الأبيض المتوسط ، بما يرفع من شأنهم ويثبت جدارتهم وبسالتهم في
العمليات الحربية في هذا الميدان الجديد .

وكانت آية تقوى أولئك القادة في جهادهم ضد البيزنطيين شخصية أمير
البحر على عهد معاوية ، ويدعى عبد الله بن قيس الحارثي من بني فزارة .
إذ قام هذا القائد بخمس عشرة غزوة بحرية صيفاً وشتاء دون وجل ولا خوف .
فكان يذهب ليستطلع أماكن البيزنطيين ويدرس طرق مفاجاتهم ، وإنزال
الخرائب بهم ، وقد دفع حياته من جرأته في آخر الأمر ، مسجلاً بذلك أروع
الآيات على تقوى عمال معاوية في الجهاد من أجل إعزاز الإسلام ضد البيزنطيين .
ولقي عبد الله بن قيس حتفه حين خرج في أحد قوارب الاستطلاع لدراسة
أحد موانئ البيزنطيين . وكان مختفياً في زى أحد التجار ، ونزل على لرفأ دون

(١) كارل بروكهايم نفس المرجع ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(2) Encyc. of Islam (art. Habib).

أن يقنيه إليه أحد . ولكن بعض الصدقة كشفت أسره ، إذ حدث أن كان على
البناء بعض الشحاذين ، وتقدمت منهم امرأة تستجدي منه صدقة ، فأعطاهما
وأجرل لها العطاء بما أثار ربتها واستلفت نظرها . فحولت إلى حراس الميناء ،
وقالت لم إن عبد الله بن قيس بالميناء ، مما يدل على شدة بأسه وسطوته وأنه
كان موضع حديث سكان الموانئ البيزنطية . فأسرع الجند إلى الميناء وهاجموا
عبد الله على حين ضرب الملاح لرافقه له وجري إلى المركب وأخير أصحابه بما
حدث . وكان سفيان بن عوف الأزدي خليفة عبد الله على المركب ، فبعد في
مناوشة الجند ليشغلهم ويحملهم على إطلاق سراح عبد الله ، ولكن لم يستطع
إنجاز ذلك العمل وعاد إلى قواعده بعد قتل عبد الله بن قيس . ويروى أن
المرأة المستجدية سئلت بعد ذلك عن الطريقة التي عرفت بها شخصية القائد
الإسلامي فقالت : إنه كان كالتاجر فلم أعرف عنه شيئاً في مبدأ الأمر ، ولكن
حين سألته أعطاني كتاباً كتب لك فعرفت أنه عبد الله بن قيس^(١)

وهكذا استطاع معاوية أن يجعل من شيعته جنوداً محاربين ورجالاً
صناديد ، لا يعرفون غير الشام وطناً لهم ، يزودون عن حياضهم بأنفسهم في غير
تردد ولا وجل . وكان أحب قلب يغدق عليهم هو أنهم من أهل الشام ، فأطلق
معاوية على بصر بن أبي أرطاة « سيد أهل الشام »^(٢) ، وغدوا من ينطبق عليهم
لحبهم للدفاع عن الشام ضد البيزنطيين ، الغزاة الذين تقاعوا في البلد المفتوح
« Graecia capta ferum victorem capiv »^(٣)

وكان من حسن طالع الدولة الإسلامية أن يتم معاوية تدعيم مركزه بالشام وينتهي
من استعداداته في وقت قد أفاق فيه الدولة البيزنطية على عهد الأمير طورين قنسطانطين الثاني
وابنه قنسطانطين الرابع ، وجهدت في استرداد أملاكها من المسلمين وإيقاف تيار فتوحاتهم

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٨٧ .

(٣) Lammens, op cit, 50.

الصعوبة البيزنطية على عهد قسطنطين الثاني وقسطنطين الرابع :

في الفترة التي جهد فيها معاوية على تنظيم بلاد الشام وتعبئة مواردها للجهاد واصطناع الأشياع والعمال ، كانت الدولة البيزنطية تشهد فترة مماثلة لحاولات السلطات فيها أن تلم شعثها وتضم صفوفها وتفيق من عثرتها التي أوقعتها فيها الفتوحات الإسلامية . وكان أباطرة الدولة البيزنطية يستهدفون إعادة ما فقدوه من أملاك أخذها منهم المسلمون ، ودون أن يحدتهم أنفسهم بصعوبة تحقيق هذه المشاريع ، ودون أن يدركوا ما عليه المسلمون من قوة وبأس وأنهم يختلفون تمام الاختلاف عن سائر القوى التي احتكوا بها قبل ظهور الإسلام .

وكانت الدولة البيزنطية بأباطرتها تستلهم وحى ماضيها في استطاعتها الفوز على المسلمين ، وأن في قدرتها أن تقال من عثرتها وتستفيد سالف هيبتها ، فالتاريخ البيزنطي يمثل سلسلة متصلة الحلقات من الهزائم القاصمة والفوضى الزلزلية وبأخرى وأخرى بالانتصارات الرائعة والاستقرار القام ، مما جعل أهالي الدولة البيزنطية يشعرون بوجود عامل دائم يهيئ لدولتهم عمراً طويلاً رغم ما يحيط بها من أعاصير وأنواء . وكان هذا العامل قدرة الدولة البيزنطية على أن ترفع إلى عرشها في فترات الأزمات والشدائد أباطرة أصحاب مواهب عالية ، يأخذون بيدها ، ويحنبونها العثرات والفناء ، ثم ينهضون بها إلى مستواها الرفيع مرة أخرى .

وتجلت هذه الحقيقة قبل ظهور الإسلام مباشرة ، إذ اكتسح الفرس الساسانيون أراضي الدولة البيزنطية وهددوا عاصمتها نفسها بالدمار . ولكن انبجحت هذه السكارة عن ظهور شخصية الامبراطور هرقل على عرش الدولة البيزنطية (٦١٠ م) ، واستطاع أن يقود سفينةها في خدق ومهارة ، وطرد الفرس وحول انتصاراتهم إلى هزائم فادحة ، واسترد مرة أخرى ممتلكاته من أيديهم .

ولكن ما كاد الامبراطور البيزنطى يعود إلى عاصمته حتى أخذت موجة الفتوحات الإسلامية تكتسح أرض الشام ، وأزالت بحموشه من ألوان الخزانم ما جعله يودع سوريا نهائيا قائلا « عليك يا سوريا السلام ، ونعم هذا البلد للعهد »^(١).

وكان هذا الوداع البيزنطى وداعا حقيقيا في تلك المرة لا رجعة فيه ، رغم تثبيت الامبراطور ودواته بالتعلق بأى معقل يمكن أن يعرقل حركة التقدم الإسلامى ، ويساعده على طرد المسلمين مرة أخرى ، ويعيد بذلك قصة الحروب الفارسية . وتجلى هذا الأمل في دفاع البيزنطيين عن مدينة قيصرية التى حاصرها معاوية مدى طويلا ، إذ تولى المقاومة في هذه المدينة قسطنطين ابن الامبراطور هرقل نفسه . ولم تسلم المدينة إلا حين اضطار قسطنطين إلى الحرب والعودة إلى العاصمة لاضطراب الأحوال فيها في أواخر حياة أبيه . فذهب الفرس في حامية المدينة وسلمت آخر الأمر لمعاوية وقوانه^(٢).

عاد قسطنطين إلى العاصمة تاركا وراءه إقليم الشام نهائيا في قبضة معاوية ، الذى أخذ يعدد لمساعدته أن تقوم به الدولة البيزنطية من محاولات لاسترداد هذا القطر الحام . وكان معاوية صادقا في فراسته وآرائه ، إذ كانت الدولة البيزنطية تعمل جاهدة إذ ذاك على التخلص مما حل بها من اضطراب ، وتسلم أعضائها الشخصية بخدرة بتصرف شئونها وتبعد عنها تيار الزحف الإسلامى . فشد رجوع قسطنطين إلى عاصمته بلاده ألى القوضى متفشية في إدارتها ، بسبب تدخل مارتينا زوجة أبيه هرقل في شئون الدولة . فكانت هذه المرأة الجيلة الشابة تعمل على إقضاء قوى الخطر عليها من القادة ، وتهدد الجولانيها هرقلوناس ليمتولى عرش الدولة . وساعد مارتينا على تنفيذ مآربها أن كثيرا من القادة البيزنطيين عادوا منهزمين من الميدان الشامى ، فاتهمتهم بالتقصير والمجز وأطاحت بالسكبار منهم .

(١) البلاخرى : فتوح الشمال ، ص ١٤٢ .

(٢) سيد أمير على : معجز تاريخ العرب ، ص ٢٧ .

وعسكت الامبراطورة أن تحصل من هرقل على وصية تنص على أن تتولى هي ومعها ابنتا هرقلوناس العرش ، بالاشتراك مع ابنه قنسطنتين الثالث . وكانت تبغى من وراء ذلك التمكن لابنتها الصغير وإعدادها للحكم . غير أن الشعب البيزنطى أبى أن يشترك فى حكمه امرأة ، وكان يبتغى هذه الامبراطورة الوصية بالذات ، وانقسم على نفسه فى هذا الصدد قسمين ، أحدهما يعادى الامبراطورة وابنتها ، ويطلب أن يتفرد قنسطنتين الثالث بالحكم ، على حين نادى حزب آخر بمناصرة مارتينا وابنتها . ولكن تغيرت الأحداث فجأة فى هذه الظروف ، إذ توفى قنسطنتين الثالث بعد أن حكم ثلاثة أشهر ونصف شهر . فشاع الاعتقاد بين الناس أن مارتينا دست له السم ليخلوها الجور . وترتب على هذه الشائعات أن نهض الجيش للدفاع عن حقوق قنسطنتين للتوفى ، ومطالب بتنصيب ابنة على العرش الامبراطورى مكان أبيه . وانتهى الأمر بقولية هذا الابن العرش إلى جانب مارتينا وابنتها ، وأطلق عليه الشعب اسم قنسطانز . ولم تلبث الحركة الشعبية أن تطورت وعززت مارتينا وابنتها هرقلوناس ، وطافهما الثوار بقطع لسان الأم ، وجذع أنف الابن ، ونادوا بقنسطانز الثانى امبراطورا بفرده سنة ٦٤٢ م ، وكان محزبه إذ ذاك أحد عشر عاماً .^(١)

وباعتلاء قنسطانز العرش وحده تغلبت الدولة البيزنطية على أزمة حادة قبل مضى السنة التى توفى فيها الامبراطور هرقل نفسه ، وتطلعت إلى حقيقته ليعيد لها مجدها السابق ضد المسلمين . وكان للوسط الذى نشأ فيه قنسطانز أثر كبير فى السياسة التى اختطها لتصريف شئون دولته والدفاع عنها . إذ جعلت منه الدسائس والمؤامرات التى أحاطت به فى أولى أيام حياته رجلاً شاماً يقظاً يحيا للاعتماد على نفسه ، وبدأت تظهر ما انحطت عليه نفسه من صفات حين أصبح رشيداً قادراً على إدارة دفة الشئون العامة . فرأى أولاً ضرورة تطهير الدولة

(1) Bury : A History of the Later Roman Empire, II 281 287.

عما علق بها من أحداث الحوادث السابقة ، قبل الاتجاه نحو المسلمين الذين زلزلوا دعائم دولته .

- بدأ قنسطانز بالقضاء على عناصر القلق والاضطراب في دولته ، وكانت مستوطنة إذ ذاك في إقليم آسيا الصغرى ، إذ غدا مقر التأثيرين على الأباطرة البيزنطيين ومركز تجمع المناوئين لسلطانهم . فكانت بعض القوات البيزنطية بآسيا الصغرى خارجة عن طاعة قنسطانز بسبب تحريض بعض الحاقدين على هذا الإمبراطور من رجال العهد الماضي . وتطور الأمر بأن شق الجند عصا الطاعة ، وتحول تفردهم إلى ثورة سافرة على الإمبراطور قنسطانز . ولكن هذا الإمبراطور قابل الثوار ببأس وعزيمة قوية ، وبرهن على ما تمتع به من حزم وجلد حين حاصر مناطق القوات الثائرة سنة ٦٤٥ م ، وضيق عليها الخناق حتى سلمت ، ودخلت صاغرة في التبعية والطاعة مرة أخرى لسلطانه ونفوذه ^(١) .

وأتيح قنسطانز سياسته الداخلية بحل بعض المشاكل الخارجية ليتفرغ نهائياً للمسلمين . ولكن لم يستطع أن يفرغ منها تماماً ، واضطر إلى توزيع جهوده بينها وبين محاربة المسلمين ، حتى لقي حتفه أخيراً وهو منهوك القوى مشقت الأفكار . وكانت أولى هذه المشاكل جماعات السلاف التي كانت قد استقرت في بلاد البلقان منذ أيام الإمبراطور هرقل ، وأخذت تعمل على الانتشار في سائر أرجاء الدولة البيزنطية وممتلكاتها بأوربا . وكانت هذه الجماعات قد استقرت من قبل في بلاد البلقان على أساس التبعية للدولة البيزنطية والتمهدها بأداء ما يطلب منها من خدمات ، وهو ما يسمى بقاعدة « المعاهدين » ^(٢) . ولكن لم تلبث هذه العناصر أن عملت على السيطرة على المدن الساحلية ببلاد اليونان ، ثم صنعت أساطيل

(١) Bury, op cit 357.

(٢) كلمة المعاهدين من معاهدة باللاتينية « foedus » إذ كانت الدولة البيزنطية تعقد معاهدات مع العناصر التي ترغب في التحول بممتلكاتها مقابل تعهدها بتنفيذ ما يطلبه الدولة منها .

لها وأخذت تغير بها على سائر الجزر اليونانية ببحر إيجه . ووصلت طلائعها حتى البسفور ،^(١) وهددت العاصمة البيزنطية نفسها .

وخشى الامبراطور قسطنطين ترك هذه العناصر وشأنها ، وعول على إخضاعها قبل أن يستفحل خطرها ، وما قد يتجم عن ذلك من اتفاق إغاراتهم مع هجمات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية . وكانت بعض العناصر السلافية قد حاولت فعلا الوصول إلى آسيا الصغرى ، والانضمام إلى جانب القوات الإسلامية التي كانت تعتمد على أطراف هذه البلاد الجنوبية للتضاءل على الدولة البيزنطية . ونجح قسطنطين في القيام بحملة تأديبية ، أعادت السلاف بشبه جزيرة البلقان إلى الولاء للدولة البيزنطية وتأدية ما كان مقرراً عليهم من التزامات ، كما جعلهم على التخلي عن الإغارة على المدن الساحلية ، وأخذ منهم كثيراً من الأسرى عتاقاً لهم.^(٢)

وما أن فرغ قسطنطين من خطر السلاف حتى انغمس في مشكلة دينية مع البابا في روما ، الذي كان يختلف مع بطريرق القسطنطينية حول العقيدة الخاصة بطبيعة المسيح . ومهما يكن من أصول الجدل الديني في هذه المشكلة ، فإن الامبراطور كان صديقاً لبطريرق القسطنطينية ، وعول على أنها ، هذه المشكلة كيفما كانت الوسيلة ليتوجه إلى المسلمين ، الذين أخذت طلائع حملاتهم البرية والبحرية تحت قيادة معاوية تهاجم أراضي دولته . فالتقى الامبراطور القبض على البابا وسجنه ، ثم نفيه أخيراً خارج إيطاليا.^(٣)

وظلت ذبول هذه المشكلة قائمة^(٤) بعد أن أحس قسطنطين أنه فرغ تماماً من مشاكله الداخلية والخارجية الخاصة بممتلكاته في أوروبا . ولكنه أقبل بعد ذلك

(1) Bury : op cit. 280

(2) I. bid. 292.

(3) I. bid. 294, 295

(٤) انظر نتائج ذلك العمل في الفصل الخامس من كتابي كذا .

على محاربة المسلمين برأ ومجرأ ، وكله أمل أن يعيد قصة جده هرقل مع الفرس .
غير أنه غاب عن قنسطانز أن المسلمين من معدن آخر غير معدن الفرس ، وأن
معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام قد أخذ تمام أهبة واستعداد له صدأى عدوان
بيزنطى . فخرج الامبراطور قنسطانز من اصطبله مع معاوية بدرس جديد
جسل الدولة البيزنطية تتخلى عن مشاريعها وأسلامها القديمة في استرداد بلاد
الشام وغيرها من أملاكها التي استولى عليها المسلمون ، وتذكر أن الملابس
والأوضاع الزمنية قد تغيرت ، وغدت السياسة والأمر الواقع يحتمان ضرورة المحافظة
على البقية الباقية من أملاك الدولة المخرجة لتيار الزحف الإسلامى .

وجاءت هذه السياسة الجديدة بخارطية الدولة البيزنطية وإن كان
الامبراطور قنسطانز قد دفع حياته ثمناً لها . إذ أنه بعد قتله في استرداد الشام إلى
جزيرة صقلية ليتخذها مقراً له بعيداً عن هجمات المسلمين ، ومركزاً يتوسط
كلاً من إيطاليا وشمال إفريقيا البيزنطية ، ويدفع عنه الزحف الإسلامى على ما تبقى
لدولته من أراضى . ولكن لقي الامبراطور حتفه حين وصل مدينة سيراكوز
بصقلية سنة ٦٦٨ م ، إذ آتت عوامل البغضاء التي بذرها في إيطاليا ثمارها
حين دخل مدينة سيراكوز . حيث قتله شخص من خدمه يدعى أندرياس
(Andreas) ، وهو بالتمام . ثم نوى بشخص يدعى ميزيزيوس (Mizizios)
امبراطوراً ، اختاره الناس امبراطوراً بصقلية لولاسته وألفه .^(١)

ولم تدم هذه المؤامرة طويلاً ، إذ جاء قسطنطين بن قنسطانز إلى صقلية
سريعاً وقبض على الثائلى والامبراطور الزعوم وأعدمهما ، وكذلك أزال العقاب
بغيرها من غلبة القوم الذين ثبتت عليهم تهمة التحريض على اغتيال أبيه قنسطانز .
ثم عاد إلى القسطنطينية متعباً ، مرخياً لحيته حتى أطلق عليه الناس قسطنطين ذا

(1) Bury, op. cit., 302, 303.

اللتحية « Pogonatos » . وقيل أن يبدأ بتنفيذ سياسة أبيه الجديدة التي وصل إليها بعد فشله في محاربة معارضة ، واجه ثورة جند الأناضول ، الذين ادعوا لأنفسهم حق الدفاع عن سائر أولاد قسطنطين الأخير ، وطالبوا بتنصيبهم إلى جانب قسطنطين على العرش . ولكن قسطنطين استطاع بدهائه أن يخمّد هذه الثورة ، حيث تظاهر بقبول مطالب الجند وأعادهم إلى أماكنهم ، ثم قبض على زعماء الثورة من القادة وجذع أوفهم ، معلناً نفسه إمبراطوراً تحت اسم قسطنطين الرابع .^(١) وبذلك حقق لامبراطوريته الاستقرار الداخلي وأعدّها لمقاومة حملات معاوية التي هدفت إلى الاستيلاء على عاصمته القسطنطينية .

وأتم قسطنطين تأمين دولته قبل الهجوم الإسلامي عليها بإكمال سياسة أبيه إزاء عناصر السلاف وغيرها من العناصر الضاربة في شبه جزيرة البلقان ، إذ كانت هذه المنطقة دائماً موضع قلق واضطراب ، تبرز عناصرها القراص الموانية واشغال الدولة البيزنطية بحروبها مع المسلمين لتخرج على طاعة الحكام البيزنطيين رغبة في التمكن لنفسها في هذه الأرض اليونانية . فسكن السلاف يكونون غالبية سكان شبه جزيرة البلقان باستثناء المدن الساحلية ولكنهم افتقدوا إلى القرايط والتعاون ، إذ كانوا يحبون حياة متنقلة لا هدف لها . غير أنه ظهر على عهد قسطنطين عناصر أخرى جديدة على أطراف شبه جزيرة البلقان من الناحية الشمالية جهدت على توحيد هذه العناصر السلافية ، وتأسيس دولة لها البلقان . وكانت هذه العناصر الجديدة هي جماعات البلغار الذين ملأوا فيما بعد صفحات التاريخ البيزنطي بأحداث العداوة والحروب المتكررة . على أن الإمبراطور قسطنطين الرابع أسرع إلى تأديب هذه العناصر الجديدة وأبعد شبحها عن أراضي دولته^(٢) ، وأنهى بذلك ما كان يضطرب به جوف بلاده من قلق

(1) Bury, op cit, 303, 308-309.

(2) Ibid, 331-332.

وعند استقرار ، ثم ولي جهوده شطر المسلمين .
ولما ما أنت وصلت حملات معاوية إلى أسوار القسطنطينية حتى كان
الأمبراطور البيزنطي قد كرس كل جهوده للدفاع عن عاصمته والاسمارة في المحافظة
عليها . واستطاعت الدولة البيزنطية أن تضمن لنفسها البقاء ، على نحو ما نجح
إليه معاوية من قبل في الدفاع عن إقليم الشام ، وإزاله بالبيزنطيين من ألوان
المزائيم ما جعلهم يعترفون بدولة الإسلام الناشئة ومكانتها في حوض البحر
الأيمن المتوسط .

معاوية والبيزنطيون في شرق البحر الأبيض المتوسط

سياسة معاوية البحرية :

باستيلاء المسلمين على الشام ومصر فتحت صفحة جديدة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، دون سلورها الأولى معاوية بن أبي سفيان بمداد الجهاد ، وملاها بأخبار عظمة المسلمين ونشاطهم الرائع في ميدان العمليات البحرية . ويعتبر معاوية صاحب الفضل الأول في رسم سياسة المسلمين إزاء البحر الأبيض المتوسط منذ زمن مبكر ، وحل المشكلة البحرية التي اعترضتهم منذ فتوحاتهم الأولى في الحوض الشرقي من ذلك البحر . إذ أطل المسلمون على مياه البحر الأبيض المتوسط من شواطئ طويلة تمتد من طرسوس شمالا إلى برقة جنوبا ، وتواجه في هذه المياه أعداء ألداء ، دأبوا على الأغارة على هذه الشواطئ الإسلامية وقض مضاجعهم بها .

أدرك معاوية بثاقب نظره المفومات الضرورية اللازمة لبقاء المسلمين في حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر الأبيض المتوسط يعتبر منذ أقدم التاريخ المحور الذي دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسفطان . وكان بقاء الدولة الفاتحة رهنا بسيطرتها على مياه هذا البحر ومياه من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع معاوية إلى إبعاد محالب البيزنطيين التي كانت تتحفر لتتشب مرة أخرى في شواطئ الشام . وعهد إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايته ، والتي كانت قواعد للأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتسد يد ضرباتها حينما نشاء إلى أرض المسلمين .

وضع معاوية خطة سليمة لتحقيق أهدافه البحرية ، ثم تطورت مع الزمن حتى ترك خلفائه سياسة مرسومة واضحة المعالم والأهداف . ولم تكن خطته من وحي الارتجال ، أو من محض الصدف . وتقدير المقادير ، وإنما كانت ثمرة تفكير صحيح ولابد بدأت طلائعه منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب . وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام الحجر الأساسي في صرح العمليات البحرية الأموية فيما بعد ، وفتحة المجد البحري الإسلامي عبر الأطلال . ونحلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحري الذي رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص ، مبدئاً له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطي على سلامة مدن الشام . إذ جاء في خطابه : « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ، وختم خطابه بهذا الوصف الدقيق المؤثر طالباً السماح له بغزو هذه الجزيرة .^(١)

ولم يكن الخليفة عمر بالشخص الذي يتدفع في آراءه ، ولا سيما في مسائل الأمور التي تتعلق بسلامة جند الإسلام والمسلمين . وكان عمر بن الخطاب على صواب في استشارة قادة الدواة الإسلامية على عهده في هذا الموضوع الجديد الذي أثاره معاوية . ووقع اختياره على استطلاع رأي عمر بن العاص وإلى مصر ، لما لهذه الولاية من شواطئ على نفس البحر الأبيض مثل بلاد الشام ، ولأنها كذلك معرضة للاغارات البحرية التي شنها البيزنطيون على سواحل المسلمين . وجاء رد عمرو بن العاص وصفاً رائعاً لطبيعة البحر وركوب مياهه : « وما يلاقيه المرء في ذلك من صعب ، فكأنه إلى الخليفة : « إني رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزعج العقول ... هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن لجأ يرق »^(٢) .

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

ولذا لم يكن عجيباً أن يؤثر عمر بن الخطاب التريث في إجابة طلب معاوية ،
ولا سيما أنه رأى ألا توجد حاجة ملحة تتطلب دخول المسلمين في ميدان المغامرات
البحرية صناعته بسلامة المسلمين ، إذ قال لمعاوية في رده « نأله لم أحب
إلى ثأ حوث الروم »^(١) . وسكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يفض عيبه
تماماً عن أى خطر يلوح فى الأفق مهدداً ولايته وأرض الإسلام . فكتب إلى
عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه
من خراب وانقمارها إلى وسائل الدفاع القوية ، إذ كانت الخطاة التى اتهمت
فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين « كما فتحوا مدينة فاهرة أو عند ساحل
رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين . فإن حدث فى شيء منها حدث
من قبل العدو ، سربوا إليها الأمداد »^(٢) . فكان هذا الأسلوب المتبع يتطلب
العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهيئة لإقامة الجند الإسلامى ، وتمكنه من الدفاع
عنها . ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لإصلاح حال السواحل بما يراه
كفيلاً لسلامتها من « مرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس
على منافعها واتخاذ المواقيد لها »^(٣) .

واستغل معاوية هذا التصريح واتخذ خطوة أساسية بنى عليها فيما بعد
مشاريعه البحرية . فأتى أن يحصن المدن الساحلية ويرودها بالقوات الحربية ،
بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بحراً إلى أى مكان يشاء . ووضع
لهذه المدن نظاماً عرّف بالرباط ، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند
والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام
حتى أصبح جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط بالجهاد أو الحرب المقدسة . إذ اجتذب

(١) الطبرى ، نفس المراجع ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

(٢) البلاذرى ، نفس المراجع ، ص ٢٤٤ .

(٣) نفس المراجع السابق ، ١٣٤ - ١٣٥ .

الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين ، داعياً على إغراز الإسلام ونصرته ،
ويبدو أن معاوية استعار هذا النظام من البيزنطيين ، وأدخل عليه عدة
تغيرات جعلته صالحاً لتنفيذ مشاريعه . إذ عرّف البيزنطيون نظام الأديرة المساحة
وهي الأماكن التي اقتطع فيها الرهبان للعبادة واجتمعوا فيها سوياً لخدمة مطالبهم
مبتعدين عن الحياة وزخرفها الباطل . ولكن لا توجد شواهد قاطعة على اشتراك
أشباه أوائل الرهبان القبطيين في الأديرة المساحة في العمليات الحربية التي قامت
بها الدولة البيزنطية^(١) . على أن الرباط غدا دائماً مجمع المتحمسين والغلاة المتدينين
الذين وقفوا حياتهم لازدود عن حياض الإسلام ، حيث وفد إليه باستمرار المقامرون
المسلمون أشد أزر إخوانهم من الجند النظامي .

وأندرج معاوية في تدعيم هذا النظام على نحو ما تبعه في كل أعماله التي
انتمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع . فأعد الرباط لتكون حصوناً
يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات الأساطيل البيزنطية ،
وتكون ملجأً يحتمي بها الأهالي في المناطق التي يدهمها العدو . وقد خصص
حاميات الرباط لإبذار الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا
ملاح خطر السفن البيزنطية في المياه الإقليمية . فكان الحصن في الرباط يضم
حجرات للجند ومساكن لهم ، ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرج المراقبة . ثم
لم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن
الاغارات .

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولي الخلافة عثمان بن عفان ،
إذ خطا منذئذ خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية وتشجيع الناس على النزوح
إلى المناطق الساحلية أينما عندهم مأسكة ركوب البحار . وساعد معاوية على تحقيق
خطته أن الخليفة أمر بمنع كل راغب في الإقامة بالمدن الساحلية إقطاعات من

(١) Eneke. Al Islam (Part Ribat)

الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها! فترتب على ذلك ازدياد العمران بالسواحل
وانتقال الناس عليها للتمتع بامتيازات الإقامة بها، دون أن يأنسوا بمخاوف التعرض
لاعتداءات السفن البيزنطية. وذلك لأن معاوية أعيد جيوشاً دائمة في المدن
الساحلية للدفاع عنها إلى جانب القوات التي تخرج للغزو والإغارات، ودأب
على أخذ أرض من يتخلف عن الغزو وإعطائها للجند المقيم على حراسة السواحل
أثناء الخروج للأغارة. (١)

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة في سلم السياسة
البحرية الدفاعية التي رسمها معاوية قبل أن يستطیع ركوب البحر في عهد عثمان
بن عفان. إذ أنهم بفضل هذه الامتيازات إغداد القواعد البحرية التي أخذ ينشئ
فيها أساطيله. وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالي بعلبك
وحمص وانطاكية سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م إلى صور وعكا وغيرها من المدن بسواحل
الأردن. كذلك أصلح معاوية حصون هاتين المدينتين (٢)، ولا سيما عكا التي
خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص. وبسط معاوية اهتمامه إلى سائر
المدن الساحلية، فمنح الجند أراضي أيضاً في انطرسوس ومرقية وبلنيس، واهتم
اهتماماً خاصاً برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها (٣). وأخيراً جدد بعض
الحصون في المدن التي خربت معاقها القديمة، كما فعل في مدينة جبلة، إذ بنى
لها حصناً آخر غير حصنها القديم الذي كان من قبل مقر رهبان بيزنطيين، أقاموا
به للعبادة (٤). ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها، فعمرت الثغور البحرية
لأن «الناس انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية» (٥) على حد قول المؤرخين
المسلمين.

(١) البلاذري، نفس المرجع، ص ١٣٥.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١٤٠، ١٤٩.

(٤) نفس المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٥) نفس المرجع السابق، ص ١٣٥.

وحتى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية السابقة حين استطاع أن يظهر من الخليفة عثمان بن عفان يصهر بح يبيع له غزو قبرص ، إذ سمح له الخليفة بأفسياس بالقرى البحرى على شرط ألا يكره أحداً على ركوب البحر ، وأن يعنى أساطيله من المشووعة فقط ، ولم يلق معاوية عناء في اجتذاب الجند البنى أخذه معه في حملاته البحرية ، إذ كانت المدن الساحلية عاصمة بالمغامرين وغيرهم من ذاقوا ثمار الإقطاعات وامتيازاتها ، وأطلعوا إلى حوض غمار الميدان البحرى تحت راية معاوية ، فخلدوا اسمهم في ظليعة الحملات الإسلامية البحرية لتقليم أظافر البيزنطيين .

وظهر في هذه الفقرة المبكرة من نشاط معاوية البحرى مدى الارتباط والتعاون بين الشام ومصر في ميدان العمليات البحرية . إذ كانت مصر في تلك الفترة من ولاية معاوية على الشام تحت إمرة عبد الله بن أبى سرح ، أخى الخليفة من الرضاع ، واشترك معاوية وعبد الله في الإغارات البحرية على جزر البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط ، وفي صد إغارات أساطيلهم ، وكانت مصر إذ ذاك دور صناعة السفن ، وتخرج منها الأساطيل الحربية إلى قواعد الشام البحرية ، حيث جرى النظام البحرى إذ ذاك على أن تتجمع السفن الإسلامية بموانئ الشام لمهاجمة على أراضي البيزنطيين القريبة منهم .

وحرص معاوية دائماً على تحقيق التعاون البحرى بين مصر والشام ، لأنهما كانتا من قبل أهم ولايات الامبراطورية البيزنطية في ميدان النشاط البحرى كذلك ، سواء أيام السلم أو الحرب . فكان التقسيم الإدارى للدولة البيزنطية قبل ظهور الإسلام يجمع بين الشام ومصر في العمليات البحرية ، ويقضى بتعبئة أساطيلهما معاً لإخضاع العناصر التى تشق عصا الطاعة على السلطات البيزنطية في أى بلد من البلاد التابعة لها في حوض البحر الأبيض المتوسط . وفضلاً عن ذلك ربطت العوامل الطبيعية بين مصر والشام في الشؤون البحرية وجعلت كل

منها لا تستغنى عن الأخرى . فمصر فقيرة في أخشابها التي تصلح لبناء السفن ،
على حين تسكثر بالشام النباتات التي تزود دور صناعة مصر بما تحتاجه من أجود
الأخشاب . وكانت مصر دائماً تقطع في الحصول على هذه الأخشاب ، ودفعها
حرصها في بعض العصور القديمة إلى محاولة السيطرة على الشام . ولكن في ظل
الإسلام انتقلت العلاقات بينهما على أساس التعاون لما فيه نصرة أرض الإسلام ،
ولا سيما أمام عدوهم المشترك من البيزنطيين .

وتجلى اهتمام معاوية ببقاء التعاون بين مصر والشام خلال الحروب الأهلية
التي نشبت بينه وبين علي بن أبي طالب ، إذ ضمن معاوية على إدخال مصر في
دائرة نفوذه ليحصى ظهوره بإقليم الشام ويشد أزره بمساعدة مصر . وظهر مدى
حرصه على اكتساب مصر وانزعاجها من يد أعدائه أنه عهد إلى عمرو بن العاص
فأصبح مصر الأول وداخية قادة المسلمين بالاستيلاء عليها مقابل الحصول على
خراجها سبع سنين . وباستيلاء عمرو على مصر استطاع معاوية أن يستفيد من
مصر والشام في نشاطه البحري ، حيث نظم العلاقات بينهما بما يدعم سياسته
البحرية في البحر الأبيض المتوسط ^(١) .

وانسعت سياسة معاوية البحرية وأخذت تظهر أجدياً بعد سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م .
ففي هذه السنة شن البيزنطيون غارة على سواحل الشام ، وكانت من العنف
والثقل بحيث جعلت معاوية يفكر في إنشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها
إلى جانب دور الصناعة بمصر . وهدف من وراء ذلك إلى إيجاد أساطيل دائمة
معاونة الشام على استعداد لدفع أى هجوم بيزنطي مفاجئ ، ولتخفف العبء عن

(١) كشفت أوراق البردي التي وجدت بمصر والتي يرجع تاريخها إلى ولاية قرة بن
شريك ، والى الأموي على مصر سنة ٩٠ هـ ، عن حرص الأمويين على المحافظة عمداً بالتعاون
البحري بين مصر والشام ، التي وضع أسسها معاوية ، فكان قسم كبير من بحرية الأساطيل
الاسلامية تجمع من مصر لتعازب إلى جانب أهل الشام . ولكن كان جند مصر يعودون بعد
انتهاء الحملات البحرية إلى وطنهم . انظر : Bell, Der Islam, III, 96; Papyrus 1435

أساطيل مصر . فأمر معاوية سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م أى في نفس السنة التي حدثت فيها الإغارة البيزنطية على الشام^(١) بجمع الصناع والتجارين وإرسالهم إلى عكا ، التي وقع اختياره عليها لينشئ بها أول دار لصناعة السفن بالشام ، وكانت عكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان ، التي اشتهرت بصفة خاصة بصلاحياتها للمجاديف^(٢) .

وبذلك استطاع معاوية بحده ومشاربته أن يحقق ما جاش بنفسه من آمال في إنشاء قوة بحرية إسلامية ، وأن يتغلب على عقبات وصعاب كانت كفيلة بأن تدعه يطلق مشاريعه البحرية إلى الأبد . وكان من حسن طالع دولة الإسلام أن يعمد معاوية شؤنها في الميدان البحري ، ويوقف أساطيله على صد عدوان البيزنطيين ، إذ بينما استولى المسلمون نهائياً على دولة الفرس الساسانيين وضموها إلى رقعة الإمبراطورية الإسلامية ، ظلت الآمال تداعب البيزنطيين في معاودة الكرة على المسلمين وإخراجهم من الشام ومصر . ولكن بفضل محاولات معاوية البحرية أفاق البيزنطيون إلى رشدهم ، وأدركوا أنهم أمام قوة منظمة ، تبرز قدامها وباضطراد من نصر إلى نصر ، وتعمل جاهدة وبشجاع على انتزاع السيادة منهم على البحر الأبيض المتوسط .

فتح قبرص :

استعمل معاوية بأكورة نشاطه البحري بمحاولة الاستيلاء على جزيرة قبرص التي كانت محور مكائباته مع الخليفين عمر وعثمان ، يطلب منهما الإذن له بتقليم أطراف البيزنطيين في هذا المعقل القريب من أرض الإسلام . وكانت استعدادات معاوية البحرية تغزو هذه الجزيرة تناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٢٤ .

(2) Semple, op. cit., 270, 271

بذ كانت هذه الجزيرة من أقدم المعاقل في شرق البحر الأبيض المتوسط . وحرصت القوى المتنافسة فيه على إبقائها في دائرة نفوذها . فبذ برغت شمس الحضارات في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرق والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص ، التي تعتبر حيزاً الزاوية في قوة أية دولة تصل إلى مركز الزعامة في بلاد الشرق الأدنى . وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام تحتس الثالث امبراطور مصر الفرعونية حتى العصر الحاضر ، حيث حرصت الدول الكبرى التي عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط الشرق على السيطرة على قبرص ^(١) .

وتستمد هذه الجزيرة أهميتها من موقعها الجغرافي الذي يوحى للناظر أنها أشبه بدفع يدوي (مدس) فوهته منصوبة إلى إقليم الشام ^(٢) . وإلى جانب ذلك تحتل ركنا ممتازا في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط الشرق ، يجعل لها سهولة التحكم في مياه هذا الشطر الهام من البحر بما يطال عليه من البلاد . إذ يمكن للمرء أن يرى من قبرص بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام ، ويبحر منها مباشرة فوق وقت قصير ، متجهاً إلى بيروت أو بورسعيد أو الإسكندرية ^(٣) . غير أن أحداث قبرص اتصلت اتصالاً مباشراً مع إقليم الشام ، وارتبط مصيرها بأحوال القوى التي ظهرت في هذا الإقليم سواء في مشاربها الحربية أو التجارية . إذ يقرب طرف جزيرة قبرص الشرق من خليج الاسكندرون ، الذي يقع خلفه المر الجبلي الهام الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى شمال العراق . وكان هذا الطريق من أهم المسالك التجارية التي عبرتها قوافل التجار المحملة بالمنتجات الشرقية إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط . وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة ، وضرورة الاسراع بمهاجمتها بسبب إغارات البيزنطيين البحرية على الشام ، واتخاذ جزيرة قبرص محطة تموين

(1) Hill, History of Cyprus I.

(2) Semple, op cit, 201.

(3) Hill : op cit, I.

في الطريق ، وملاحاً يقتصمون به حين تدفعهم الأحداث إلى الانسحاب . ودلت أحداث الحملة التي أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م على الأغراض الملحة التي حملت المسلمين على البدء بالإغارة على هذه الجزيرة ، كما أن معاوية حرص على اختيار كبار الشخصيات الإسلامية لمصاحبته في هذه الحملة ليكسبها مظهر الجهاد الحق الرائع .

حدث معاوية أسطولاً وقواته في ميناء عكا ، وكانت السفن جميعها من مصر ، على حين اشترك مع الجند الإسلامي كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير القادة المسلمين مثل عبادة بن الصامت . واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث اصطحب معاوية معه زوجته فاختة ، وأخذ عبادة بن الصامت كذلك إمرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية . وكان أنطليفة عثمان بن عفان هو الذي أمر معاوية بأن يأخذ زوجته معه ليضمن صدق عزمته في الإغارة على هذه الجزيرة ، وأعلم مدى قربها من الشام على نحو ما ذكره في مكاتباته : « إذ كتب إلى معاوية قائلاً : « فإن ركبتم البحر ومعكم امرأتك ، فأركبه مأدوماً لك ، وإلا فلا »^(١) . ولم يكن معاوية في حاجة إلى أن يقدم الدلائل على صدق مشايخته البحرية ، إذ كانت حاشيته لغزو قبرص تفوق في شرفها أي دليل . وأبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله بعد انتهاء شتاء سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، ونزل بالساحل مسجلاً أول عبور حقيقه بجند الإسلام ليواجه البحر الأبيض المتوسط . وشامت الأحداث أن تجعل هذه الغزوة رمزاً على صدق عزيمة المسلمين جميعاً رجالاً ونساءً ، فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت على أرض قبرص ، إذ حين رست السفن الإسلامية الشاطئ وأخذ الجند ينزلون منها ، تقدمت أم حرام التركب دابتها ، فنظرت الدابة وأوقعت أم حرام التي ألقت حتفها ، مخلفة ذكراها على أرض قبرص في أول غزوة بحرية إسلامية عرفها البحر الأبيض المتوسط .

ودفعت أم حرام في أرض هذه الجزيرة ، وعرف قبرها منذئذ باسم « قبر المرأة الصالحة »^(١) .

وبعد أن أنزل المسلمون عدتهم وعتادهم إلى الشاطئ أرسلوا إلى أهالي قبرص يخبرونهم أنهم لم يأتوا ظمأً في جزيرتهم ، وإنما ليتفقوا معهم على ما فيه سلامة المسلمين وبلادهم . غير أن سكان قبرص أبوا الدخول في مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنتهم . فتقدم المسلمون نحو العاصمة قسطنطينية *Constantine* التي كانت غاصة بالسكان ، وبها جميع ثروات الجزيرة وذخائرها . وبعد حصار قصير اقتحم المسلمون هذه المدينة واستولوا على كنوزها ، وأخذوا كثيرًا من الأسرى . واضطر حاكم المدينة ، أو أركانها ، إلى عقد صلح مع المسلمين^(٢) ، ذات شروطه على العوامل الحقيقية الكامنة وراء الحملة الإسلامية ، وأهداف معاوية في البادرة الهجوم على قبرص .

صالح أهالي قبرص معاوية والمسلمين على أن يدفعوا لهم جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠ دينار ، على نحو ما يؤدونه كل عام كذلك للدولة البيزنطية ، ويعهدوا ألا يساعدوا البيزنطيين في إغاراتهم على أرض الشام ، وألا يطلعوهم على أمر المسلمين ، كما قبلوا أن يزودوا المسلمين بأبناء أية حملة يزمع البيزنطيون القيام بها ضد الدولة الإسلامية . وبذلك كان على أهالي قبرص التزام الحياد التام في النزاع الإسلامي البيزنطي ، حيث لم يطلب منهم المسلمون تقديم أية مساعدة لهم في إغاراتهم على البيزنطيين ، « فسكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ، ولم ينصروهم أهل قبرص ، ولم ينصروا عليهم »^(٣) .

وعاد معاوية إلى الشام مظفراً ، مدوناً أول سطر في سجل النشاط البحري

(١) البلاذري نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) صبرى - نفس المرجع - ج ٢ : البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

الإسلامي ، وحقق فوزاً في ميدان جديد ، أعلامه من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما انصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، وأظهر أنهم في سبيل عزة الإسلام وأرضه يذللون سائر العقبات . وكذلك برهن معاوية بانتصاره على أهالي قبرص أن سياسته البحرية قامت على أسس وطيدة لا بد أن تؤتي أكلها ، حيث كان خضوع قبرص لطالب معاوية بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين .

وبعد عودة معاوية إلى الشام لم يركن إلى الدعة ، مطمئناً إلى الصلح الذي عقده مع أهالي قبرص ، وإنما أخذ يراقبهم ابصر مدى تنفيذهم لالتزاماتهم إزاء المسلمين . وكان معاوية صادقاً في حذره وفي تنبئه لحركات سكان قبرص ، إذ حدث في سنة ٥٣٢ / ٦٥٣ م أن أخل أهالي قبرص بشروط الصلح ، وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن في إغاراتهم على أراضي المسلمين . فصمم معاوية على الاستيلاء على قبرص وإدخالها في التبعية للدولة الإسلامية ، ليحرم البيزنطيين نهائياً من استغلال الجزيرة وأهلها . وجهز حملة بحرية كبرى في السنة التالية ، في عام ٥٣٣ / ٦٥٤ م ، وكانت مكونة من خمسمائة سفينة وعدد كبير من الجنود . وتمكن بهذه الحملة الكبيرة من فتح الجزيرة عنوة ، رغم مقاومة أهلها ، وأخذ منهم كثيراً من الأسرى ، ونجح في تفريق السلطات بها درساً قاسياً لإخلالهم بشروط الصلح^(١) .

وعول معاوية على تدعيم نفوذ المسلمين بالجزيرة في هذه المرة ، إذ مضلا عن إلزام أهلها بأداء المطالب المالية وغيرها من الالتزامات ، التي كانوا متعمدين بأدائها طبقاً لشروط الصلح السابق ، بنت معاوية إلى قبرص اثني عشر ألف رجل من الجنود النظامي . وأجبرت لهم الدولة الإسلامية الرواتب ، ليسكنوا جيشاً قواماً

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦١

بالجزيرة يصد عنها عدوان البيزنطيين ، ويقضى على أية إغارة يحتمل أن تمر بهذه الجزيرة . وأتبع معاوية ذلك بقتل جماعة من أهل يعلبك إلى قبرص ، وأغراهم على البقاء بها بمنحهم الرواتب ، لبثد من أزر الخامية الإسلامية ، ويقتل من تطلع السكان الأصليين بالجزيرة إلى العودة إلى مساعدة البيزنطيين وشيد معاوية لهذه الجالية الإسلامية مدينة جديدة في الجزيرة ، ومسجداً يؤدي فيه المسلمون شعائهم^(١) . وهذه الظاهرة الأخيرة تنهض دليلاً على حرص معاوية على إبقاء جزيرة قبرص خاضعة للمسلمين ، إذ كان تأسيس المسلمين المدن في الجهات الجديدة التي ينزلون بها ، فضلاً عن بناء مسجد لهم ، من العلامات الدالة على عزيمتهم الراسخ على الاستقرار بالمسكان الذي ترحوا إليه .

ويعزى تشدد معاوية في معاملة أهالي قبرص بعد هذه الحملة الثانية إلى رغبته في وضع حد نهائي لانتقال أهوائهم وتسكروا مساعداتهم للبيزنطيين . إذ كان موقف أهل قبرص من الدولة الإسلامية مثار جدل وتشمب في الآراء بين قادة المسلمين حين نقضوا شروط الصلح السابق ، وغدوا موضع شك من حيث إخلاصهم ، حتى قال أحد المسلمين في مناقشاته : « ما وفي لنا أهل قبرص قط »^(٢) ، وأشار آخر بإتزال أشد العقوبة بهم مستشهداً ببعض السوابق على عهد الرسول ، « تلا » إنه من نقض عهداً فلا ذمة له^(٣) .

وآثر معاوية أن يوفق بين الآراء السابقة باحتلال جزيرة قبرص وتجنيد ما في الصلح السابق من مميزات الدولة الإسلامية ، دون أن يشتط في معاملة أهالي قبرص أنفسهم ، ولما تجنب بذلك ما قد يثار في نفوسهم من حقد نحو المسلمين . إذ أدرك أن أولى الأمر في هذه الجزيرة المسئولون وحدهم عن مؤازرة

(١) البلاغري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

البيزنطيين ، وتشجيع أهاليهم على مناصرة المسلمين . وكان قادة المسلمين يبررون الاستيلاء على الجزيرة بحجة إيقاد أهاليها من نير البيزنطيين قائلين « أهل قبرص أذلاء مقهورون ، يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق علينا أن ننتقم ونحميهم »^(١) .

ولذا جاء احتلال معاوية لجزيرة قبرص حلالة لشككة اهتم بها المسلمون وأضاف بهذه الجزيرة رقعة جديدة إلى أرض الإسلام ، كما استطاع بذلك أن يفلم أظافر البيزنطيين ، وجعلهم يدركون ما عليه محورية المسلمين الناشئة من قوة وقوة . وغدا إقليم الشام في مأمن من الأخطار المتكررة التي تهدده من جزيرة قبرص ، وحصار المسلمون لا يخشون أى هجوم مفاجئ من البيزنطيين .

الغارات الإسلامية على الجزر البيزنطية :

كانت الإغارة على قبرص بداية نشاط بحري إسلامي اتسم بطابع الإغارات سنوياً ، صيفاً وشتاءً ، على الجزر البيزنطية ، التي يخشى المسلمون خطرها ، أو التي قد ينبعث منها ضرر يحيط بأرض الإسلام . وأثبت المسلمون في هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم البحري فهماً جيداً لطبيعة الجزر البيزنطية في البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مزايا كبرى استراتيجية هامة ، ولتسلي حركات البيزنطيين البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . فقد انفتحت هذه الجزر في الشطر الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ونفسه إلى بحار داخلية صغيرة ، تتصل ببعضها البعض عن طريق مضائق وفتحات صغيرة تنسجم في مداخنها أطراف الجزر . وغدت هذه المضائق أشبه بعتق الزباجية ، تشكل للسيطرة عليها تمام السيادة على ما إليها من بحار

(١) البلاذري : من الراجح ، ١٦٣ .

داخلية ، وما يطل على هذه البحار من أرض وبلاد^(١) . ولذا سارت الإغارات الإسلامية على هذه الجزر وفق خطوات منظمة مرسومة ، تهدف أولاً إلى تأمين سلامة البلاد الإسلامية من الجزر القريبة مباشرة من أراضيهم ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التي تتحكم في أكبر عدد من المضايق البحرية لسد الطريق في وجه الأساطيل البيزنطية . وأظهر أمراء البحار المسلمون في سبيل تنفيذ هذه الأهداف من المهارة والجلد ما دفعهم إلى مصاف كبار رجال البحار الذين عرفهم التاريخ .

استرعى نظر المسلمين أسماء إغاراتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى أرواد^(٢) بالقرب من ساحل الشام بين مدينة جبلة وطرابلس . ولا يكن معاوية الشخص الذي يتهاون في ترك أي معقل بيزنطي يهدد سلامة بلاده ، أو يكون شوكة في جانب دولته . فكانت هذه الجزيرة تتمتع بشهرة عالية منذ أقدم العصور ، رغم ما بدت عليه من ضآلة الشأن في تلك الفترة الأولى من ظهور المسلمين في مياه البحر الأبيض المتوسط . فقد لاحظ استرابون^(٣) ، الجغرافي القديم ، أن أهل أرواد يحرقون القرصنة على النقيض من سائر البلاد القريبة منهم ، من أمثال فايفية ، والتي اتخذت لنفسها الطريق القويم في الاستغلال بالتجارة لتدعيم رخائها الاقتصادي . فكان أهل جزيرة أرواد يستغلون ما حبتهم به الطبيعة من مركز جغرافي ممتاز في ميدان التجارة ، وأبدوا جشعا في تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق القرصنة الخفية . وهذه الأمور وصفتهم بالقدر وأبعدتهم عن أن يكونوا أهلا للثقة .

(١) Simple, op. cit. 71

(٢) تختلف هذه الجزيرة عن جزيرة أرواد التي تقع بالقرب من القسطنطينية ، والتي عرفها بعض كثر كيكوس (Cyprus) في المراجع الأوربية .

(٣) استرابون جغرافي يوناني ، أواخر عصر سيرة ٢٥ ق . م . وقام بزيارات عديدة للبلاد الشرق . ومما يلاحظه ، والأغيد على السلطات الرسمية في البلاد طبع المعلومات .

وعقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيرة بالاستيلاء عليها .
وأعد حملة لمهاجمتها سنة ٢٨ هـ ، أي في العام التالي لعودته من جزيرة قبرص بعد
إغاراته الأولى عليها . واستطاع المسلمون أن ينزفوا بأرض الجزيرة ، ولكن رفض
الأهالي الإذعان لهم والتسليم ، واعتصموا بقلعة الجزيرة رغم وساطة أحد الأساقفة
ويدعى ثوماريخوس (Thomarichos) ، إذ أثر أن يقوم بدور الوسيط بين
المسلمين وأهالي أرواد ، ويصير سكان هذه الجزيرة نغية الإصرار والعناد .
وجاءت الأحداث بما تؤيد وجهة نظر ثوماريخوس ، إذ عاد المسلمون إلى دمشق
مصممين على تأديب أهالي هذه الجزيرة في العام التالي^(١) . وكانت هذه الحملة
الإسلامية الأولى قليلة العدد ، واستهدفت أولاً عقد معاهدة مع أهالي الجزيرة
اتأمين الشام من شرهم ، وخمان عدم مساعدتهم لأعدائهم . ولكن اضطرت
الحملة أمام مقاومة الأهالي إلى الرجوع إلى مقرها . فعود مرة أخرى لاستعداد
أوفى وأتم .

وفي العام التالي هاجم المسلمون جزيرة أرواد بقوة كبيرة ، وأحرقوا القاصعة
وقلعتها ، وألزموا جميع أهاليها بالإخلاء الجزيرة تماماً جزاءاً على عنادهم الذي نجلى
في مقاومتهم الشديدة في المرة السابقة^(٢) . ولم يكن في هذا التصرف الذي اتخذ
المسلمون شيء من التعسف ، وإنما جاء وليد بعد نظرهم وقومهم لطبيعة سكان
هذه الجزيرة ، ووسائلهم التي اعتمدوا عليها لإنهاك مجاهدينهم . فكان أهالي
أرواد يتجنبون دائماً الهزائم القاصعة ، ويحتفظون بقوتهم وأنشطتهم بالاعتصام
بالمياه ، حتى يزول الخطر المحيق بهم . ولذا قضى المسلمون نهائياً على هذه الجزيرة
ومنعها ، وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهاليها من عدوان ، ولا سيما بعد أن كشفوا
القناع عن نواياهم في وضوح وجلاء .

(١) Bury, op cit, II, 289

(٢) Bury, op cit, II, 289.

وهكذا لم يعم المسلمون مجهودهم البحرية عفواً ، أو ارتجلوا خططهم في الإغارة على الجزر البيزنطية حيا في تخريبها فقط وتدميرها . فقد سار المسلمون في أعمالهم البحرية وفق سياسة واضحة المعالم تهدف إلى تأمين دار الإسلام وحماية أي ركن به معرض لخطر بيزنطي قد يأتي من أي مقبل بحري . وكانت آية ذلك استعداد معاوية لمواجهة جزيرة صقلية ، إذ يبدو أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم الشام ، ولكن بحريات الأحداث دلت على أن صقلية غدت قاعدة للقوات البيزنطية المعدة لشن هجوم على مصر ، وشل حركة التعاون البحري بين المصريين وأهل الشام . فالتخذ الحاكم البيزنطي السابق لمدينة قيسرية ، التي قاومت معاوية مدى طويلا ، مقره في جزيرة صقلية ، وعول على أن يستعملها ومعه غيره من البيزنطيين لإعادة الكرة على المسلمين من هذا المقبل البعيد عن حملاتهم البحرية المباشرة . وفصلا عن ذلك كان بمياه صقلية كثير من السفن والأساطيل البيزنطية ، التي ارتدت عن سواحل مصر والشام بعد سقوطها في أيدي المسلمين .

وكانت صقلية بموقعها الجغرافي تتحكم في المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط الشرقي ، إذ هي تقسم البحر الأبيض المتوسط عامة إلى قسمين رئيسيين ، أشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق مسينا ، ومضيق صقلية الواقع بين طرف جزيرة صقلية الجنوبي وشمال إفريقيا^(١) . واستعدت جزيرة صقلية بفضل هذا الموقع كل معونة من الولايات البيزنطية الأخرى البعيدة عن متناول المسلمين في هذه الفترة المبكرة من فتوحاتهم ، وغدت المعقل الذي يمكنه الصمود تماما أمام الزحف الإسلامي إذا ما تمدد مرة أخرى . ولكن في هذه الفترة الأولى ، أحست مصر خطر التجمعات البيزنطية بصقلية ، وتسكفت مع بحرية الشام على غرقلة هذه الاستعدادات البيزنطية القائمة فيها .

(1) Semple, op cit, 72.

وفات من الشام حملة إسلامية سنة ٦٥٢ م ، انجوت إلى صقلية تعاونها القوات البصرية المصرية . ونزلت الحملة بالشاطئ ، ومعها الخانيق والمرادات ، وأعمت التدمير في الحصون الساحلية . ثم اشتبكت القوات الإسلامية مع البيزنطيين في معركة دامت طول النهار ، وحلتهم على الأسطح إلى داخل الجزيرة . واتبع المسلمون انتصارهم بالاغارة ليلاً على القرى والمدن القريبة من الساحل ، ثم عادوا مظفرين إلى الشام ^(١) ، بعد أن مرهنوا للبيزنطيين أن يد البحريّة الإسلامية الناشئة قادرة على أن تبطل بهم في أي مكان . وأنها تف لم بالمرصاد . وتروى المراجع العربية أن معاوية بن حذيف السكندى فاد هذه الأغارة الأولى على جزيرة صقلية ، ثم نوات عليها الاغارات بعد ذلك من شواطئ الشام ومصر أيضاً . واشتهر من أسراء البحر المسلمين الذين أغاروا على صقلية عبد الله بن قيس الدزقي ، الذي أخذ من هذه الجزيرة كثيراً من أصنامها الذهبية والفضية ^(٢) .

وسار أسطول معاوية بعد ذلك من مصر إلى مصر ، جاهداً على توسيع رقعة الإسلام بالأسبيل . على ما يستطيع السيطرة عليه من جزر البيزنطيين . فآخيه الأسطول الإسلامي شطرنج رومس ، أهم جزر بحر إيجه ، وأدلاها مكانة في الدولة البيزنطية ، من حيث شاطئها البحري ، وحركة صناعة السفن بها . فلهذه الجزيرة أول حادثة في سلسلة أرخبيل بحر إيجه من ناحية الشرق ، وتتمد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً من الساحل لآسيا الصغرى ^(٣) . وأهلها هذا الموقع لأن تكون خطراً جاسماً على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى ، وشوكة مسيطرة على إقليم العواصم والثغور الشامية .

(١) Vanders. *Byzance et ses Archives*, ٨٢.

(٢) الأثر في من المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٣) *Encyc. of Islam* (art. Rhodes).

بعث معاوية حملة لفتح رودس سنة ٦٣٣/٦٥٤ م تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدي^(١)، واستطاع هذا القائد الأموي أن يستولى على الجزيرة عنوة ، وكانت « غيطة في البحر . . . من أخصب الجزائر ، وهي نحو ستين ميلا ، فيها الزيتون والسكر والتمار والفاكهة العذبة »^(٢) وجعلتها هذه الميزات مكانا صالحا لإقامة المسلمين به وتأسيس رباطهم به يدافعون منه عن الشام . فأمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة ، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها . ومنع من اهتمامه بحماية رودس أنه كان يحدد أفرادها دائما ، ويحجب الذين قضوا بالجزيرة مدى طويلا ليبقى على رأس الحامية وقوتها . وأمر معاوية أن يحيط المسلمين في رودس بالجو الاسلامي الديني ، وعلى راية الاسلام بين ساحل أهاليها ، فأرسل إليها فقيها يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن^(٣) .

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بنجاح بحوزة إيجيوس وسد منافذ المتوسطية في وجه السفن البيزنطية ، ومنها من الوصول إلى بلاد المسلمين . وعمل على تحقيق ذلك بالاستيلاء على جزيرة إفريغياش (كريت) ، إذ تسيطر هذه الجزيرة تماما على بحر إيجة ، الذي يشهد طرفه الجنوبي فوهة قريبة تقعد جزيرة إفريغياش عبرها ، بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلا ، وتقسيم الجزيرة هذه الفتحة إلى مدخلين تتحكم في كل منهما^(٤) . وأرسل معاوية جنادة ، الذي استولى على رودس ، لفتح هذه الجزيرة الهامة ، ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر المنفذ البحرية المناخة لها لمهاجمة الشام . على أن جنادة لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة اضغاثتها ، واكتفى بالإغارة عليها والباحش بالبيزنطيين وأساخيلوم بها^(٥) .

(1) Lammens, La Syrie, 65.

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(4) Semple, op. cit., 74.

(٥) الطبري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

وهكذا وجه معاوية أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط ، وأوقفهم على أهمية جزره . فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها ، وطرق باب غيرها عهدا الطريق لمن يأتي بعده من الخلفاء الأمويين ، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط ، ثم أخذ يعميها لأهم عمل في تاريخها وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها . ولكن تربت معاوية في تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحري على البيزنطيين .

زات الصوري : ٥٣٤ / ٦٥٥ م

كانت سلسلة الانتصارات البحرية الأولى ، ثم الإغارات البحرية الوفيرة التي شنتها الأساطيل الإسلامية على الجوز البيزنطية بالبحر الأبيض المتوسط حافزا شجع معاوية على توسيع خططه البحرية ، والقيام بمشاريع حربية على نطاق كبير . وسارت هذه الأهداف الجديدة التي عمل معاوية على تحقيقها في نطاق الفسكرة العامة التي كرس نفسه لها منذ ولايته للشام ، وهي تأمين أرض الإسلام وإزالة أي شبح بيزنطي يحتمل أن يهدد هذا الأمن . وكانت أولى الخطط الجديدة التي رسمها هي محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، ورأس المقاومة لحركات الفتح والتوسع الإسلامي .

وتعتبر القسطنطينية المحرك الذي أدار شئون الدفاع البحري عن الجزر البيزنطية وغيرها من البلاد . وأدرك المسلمون ألا استقرار لغزواتهم إلا بإدخال هذه العاصمة في قائمة فتوحاتهم . كما تم لهم من قبل الاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس . ووقف المسلمون على أهمية القسطنطينية من حملاتهم البحرية على جزر بحر إيجه ، حيث صادفهم التوفيق مرة والفشل مرة أخرى . ولكن الفشل لم يكن ليقت في غضب أولى الأمر في الدولة الإسلامية ، وإنما زادهم تبصرة بحقيقة

موقفهم ، وتلافى ما يدهمهم من نقص ، فكانت القسطنطينية الرأس المدبر للتخطيط البحري للدولة البيزنطية وجزرها في البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، ولا سيما السواحل الواقعة حول بحر إيجه الذي يجرده الممتدة إلى مياه القسطنطينية المحمية . وانقسمت الإدارة البيزنطية البحرية إلى قسمين لكل منهما اختصاصاته ، ومظاهر تعاونه كذلك مع بعضهما البعض ، بما يتكفل ضد أي عدوان يقع على أراضي الدولة البيزنطية . فكان هناك نوعان من الأساطيل التابعة للإدارة البحرية البيزنطية ، الأولى أساطيل تابعة للأقاليم والمقاطعات التي تنظمها الدولة البيزنطية والثانية أساطيل خاصة بالعاصمة نفسها . وكانت الأولى موزعة بحيث تقاوم قدر طاقتها أية إغارة مفاجئة على أرض المقاطعات التابعة لها أو عرفالة أية حالة كبرى معادية فاضدة العاصمة حتى تأتي التعجذات من أسطول القسطنطينية نفسها . وكانت جزر بحر إيجه وساحل آسيا الصغرى الغربي العمود الفقري في نظام أساطيل الولايات . إذ اشتملت جزر بحر إيجه على قواعد كبرى لأسطول الولايات ، على حين اختص ساحل آسيا الصغرى الغربي بشطر قائم بذاته من الأسطول العام للولايات^(١) . وهذه الأساطيل هي التي شددت أوزر البيزنطيين في مقاومة حملات الفتح الإسلامي الأولى في شمال الشام ، والتي عرفت بعض مجهودات معاوية في إغاراته البحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكان التعاون بين الأسطولين البيزنطيين إبان إغارات معاوية البحرية غير وثيق ، فساد الأحوال في العاصمة البيزنطية ، ولعلتها بالأمم والدياس والمكن ما كاد الامبراطور قسطنطين الثاني يتفرد بالعرض ويبلغ سن الرشد ، حتى عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحري ، إذ أن تقدم المسلمين المضطرد في جزر بحر إيجه ، واستيلائهم على قبرص وردوس عزق شمل النظام البحري البيزنطي ، على حين كادت الإغارات الإسلامية البحرية أن تشد الخناق على العاصمة نفسها

(١) Bury, op. cit. II, 381 - 383

وتفصلها نهائياً عما تبقى لها من أملاك في البحر الأبيض المتوسط . ومن ثم أقبل قسطنطين على بث روح الحياة والنشاط في أسطول العاصمة لشد أزر أساطيل الولايات ، واستعداداً لمنهضة حركات معاوية المقبلة .

وحدثت مخاوف الأسباطور قسطنطين من احتمال اتساع دائرة النشاط البحري الإسلامي ، إذ ترامت إليه في سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات عمرية هائلة ، وأخرى برية بمدد معاوية ليضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة ، ويزيل عنادها في مقاومة المسلمين . فجهد قسطنطين على أن يتلافى هذا الخطر المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها ، وعول على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل الإسلامية قبل انحرافها من قواعدها . وفي الفترة التي أسرع فيها قسطنطين بإعداد سفنه الحربية ، نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لمرقلة الاستعدادات الإسلامية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وكان معاوية قد جشد معداته الحربية في مدينة طرابلس استعداداً لقيام الحملة البحرية ، على حين عبد القوات البرية بدمشق لمسير عمر آسيا الصغرى . ولكن شخصين مسيحيين من مدينة طرابلس أسرعوا إلى سجن المدينة ، وكان به عدد كبير من الأسرى البيزنطيين ، وفتحوا أبوابها وأطلقوا سراحهم . ثم تابعا عملهم بدفع الأسرى إلى مهاجمة دار الحاكم الإسلامي بالمدينة وقتله هو وأتباعه ، ثم أحرقوا العدد والعتاد التي بذل معاوية في جمعها كثيراً من الجهود والعناء ، وهربوا جميعاً إلى القسطنطينية ^(١) .

وإذا كان وكلاء الدولة البيزنطية قد نجحوا في تنفيذ خططهم داخل أرض الإسلام ، فإن معاوية أخذ من آلات الحرب ما فاق العتاد الذي دسر ، وأنهم سائر استعداداته بسرعة . وتخصت الحادثة السالفة عن إلحاح الحاسنة بين المسلمين وحفرتهم على أخذ الخذر من عدوهم العنيد . وسار معاوية على رأس قواته البرية سنة ٦٥٥م إلى مدينة قيسرية في قيادة وقيا بآسيا الصغرى ، على حين وصلت سفن

(١) Bury, op. cit. II, 390; Enlley, History of Greece I, 377.

بحرية من مصر إلى سواحل الشام وانضمت إلى أساطيلها الزاحفة صوب القسطنطينية . على أن الأسطول الإسلامي ألقي مرماه بالقرب من ساحل ليكيا (عند فوينيكس Phoenix)^(١) ، حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول البيزنطي على رأسه الأمبراطور نفسه بهدف ضد تقدمهم .

وكانت استعدادات الأسطول البيزنطي على أن قسطنطينهم على وضع حد لانساع الفتوحات الإسلامية وكسر شوكتهم نهائياً ، على حين دلت الجهود التي بذلتها معاوية في إعداد أساطيله على صدق عزيمته المسلمين في الجهاد والزود عن أرض الإسلام ، وإظهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية في هذه المرحلة المبكرة من دخولها في حظيرة الإسلام . فقد خرج على رأس أساطيل مصر والبها نفسه عند الله بن أبي سرج ، الذي خلد له التاريخ اشتراكه في معركة من أعظم المعارك البحرية الفاصلة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، وعند أكبر خطر بيزنطي كاد يدهم المسلمين وأرضهم . ذلك أن قسطنطينهم خرج في جمع لم يجمع في يوم منته منذ كان الإسلام^(٢) فكان أسطوله يتألف من خمسمائة سفينة مزودة بالآلات الحرب ، راع منظرها المسلمين ، ولا سيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع البيزنطيين في معارك بحرية . ووصف أحد المشرقين في الحلة البحرية الإسلامية شعوره حين تقابلت الأساطيل الإسلامية مع سفن البيزنطيين قائلاً : « فالتفينا في البحر ، فنظرنا إلى سراكب ما رأينا مثلاً قط »^(٣) .

وكانت الرياح غير ملائمة حين التقى الجمعان في البحر ، ففضى المسلمون والبيزنطيون لياتهما انظاراً لما يسفر عنه الصباح ، وأحداً يستعدان فيها ، ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون يلقبهم بصلون ويدعون الله ، على

(١) Bury, op. cit. II, 340.

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

حين قضى البيزنطيون ليلتهم يضربون بالبنائيس^(١) . وفي صبيحة اليوم التالي دارت المعركة ، واشترك فيها الامبراطور قسطنطين نفسه ، إذ أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال المسلمين ، ويتابع منها الأبناء بانتظام عن سير المعركة .

وبدأ المسلمون القتال باستخدام الأقواس والسهام ، فأدرك قسطنطين تفوق جنده عليهم ، لأن المسلمين يجيدون هذا السلاح في الحروب البرية فقط ، وأن ذخيرتهم سوف تنفذ سريعاً . وتحقق ما رآه قسطنطين ، إذ اضطر المسلمون إلى استبدال الأقواس والرماح بالحجارة وقذف المدو بها ، فأيقن قسطنطين أيضاً أن الفوز حليف أساطيله . ولكن لما رأى المسلمون تقاد ذخيرتهم من الحجارة كذلك وأن المدو ما زال بعيداً عن متناولهم وأنه براوغ ويماطل لأشبهك قواهم ، ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض ، وقذفوا خطاطيف في البحر ، جذبوا بها سفن البيزنطيين إليهم . ثم اتخذوا من ظهور السفن جميعاً ميادين للقتال . وحين وصلت أبناء هذه الخطة الجديدة إلى الامبراطور قسطنطين أدرك قتل حملته ، وأن الهزيمة لا شك حقيقة بجنده^(٢) .

وتحقق استنتاج قسطنطين ، إذ وثب المسلمون على البيزنطيين بالسيف والخنجر ، وأعملوا فيهم التقطيع . واشتد الصراخ وأكثر القتلى حتى وصف شاهد عيان هذه الحالة قائلاً : رجعت السماء إلى الساحل نضر بها الأمواج ، وطرحمت الأمواج جثث الرجال ركماً^(٣) . « وأمدى الفريقان للمتحاربين من صفوف انتفاخ في الواجب ومن ضروب الشجاعة ما سجلته المراجع الإسلامية والبيزنطية . فكان الشجاعة المسلمين أمم عظيم في إحرار النصر ، على حين استمات البيزنطيون في الدفاع عن أنفسهم . ونجلى ذلك حين عمد الامبراطور قسطنطين إلى نشر الفوضى في صفوف

(١) الطبري ، نفس المرجع - ج ٥ - ص ٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر - ص ١٦٠ . Kramer, op cit. 337 .

(٣) الطبري - نفس المرجع - ج ٥ - ص ٧٠ .

المسلمين ، بعد أن صارت يدهم هي العليا في المعركة ، وأن كفتهم أخذت ترجح على البيزنطيين . إذ قذف جنده خطافاً علق بسفينة أمير البحر الإسلامي عبد الله ابن أبي سرح ، وأخذوا يمحذون المركب الإسلامي إليهم . واستهدف البيزنطيون من ذلك الإطاحة بالرأس للذبرة لعمليات قتل المسلمين . وكاد البيزنطيون ينجحون في أسر مركب القيادة الإسلامية لولا شجاعة أحد الجنود المسلمين ويدعى علقمة . إذ رمى هذا الجندي نفسه على السلاسل التي جذبت المركب الإسلامي ، وأخذ يعمل فيها القطع رغم تعرضه من ضربات العدو . وكل عمل علقمة بالنجاح ، إذ قطع السلسلة وأخذ السفينة الإسلامية من الوقوع في الأسر . ونال هذا الجندي ثناء زوجة أمير البحر التي تسكن بدينة ، إذ كانت على ظهر السفينة أثناء القتال ، واستطاع أن يظفر بزواجهما فيما بعد ، حين توفي زوجها^(١) . وأظهر البيزنطيون أيضاً تفانياً في الدفاع عن سفينة الامبراطور حين هاجمها المسلمون . إذ أعمل المسلمون القتل في جندها ، وكادوا يظفرون برأس الامبراطور نفسه ، لولا أنه تسكر باستبدال زيه مع ملابس ابن أحد ضاربي الطبول على السفينة ، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر اتجه به إلى صقلية^(٢) . وبفرار الامبراطور قضى المسلمون على هذه الأرمادا البيزنطية ، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس . ولا يعرف ما قام به معاوية في آسيا الصغرى في تلك الفترة التي دارت فيها المعركة البحرية ، ولكن يبدو أنه هدف إلى قطع الاتصال بين جند البيزنطيين في آسيا الصغرى وأساطيلهم البحرية ، إذ كانت الدولة البيزنطية تعتمد في ذلك الوقت اعتماداً كلياً في تعبئة قواتها والخصول على التجهيزات من فيالق جيشها ورعاياها بآسيا الصغرى .

وتعتبر هذه الواقعة البحرية من المعارك الحاسمة القلائل التي غيرت مجرى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، إذ تقف وقعة ذات الصواري على قدم المساواة

(1) Kremer, op. cit II, 358.

(2) Bury, op. cit II, 290, 291.

مع معركة أكتيوم (سنة ٣١ ق . م)^(١) في التاريخ البحري القديم لهذا البحر ،
ومعركة النيل (أو أبي فير البحرية سنة ١٧٩٨ م)^(٢) في العصر الحديث .
فكما أن معركة أكتيوم جعلت البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية حتى آل
إلى الامبراطورية البيزنطية ، وكذا أن معركة النيل رسمت الخريطة السياسية التي
راها في عصرنا الحاضر للبحر الأبيض المتوسط ، فإن معركة ذات الصواري
قضت على انصاف البحر الأبيض المتوسط بأنه « بحر الروم » وجماعته حرياً أن
يدعى « بحر المسلمين »^(٣) . فقد انطلقت فيه السفن الإسلامية في حرية تذهب
حيثما تريد ، رافعة علم الإسلام .

ونجحت أولى النتائج المهمة التي تترتب على هذه المعركة الفاصلة عندما تخلى
الامبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من
البلاد التي استولوا عليها في شرق البحر الأبيض المتوسط ، واستعادة ما كان لهم
من سائب النفوذ والسيادة هناك . إذ أدرك أولئك الأباطرة أن هذه الفكرة
ضرب من الأحلام التي فأت أرواسها ، وأن قدم المسلمين رسخت نهائياً على شاطئ

(١) أكتيوم اسم قدم لإحدى الرؤوس الأرمينية المنددة من شلال اليونان في البحر .
واشتهرت هذه القمة لأنه دار بالقرب من مياهها ربح معركة بحرية عظمى سنة ٣١ قبل الميلاد
بين أسطبل الجبله حكام مصر ، والقيصر الروماني أوكتافيوس . وكانت أهمية هذه
المعركة ترجع إلى أنها حلت النصر الروماني . وقضت على البطانة الذين كانوا آخر قوة تنافس
الرومان على سيادة البحر الأبيض المتوسط . إذ تلا هذه المعركة سقوط مصر في أيدي الرومان
وأصبح البحر الأبيض المتوسط تاهياً كله لهم . وآتت سيادة هذا البحر إلى الإمبراطورية البيزنطية
عندما ورتت ما تبقى للدولة الرومانية من بلاد على هذا البحر .

(٢) معركة النيل حدثت سنة ١٧٩٨ م . عندما قاضى قسطنطين أمير البحر البريطاني
أسطول نابليون في مياه أبي البر البحرية وحمله . وكان هذه الحادثة أثر كبير في مصائر الشرق
والبحر الأبيض المتوسط . إذ آذت فشل حملة نابليون على مصر وفتحت باب النفوذ البريطاني
في البحر الأبيض المتوسط .

(٣) أصبحت الأسطبل الإسلامية تبدأ بالبحر ، وتدفع أمامها سفن البيزنطيين وهدمت
الطريق لعلقة المسلمين البحرية فيما بعد على بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد أشاد ابن خلدون
بنشاط الأسطول البحري وما أودته الدولة الإسلامية فيما بعد من جهادهم وإغرائهم على أعدائهم ،
حيث أن أسطبل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على ربيعتهم ، وقد ملأ الأعداء من
سبيل هذا البحر عدة وعمداً ، واختلفت في طرقه مسلحاً وحرماً ولم تظهر لاعتصامه فيه أرواح .

البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ففتحوا إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وادخار جهودهم وقوتهم إلى وقت قد يحتاجون فيه للدفاع عن دولتهم وحمايتهم من القردى نهائياً في أيدي المسلمين .

ويضيف إلى أهمية هذا التغيير الجديد الذى طرأ على سياسة الدولة البيزنطية تجاه المسلمين بعد معركة « ذات الصواري » أن الدولة الإسلامية نفسها دخلت بعد هذا الانتصار مباشرة في دور من القلق والنزاع بسبب مقتل عثمان ، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى نشوب حرب أهلية بين على ومعاوية ، وانقسام العالم الإسلامى نتيجة هذا الصراع إلى قسمين متناضلين . فكانت هذه الاضطرابات فرصة سانحة يستطيع البيزنطيون أن يقوموا فيها أشد الأضرار بالمسلمين لو أنهم لم يتخلوا تماماً عن فكرة استعادة أملاكهم في البحر الأبيض المتوسط من أيدي المسلمين . وقد كانت الفخوم الإسلامية خلواً من الرباط المدافع عنها لأن معاوية سحب معظم قواته منها لشد أزره في حربه مع على بن أبى طالب .

وهكذا لم يتعرض معاوية بعد هذا النصر المبين في وقعة « ذات الصواري » لخطا البيزنطيين . إذ رأت الدولة البيزنطية أن الأجدى بها هو تصفية علاقاتها مع العناصر الضاربة على حدودها الشمالية ، والاكتفاء بتأمين أراضيها في الجهة الجنوبية من آسيا الصغرى لدرء ما قد يقوم به المسلمون من نشاط حربي جديد . فأتجه الامبراطور قسطنطين إلى تأديب عناصر السلاف بالبالقان ، وكانت قد جددت نشاطها ضد البيزنطيين وأراضيهم أثناء انشغالهم بالحروب مع المسلمين . ثم ذهب الامبراطور بعد أن فرغ من هذه المشكلة السلافية إلى مقلية ليفوى جبهة دولته الغربية ضد أى زحف إسلامى قد يبدأ من مصر .

على أن معاوية لم يكف بدور هذا النصر ، ولم يتسع بأنه غدا أول شخص فتح المسلمين صفحة رائمة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط . إذ أتجه إلى حدود الشام الشمالية ، وعمد إلى تحصينها ليقى من أخطار البيزنطيين . وأصبحت الخطة

التي رسمها لهذه المنطقة من الشام النموذج الذي احتذاه العباسيون فيما بعد لدفع الخطر البيزنطي عن تخومهم المجاورة لآسيا الصغرى .

مناطق الخموص (العواصم والثغور) :

ارتبط بنشاط معاوية البحري ، وتحصين المدن الساحلية بالشام ، القيام بمجهودات أخرى لحماية أطراف الشام الشمالية من إغارات البيزنطيين . وكانت الفتوحات الإسلامية الأولى للشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب قد وصلت إلى أنطاكية وحلب ، اللتين دخلتا في حظيرة المسلمين ، وتبعتهما مدينة قنسرين التي قاومت المسلمين القاطنين بعض الوقت . وكان أبو عبيدة بن الجراح القائد العام للجيش الإسلامي بالشام هو الذي يدير عمليات فتح هذه المدن . ولا سيما أن البيزنطيين كانوا يؤلبون القبائل العربية الضاربة في أطراف هذه المدن ، ويدونها بالمساعدات الحربية^(١) . ولكن ما أن انهزم البيزنطيون وعادوا إلى آسيا الصغرى ، حتى دخلت المنطقة الشمالية من الشام في حظيرة المسلمين . وقد وضع لها نظام جديد يتفق مع متاحتها لحدود آسيا الصغرى البيزنطية . إذ وقف المسلمون عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس ، على حين تحصن البيزنطيون خلف هذه السلسلة الجبلية في آسيا الصغرى .

أدى هذا الموقف إلى تحوف المسلمين والبيزنطيين من بعضهما البعض ، ودفعهما إلى تحويل المنطقة التي تفصل بين ممتلكاتهما إلى خراب موحش لا يشجع أحداً على إزيادته . فنقل كل منهما سكان تخومهما إلى داخل البلاد ، وترك حصونهما متفجرة ، ومنازلها خالية من العمران^(٢) . وكان البيزنطيون أشد اهتماماً من المسلمين بتخريب منطقتهم الواقعة شمال حلب وأنطاكية ، ليوقفوا

(١) البلاذري ، فتن الزعم ، ص ١٥٥ .

(٢) Krenier, op. cit. , 847-4 .

Hitti , History of Syria , 447 .

حركة الزحف الإسلامي فيها ورائها . فنقل عرقاً كثيراً من سكان أنطاكية معه حين ودع سوريا عائداً إلى عاصمته ، كما خرب معظم الحصون البيزنطية التي كانت فيما بين الأسكندرونة وطرسوس . فلم يجد المسلمون في إغاراتهم على هذه المنطقة أي أثر للبيزنطيين أو لمقاومتهم^(١) . وأدى ذلك في مبدأ الأمر إلى إثارة مخاوف المسلمين ، فجهدوا على معرفة أحوال البيزنطيين ، وما يخفونه من أهداف وأعمال . فاستطاع أبو عبيدة على أهالي بعض هذه الجهات الشامية القريبة من الحدود البيزنطية أن يبدلوا جهدهم لمعرفة أخبار البيزنطيين ، وتزويد المسلمين بها مقابل تركهم أحراراً في شئونهم الخاصة .

وبعض اهتمام المسلمين بتقضي أحوال البيزنطيين وحركاتهم إلى ما لا يوفى من متاعب وكوارث في بعض حملاتهم الأولى ، التي قاموا بها عبر هذه الجهات الجبلية التي تفصل شمال الشام عن آسيا الصغرى . إذ كان على المسلمين اجتياز بعض الدروب الجبلية في جبال طوروس لمهاجمة البيزنطيين ، وأهمها عمران مشهوران الأول يعرف بالأواب القيليكية التي تتحكم فيها مدينة طرسوس ، والثاني يسمى درب الحدث ويقع إلى الشمال الشرقي من المعر السابق . واتى المسلمون متاعب حجة في اجتياز هذه الممرات ، إذ دأب البيزنطيون على الاختفاء لهم في كائن أعدوهم لهم في هذه الجهات الخربة ، ثم ينقضون عليهم عند عودتهم ويأخذون ضربات شديدة بمؤخرة جيوشهم التي قد تخطت في طريق عودتها . ولذا كان المعر الثاني من المناطق التي حاق بالمسلمين فيها كثير من الهزائم ، حتى سموه درب الحدث تطليلاً من أحداثه السيئة^(٢) .

ولم يلبث المسلمون أن عملوا على تلافي هذه الأخطار بترك حاميات عند

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

Le Strange , The Lands of the Eastern Caliphate, 128 (٣)

الثغرات الجبلية التي يتفقدون منها مهاجمة البيزنطيين ، ثم تطور الأمر إلى اهتمامهم بتحصين المدن التي تقع في هذه الممرات . وكان أمام المسلمين سلسلة طويلة من الحصون المحرقة التي دمرها البيزنطيون أثناء تفكيرهم ، على حين ظلت بعض معاقل أخرى خاضعة لهم ، وانتشرت هذه السلسلة من الحصون في المنطقة التي عرفت فيما بعد على عهد الخليفة الرشيد باسم المواسم ، وامتدت من طرسوس إلى سمساط على نهر الفرات^(١) . وتمتعت جميعها بتركز استراتيجي هامة في المنطقة الجبلية على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، إذ سيطرت على مفارق الطرق التجارية المارة بها ، أو مدخل الممرات الجبلية الطبيعية^(٢) الواقعة في ديارها .

ورأى معاوية ، بعد أن انفرد بإقليم الشام ، ضرورة العناية بهذه المعاقل والتخلي عن سياسة تخریبها وترك منطقتها فلاة موحشة . فاهتم أولاً بمدينة أنطاكية التي كانت معرضة دائماً للاغارات البيزنطية المفاجئة ، واتبع في تعميدها السياسة التي سار عليها إزاء المدن الساحلية بالشام ، إذ أغرى الناس على الإقامة بأنتاكية بأن منحهم إقطاعات من الأرض ، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم ، ثم نقل إلى المدينة جماعة من أهل بعلبك وحمص لنشر العمران فيها^(٣) . وأخذ معاوية يوالى تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس أثناء إغاراته على أراضي البيزنطيين ، حتى أصبحت حدود الشام تتأخم مباشرة جبال طوروس ، الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى . ففي سنة ٦٢٥/٥٢٥ م عندما قام بغزوة على

(١) ينسب اسم المواسم والثغور عامة إلى الحصون التي أسسها هارون الرشيد في هذه المنطقة التي حصنها الأمويون ، لمواجهة البيزنطيين في جنوب آسيا الصغرى . فقد فصل الرشيد أنطاكيا عن حمص والى نقيم حلب وبنج وأنتاكية غرباً إلى الساحل وجعلها إقطاعاً جديداً يشمل سائر الحصون . واهتم كذلك بسائر الحصون الأخرى ، وكان ذلك سنة ١٧١ هـ .

(٢) Cheira , Arabes et Byzantins , 109 .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٤٤ .

عمورية بآسيا الصغرى ، شاهد الحصون ما بين أنطاكية وطرسوس وخلوها من السكان ، فأقام بها جنداً إسلامياً لتأمين ظهره أولاً ، ثم بدأ تعبيرها بعد عودته ، وعهد إلى الاستفادة منها في الدفاع عن الشام^(١) .

وعرفت سلسلة الحصون في الجهات الإسلامية الملاصقة للدروب والنفرات التي ينفذ منها البيزنطيون من جبال طوروس بأربعة شمال الشام باسم « النفور » على حين أطلق اسم « العواصم » على سلسلة الحصون الخلفية لمنطقة النفور . ولم تلبث منطقة العواصم والنفور أن اتسعت بانساع سلطان معاوية ، عندما ضم إليه أنطاكية عثمان شمال الجزيرة وعهد إليه بالدفاع عنها أيضاً ضد البيزنطيين . إذ كان إقليم الجزيرة وشمال الشام وحدة تضم بعضها بعضاً من حيث ارتباط حصونها ، ونعزمها كذلك للإغارات البيزنطيين . واتبع معاوية في تلك الجهات نفس الطريقة التي سار عليها في الشام . فأقام القبائل العربية الضاربة في شمال العراق في جهات بعيدة عن المدن المعرضة للقرص البيزنطي ، ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون أشبه بالعواصم والنفور الشامية ، وخصص لها حاميات دائمة للدفاع عنها من الجند النظامي للدولة^(٢) .

واتبع معاوية أعماله في تلك السبل بالشكل سيطرته على المعقل الأخرى الهامة الواقعة في منطقة التحريم الإسلامية البيزنطية . فاستولى قائد حبيب بن مسامة القهري على مدينة سميساط^(٣) ، ومنها سار إلى دلفية وفتحها . ووضع معاوية في هذه المدينة الأخيرة رباطاً قوياً ، ونقل إليها جماعة من حيرة رجال الشام والجزيرة ، وأصبحت قاعدة للإغارات الإسلامية على أرض البيزنطيين^(٤) . ثم جدد معاوية الحصون الأخرى التي خربها البيزنطيون ، فبنى مدينة « ريش »

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٨٦ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٩٢ .

(٤) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

وأعاد ترميم حصن الحدث الذي يسيطر على الممر المعروف بهذا الاسم ، والذي
لقى المسلمون عنده من قبل الكثير من الهزائم ، بسبب إغارات البيزنطيين
المفاجئة . وأتم معاوية نشاطه بالإستيلاء على حصن زبطرة البيزنطى وإعادة
تحصينه ^(١) .

وكان قادة جيوش المسلمين يحرصون في غزواتهم على الاهتمام بمناطق
التخوم الإسلامية على نحو ما فعل معاوية . فجهدوا في تعميرها وتشجيع الناس على
الحي إلى بها ، إذ أقاموا في بعض جهات بالقرب منها طلباً للراحة بعد عودتهم
من إحدى الإغارات ، وللترفيه عن جندهم ، حتى ظهرت في الأماكن التي عسكر
فيها جند المسلمين مدن جديدة هامة . ومن القادة الذين كان لهم فضل الاهتمام
بهذه الجهات مالك بن عبد الله الخنمى ، إذ أقام بعد عودته من إحدى الإغارات
على أرض البيزنطيين في مكان يدعى « رهوة » على بعد خمسة عشر ميلاً من درب
الحدث . وقضى بهذا المكان ثلاثة أيام وزرع فيها الغنائم التي حصل عليها على
الجند ، فعمر سوق هذه البقعة بحركة البيع والشراء ، وعرفت من بعده باسم
رهوة مالك ^(٢) .

وكان من نتائج تحصين هذه الجهات أن انقسمت الحدود الإسلامية
إلى قسمين ، إقليم العوامم والثغور الشامية للدفاع عن إقليم الشام ، والإغارة على
أرض البيزنطيين بآسيا الصغرى ، وإقليم العوامم والثغور الجزرية للدفاع عن
شمال العراق ، وللحملات التي تقوم منه على أرض الدولة البيزنطية . وشجعت
سلسلة الحصون على قيام إغارات دائمة منظمة أعدها معاوية لتفريب أراضي
البيزنطيين . وعرف النظام الذي سار عليه معاوية « بالصوائف والشوائف » ، حيث
كانت الإغارات الإسلامية تقوم صيفاً وشتاء ، وتتوغل في بلاد البيزنطيين ،

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

ابن عساکر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

وتعود إلى قواعدها مرة أخرى بعد أن تنتهي من مهمتها . وقد استهدف معاوية كذلك من هذا النظام في تلك الفترة المبكرة إيجاد ميدان يتدرب فيه الجند الإسلامي على أساليب القتال وإعدادهم للقيام بمشاريع الفتوحات الكبرى فيما بعد ^(١) .

وقاد معاوية بنفسه كثيراً من هذه الصوائف ، وهدف من وراءها إلى استطلاع أحوال المناطق التي يمر بها بنفسه . وكانت أشهر الحملات الاستطلاعية تلك التي قام بها في عام ٦٢٥ هـ / ٦٤٥ م حيث أغار على عمورية ، واقترب من السفور الذي تطل عليه القسطنطينية . وهكذا لم تخل إغارات المسلمين على بقاع آسيا الصغرى من فائدة ، إذ استطاعوا دراسة الطرق التي توجد في هذه البلاد ، ولأشياء الطريق المؤدى إلى القسطنطينية ، حلم معاوية ومطمح أنظاره . واهتم معاوية ببعض حصون إسلامية أخرى أعدها جانباً من الصوائف تولاهما بنفسه . فخرج في سنة ٦٣١ هـ / ٦٥٢ م من ناحية المصيصة وأغار على البيزنطيين ، كما ذهب إلى ملطية بعد أن استولى عليها حبيب بن مسلمة واتخذها قاعدة لإحدى إغاراته . سالكاً الطريق الهام الذي تتحكم فيه والمؤدى إلى أرض البيزنطيين ^(٢) .

وأدرك معاوية من نجاح به في ميدان الصوائف والشوائف ضرورة إنشاء قادة ممتازين يتولون إدارة عملياتها الحربية ، إذ تتطلب هذه الإغارات مهارة وحذقاً وضربة يديهة من القادة ، وإلا تعرضت الحملة كلية للفناء ، لما عرفت عن البيزنطيين من الدهاء والبراعة في إقامة السكان بالممرات التي يجتازها المسلمون ، ومفاجأتهم بالمدون حين تتاح لهم الفرصة . فسكان معاوية يستدعى الأشخاص الأكفاء المشهود لهم بالمهارة ويجرى لهم نوعاً من الاختيار الشخصي يقف منحه على مدى مواهبهم ونجاحهم ، ثم ينتقى من بينهم أحدهم لقيادة الحملة القادمة وفق أهميتها وخطورتها ^(٣) . وكان يرسم القائد الذي يقع عليه الاختيار الخطة التي يتبعها في

(١) Hitti : op. cit. p. 443.

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٩٣ .

(٣) القند أوريد ، ص ٦٥٦ .

إغاراته سواء من حيث تخريب الحصون أو تعميدها . إذ أمر أحد القادة الذي أوفده في إغارة على أرض البيزنطيين ، ويدعى يزيد بن الحر العبسي ، سنة ٢٢٧/٦٤٨ م بتخريب ما يلاقيه من حصون العدو وإقامة الحراس على المنافذ التي يمر منها إلى ما بعد عودته من غزوه ^(١) .

وأخى ميدان الصوائف والشواني محالاً يندى فيه قادة المسلمين مواهبهم ويقتربون فيه على أساليب القتال . وعلا صيت كثير من القادة المسلمين لما أبدوه من شجاعة في هذه الإغارات حتى أغدقت عليهم ألقاب التكريم اعترافاً بجهودهم ونشاطهم ، فأطلق على مالك بن عبد الله النخعي وهو رجل من أهل فلسطين اسم « مالك الصوائف » ^(٢) . نعو كعبه في الميدان الحربي بآسيا الصغرى . وأثبت معاوية بذلك أن لديه شجعة وأنصاراً قادرين على تنفيذ مشاريعه في حيازة أرض الإسلام .

ولجلى انتظام الصوائف والشواني على أراضي الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى بعد أن غدا معاوية خليفة المسلمين ، وانتهى من مشاكله الداخلية . إذ تسجل الطولات الإسلامية نشاط جند معاوية في الأغارة على آسيا الصغرى التي تذكرها المراجع العربية باسم « بلاد الروم » ، والتي أطلق عليها البيزنطيون أيضاً اسماً أشبه بالاسم العربي « Romania » . وظهر في هذه الجهة خلال تلك المرحلة من خلافة معاوية القائد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . إذ أغار على آسيا الصغرى سنة ٦٩٣ م ، وأخذ كثيراً من الأسرى وخرب بعض الحصون البيزنطية . وفي السنة التالية (٦٩٤ م) ، أعاد الإغارة على آسيا الصغرى ، وأمضى فصل الشتاء بها . وتمتاز هذه الإغارة الثانية بانضمام جماعة من السلاف التي عبرت الدردنيل إلى جيش عبد الرحمن ، حيث قضت إعلان تبعيتها للخليفة

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ .

المسلم عن الدخول في طاعة امير المظفر البيزنطيين . وهذه الحركات التي قام بها السلاف ، وتمضيدهم للمسلمين في إغاراتهم على آسيا الصغرى تفسر مدى اهتمام أباطرة الدولة البيزنطية بإنهاء حركات السلاف وإخضاعها ببلاد البلقان ، وإعادتهم للتبعية لهم ، ومنع أى اتصال يقوم بينهم وبين المسلمين .

وعاد عبد الرحمن من هذه الإغارة وسعه خمسة آلاف من السلاف أسكنهم معاوية في شمال الشام^(١١) . وقد توفي هذا القائد المسلم حالما دخل حمص ، بعد أن خلف اسمه في سجل المجاهدين عن حياض الدولة الإسلامية وإغلاء راية المسلمين ضد البيزنطيين ، كما قال أبوهم من قبل النصر المظفر ضد البيزنطيين في ميدان فتوح الشام .

وتكاد تكون السنوات التي تلت إغارات عبد الرحمن على آسيا الصغرى حتى وفاة الخليفة معاوية سلسلة متصلة من الصوائف والشوائف اضطلع بها القادة المسلمون . وقد قطي بعضهم الشتاء بآسيا الصغرى متحملاً ردها القارص^(١٢) في سبيل تحقيق أهداف الدولة الإسلامية^(١٣) . وكانت أحداث هذه الإغارات تجري وفق نظم مفررة تكفل للجند الإسلامي الأمن والسلامة . فروي أحد المجاهدين المسلمين على عهد معاوية أن أهل الشام كانوا يتخذون استعدادات وافية عندما يقومون بالصوائف والشوائف ، فلذا قرلوا بأرض البيزنطيين ، قسموا أنفسهم أجنادا للحراسة والدفاع والإغارة ، وكفلوا وسائل الاتصال بين الأجناد بعضها

Bury, op cit II, 307. (١١)

(١٢) أظهر المسلمون شجاعة فائدة في تحمل الصعوبات التي تحملها في ميدان الصوائف . من ذلك أن سيدنا من كبار شخصيات السكوفة يدعى عبد العزيز بن زرارعة خرج مع بلاده ابن معاوية إلى إحدى الصوائف . وقد لقي هذا الرجل حشده في الإدارة الإسلامية ، وكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك الخبر . بعث معاوية إلى زرارعة وقال له : أنت اليوم في سيد شباب العرب : قال زرارعة : يا أمير المؤمنين ، هو أبي أو أبتك ؟ قال : بل أبتك . قال الموت يا قائد الوالد . انظر العلف القوي ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(١٣) الصغرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٨ .

بعضاً ، كما أعدوا أما كن للخيول محصنة لدرء الاغارات المفاجئة التي قد يشنها العدو^(١).

وترك لنا أحد المؤرخين المسلمين المتأخرين وصفا لنظام الصوائف والشواتي على أرض الدولة البيزنطية . فذكر أن المسلمين قاموا بإغارات في فصل الربيع والصيف تسمى بالصوائف ، وأخرى في الشتاء تسمى بالشواتي . وكان غزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حين تكون الخيول قد سمحت وقويت من رعيها في كلاً الربيع وسراعيه ، ويستمر الغزو ثلاثين يوماً ، أي إلى منتصف الشهر التالي . وفي هذه الاغارات تجد الخيول عذاء وفيراً في سراعي البيزنطيين التي تمر بها . ثم يفتح المسلمون إلى السكينة ، ويرجعون خيولهم من منتصف يونيو إلى منتصف يوليو حيث تبدأ إغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً . أما إغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها إلا في حالات الضرورة القصوى ، دون أن يعمقوا في التوغل داخل أراضي البيزنطيين ، فلم تستغرق الشواتي أكثر من عشرين يوماً . وكانت تلك الشواتي تقع عادة في الفترة ما بين أواخر فبراير والنصف الأول من مارس^(٢) . وبذلك ترك معاوية خلفاءه نظاماً ساروا عليه في تضيق الخناق على الدولة البيزنطية ، وإشاعة الاضطراب والفوضى في آسيا الصغرى ، أهم أركان حياتها الاقتصادية .

المرور أو الجرافة :

اصطدم معاوية حين اتجه إلى تحصين العواصم والنفوذ بشمال الشام المناخنة لأراضي الدولة البيزنطية بجماعة خارجة عن طاعة الدولة الإسلامية ، وعرفت تقدم مشاريعه فترة من الزمن . والنقي معاوية بهذه الجماعة في جبل اللسكام (Amanus)

(١) ابن عساکر ، نفس المرجع . ج ٦ ص ١٢١ . ١٢٨ .

(٢) قدامة بن جعفر ، المراج . ٢٥٩ .

حيث أقامت به لا تعرف طاعة أحد منذ دخل المسلمون الشام . وكان سكان جبل اللكام العصاة ، تابعين قبل الفتح الإسلامي لطريق أنطاكية وواليتها^(١) . ولما فتح أبو عبيدة بن الجراح مدينة أنطاكية اعتصم أولئك السكان بجبل اللكام دون أن يتنبه لخطورتهم المسلمون ، وأخذوا يحيمون حياة شبه مستقلة في صياحي الجبال ، ولهم مدينة أشبه بالظاهرة تسمى الجرجومة^(٢) . وهم ينسبون أحياناً إلى هذه المدينة ويدعون بالجراجمة ، على حين أطلق عليهم المسلمون اسم المردة ، لما لسوء فيهم من العصيان ، والخروج دائماً على طاعتهم^(٣) .

وكان أولئك المردة من قبل عصاة لكل سلطة حاكمة في الشام ، ونجحت هذه الظاهرة منذ أيام الدولة الرومانية الكبرى واستيلائها على الشام ، إذ وصف الرومان موطن المردة الجبلي بأنه مقر أعداء شديد البأس : « *Mons hostium* » ، « *plenus sempiternorum* »^(٤) ، كما نفثوا سكان اللكام بالعداوة الدائمة « *Hostis perpetuus* » . وظل المردة على حياة العصيان حتى جاء الفتح الإسلامي للشام . وتنبه المسلمون لخطر الجراجمة بعد أن نقض أهل أنطاكية عهد الصلح الذي أعطاه لهم أبو عبيدة ، ولما سكن المسلمون فتحوا المدينة مرة ثانية وتولى شؤونها حبيب بن مسلمة القهري أحد شيعة معاوية وأتمهم قذفة في الأبدان الشجالي المواجه لأرض البيزنطيين . فأثر الجراجمة الهدوء مؤقتاً وتجنبوا الاصدام مع حبيب بن مسلمة ، إذ صاحوه « على أن يكونوا أعواناً للمسلمين ، وعيوناً ومسالخ في جبل اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينقلوا أسلاب من يفتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في معازيهم »^(٥) . وبذلك أعفى الجراجمة من

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٣) Hitti, History of Syria, 448. (٤)

Lammens, op. cit., 19. (٥)

(٥) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

دفع الجزية واحتفظوا باستقلالهم الذاتي ، وانكسرتهم لم يخلصوا تماماً لشروط الصالح مع المسلمين واشتهروا القرض للمصيان ، ومؤازرة من يصدق عليهم أجزال العطاء ، واستطاعت الدولة البيزنطية أن تحتذب تلك الجماعة المتأخفة لحدودها ، إغداق المنح المالية عليها ووجهتهم عرقلة حركات المسلمين . ومن ثم غدا الجراجمة وكلاء للدولة البيزنطية ينفذون سياستها عند مشاريع معاوية . فسكانوا يستغلون وقوع مساكنهم قرب درب أنطاكية المسمى درب فارس ، طريق إغارات المسلمين على أراضي البيزنطيين ، ويولسون جيوش المسلمين القوضى عند عبورهم هذا الممر . ولم تفالج محاولات المسلمين لإخضاعهم نهائياً ، فسكانوا يستقيمون للدولة مرة وبموجون أخرى ، فيكاتبون الروم ويعلنونهم^(١) . وسرعان ما أصبح الجراجمة نواة التف حولها كل الخارجين على السلطات الإسلامية في الشام بماقوى بأنهم . واعتاد الجراجمة السير وفي أيديهم قطع طويلة من الحديد جمعات البيزنطيين يطلقون عليهم اسم « أصحاب القضبان الحديدية » .

وتفانى المردة في خدمة أعراض الدولة البيزنطية حتى أصبحوا يكونون على حد قول المراجع البيزنطية ، التي أشادت بأعمالهم ضد المسلمين « ستارا حديدا »^(٢) فصل الشام عن أراضي البيزنطيين بآسيا الصغرى وعرقلة الهجوم الإسلامي عليها . واستهدف المردة بإغاراتهم المديدة من جبل اللسكام إيقاع الاضطراب بين المسلمين ، وذلك بتشجيع الدولة البيزنطية التي أمنتهم بالمساعدات الجزئية في الاغارات الكبرى . وظهروا مع المردة مع البيزنطيين في عرقلة جهود المسلمين سنة ٦٦٦ م ، حين ترامت إلى السلطات البيزنطية أنباء الحملة التي أخذ معاوية بعدها برا وبحرا للهجوم على القسطنطينية . وكانت طبيعة جبل اللسكام تساعد المردة على تنفيذ مآكرهم دون أن ينالهم ضرر أو أذى ، إذ أغاروا من موطنهم

(١) البلاغري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٢) في الأصل : سيدرا حديداً ، Bury, op. cit., 317 .

جبل الاسكاف على سلسلة جبال لبنان وإفادة أنفسهم من موقعها الجغرافي وخلوها من المحارس . فجبال لبنان تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، وتنقسم إقليم الشام قسمين ، أحدهما يطل على البحر ويضم الأقاليم الساحلية ، والآخر الأقاليم الداخلية البرية . وكانت أقاليم الشام الداخلية تعتمد في حياتها على المدن الساحلية ، وتتصل بها غير عمرات هامة في هذه السلسلة الجبلية . ولذا هدف البيزنطيون إلى القضاء على مجهودات معاوية بالشام واستمداده لحصار القسطنطينية بمحاولة الاستيلاء على هذه السلسلة الجبلية الممتدة بالشام ، وشل حركة التعاون بين أساطيل المسلمين في القواعد البحرية ، وبين الجنود البرية في الداخل .

وزاد أعمال الجراجمة خطورة أن إقليم الشام كان مقعلا منذ زيارة عمر بن الخطاب للشام ، وعقد مؤتمر الجابية (٦٣٩ م) إلى أربعة أجناد ، جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، والكل منها منافذ على الساحل . ولذا كانت خطة البيزنطيين في تشجيع الجراجمة تهدف إلى إيقاع الاضطراب في صفوف هذه الأجناد الإسلامية ، والتي كانت من قبل الأقسام الإدارية الأربعة في الشام أيام سيطرتهم على هذا الإقليم . وقد أرسل البيزنطيون خيانتهم إلى جبل الاسكاف واشتركوا مع المردة في الهجوم على إقليم الشام ، وقد تمكنوا من احتلال المناطق الاستراتيجية الهامة على امتداد جبال لبنان ، وفصلوا المنطقة الساحلية عن البلاد الداخلية . ثم قام الأسطول البيزنطي في تلك الفترة بحملات على القواعد الإسلامية البحرية بالشام للسيطرة على ما بها من معدات ، دون أن تستطيع التجذات الإسلامية الوصول إلى الساحل ومن المناطق الداخلية^(١) .

ولكن نجاح المردة لم يدم طويلا ، إذ اقتضت أعمالهم على الإغارات فقط ، ثم العودة إلى موطنهم والخلأ ، أما كن التي يحتلوها . فاضطر الجند البيزنطي

(1) - Eamens, op cit, vol. 20 ; Hilli, op cit, 489.

النظامي إلى القهقمر مع أولئك المرتزقة ، ولا سيما بعد أن حقق الأسطول البيزنطي أهدافه . غير أن هذه الإغارات المتكررة التي قام بها المردة لم تفت في عضد معاوية ، وإنما عدل سياسته بحيث يشل حركات أولئك المغامرين الأفاقيين . فحلب جماعات شديدة البأس والبطوة من داخل الدولة الإسلامية ووضعهم بالقرب من مساكن المردة في الجهات الشامية المعرضة أيضاً لخطرهم ، واستطاع معاوية بذلك مراقبة حركات الجراجمة ، والتصدى لهم في بداية نشاطهم ، وقد اتفق جماعة « الزط »^(١) بالبصرة ، للاضطلاع بمهمة الوقوف في وجه الجراجمة ، ونقل بعضاً منهم سنة ٤٩ هـ أو ٥٠ هـ / ٦٦٩ م إلى أنطاكية وغيرها من الثغور الإسلامية القريبة منها ، ولكن غالبيتهم استقرت بأنطاكية : حيث غذا لهم حتى بها عرف « بمحلة الزط »^(٢) .

وكانت جهود معاوية ضد الجراجمة آخر خطواته في تحصين العواصم والثغور . ولكن لم يستطع أن يحل نهائياً مشكلة المردة أو الجراجمة ، إذ تابعوا إغاراتهم على إقليم الشام حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . فقد نجح هذا الخليفة بوسائله الدبلوماسية في عقد اتفاق مع الدولة البيزنطية يقضى بإبعاد هذه الجماعة من موطنهم إلى داخل أراضي الدولة البيزنطية ، وتحقيق بذلك لدوائه الهدوء والسلام ، وقضى على شوكة أزعته مدي طويلاً .

الاستيلاء على أرمينيا :

توج معاوية بن أبي سفيان مجهوداته في الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين بالاستيلاء على إقليم أرمينيا ، الذي تمتع منذ أقدم العصور

(١) الزط قوم أصل موطنهم غير معروف ، ويختل أنهم من جنود آسيا واستقروا على سواحل الخليج الفارسي فيما بعد . وعرفوا بالشيراسة وجنود المغارات ، مما جعل معاوية يختارهم للدفاع عن الحدود الإسلامية ضد البيزنطيين والجراجمة .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، من ١٦٩ .

بموقع ممتاز ، جعله معظم القوى المتصارعة على السيادة في الشرق . وقد اجتذبت أحداث الصراع الإسلامي البيزنطي زمن الخلفاء الراشدين نظر معاوية إلى إقليم أرمينيا حيث تطلع إلى إدخاله في رفعة أرض الإسلام . إذ جاء ذكر أرمينيا في حواريات المسلمين منذ السنة الثانية لخلافة عثمان بن عفان (٢٤ هـ / ٦٤٥ م) عندما شن البيزنطيون غارة كبرى على أرض الشام من معاقلهم بآسيا الصغرى (١) . واسكن معاوية وإلى الشام إذ ذاك رد هذه الإغارة على أعتابها ودحر الثغرين البيزنطيين . وجاءت هذه الإغارة بداية انجاء جديد في خطط المسلمين الحربية ، إذ تم المسلمون وجوههم شطر أرمينيا وأدركوا ضرورة الاستيلاء عليها والاتصال بزملاتهم الذين يتابعون زحفهم في أرض الجزيرة بالعراق . وإحكام حافة الحصار على الأراضي البيزنطية بآسيا الصغرى ، ووضع حد للإغارات البيزنطيين المتكررة على الشام .

وكان انجاء معاوية في هذه الفترة المتكررة من ولايته نحو إقليم أرمينيا من أعظم الدلائل على يقظته . ودرايته بخير الوسائل لحماية دار الإسلام . فأرمينيا تتحكم بفضل موقعها في مفرق الطرق المؤدية إلى أراضي المسلمين في إقليم الجزيرة بالعراق وبلاد الشام والجهات التي احتلها المسلمون في جنوب آسيا الصغرى . وإلى جانب ذلك امتازت أرمينيا بأنها إقليم فريد في جغرافيته ، حيث يعتبر وحدة طبيعية قائمة بذاتها وسط ما يحيط بها من بلاد . ويقصد بإقليم أرمينيا المنطقة الجبلية الوسطى العالية في غرب آسيا ، أي تلك البقعة الجبلية الواسعة التي تحدها آسيا الصغرى من الغرب ، وهضبة أذربيجان والشاطئ الجنوبي لبحر قزوين من الجنوب الشرقي والشرق ، وساحل البحر الأسود والقوقاز من الشمال والشمال الشرقي ، والركن الشمالي الغربي من أرض الجزيرة من الجنوب . وتبلغ مساحة هذا الإقليم ١١٥٤٠٠ ميل مربع تقريبا ، وتضم مواطن أنهار كثيرة

(1) inuit, the Calphate, 300.

توجه إلى جهات شتى ، وتزود بعضها أرض الإسلام بمنايع دجلة والفرات ^(١) . وكانت أحوال أرمينيا بعد الفتح الإسلامي للشام تشجع معاوية بن أبي سفيان على غزوها . فكانت إذ ذاك ثلث من آثار الصراع الذي نشب في أرضها بين قوتي العالم الكبيرين الفرس والبيزنطيين ، وحرص كل منهما على السيطرة عليها لما لها من موقع استراتيجي هام في العمليات الحربية بينهما . وانقسمت أرمينيا قبيل الفتح الإسلامي نتيجة هذا الصراع إلى قسمين ، آل القسم الأكبر والذي يضم الجهات الشرقية من أرمينيا إلى دولة الفرس ، على حين استولى البيزنطيون على القسم الأصغر الذي يضم الأراضي الغربية . وسهج كل من الفرس والبيزنطيين في حكم قسميهما سياسة مهدت الطريق لاستيلاء المسلمين على أرمينيا بأسرها . إذ اعتمد الفرس في إدارة منطقتيهما بأرمينيا على ولاية محليين دون أن يدركوا مدى ما يجعله هذا الحكم الذاتي من أضرار لهم . إذ كان الولاة الأرمن يشغلون إلى البيزنطيين لاختلافهم مع الفرس في الدين ، وبدأوا على قرض مضاجع الفرس ويذر بذور الفتق في منطقتهم بتجريس البيزنطيين ، حتى بدا أن السيادة البيزنطية تشمل سائر أرمينيا .

على أن البيزنطيين لم يستطيعوا الإفادة مما حدث في أرمينيا الفارسية (Persarmenia) ، إذ كان الاختلاف المذهبي المنتشر في بلاد الإمبراطورية البيزنطية ، ومحاولة السلطات البيزنطية فرض مذهب واحد على جميع رعاياها ، من العوامل الهامة التي أدت بدورها إلى انتشار الفوضى في الشطر البيزنطي من أرمينيا كذلك . ونجأت هذه الظاهرة سنة ٥٥١ م حين رفض الأرمن اعتناق المذهب الذي نتم الاتفاق عليه في مجمع خلقدونية ، إذ اعتبر البيزنطيون الأرمن خارجين على طاعتهم ، وبدأوا ضدهم سلسلة من الاضطهادات جعلت الأرمن على استعداد للارتقاء في أحضان أية قوة تأتي لإنقاذهم ^(٢) .

(1) Encyc. of Islam (art Armenia.)

(2) Encyc. of Islam (art Armenia.)

وجاء خلاص أرمينيا من حالة الفوضى التي تفشت فيها على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي أدرك أهمية سوقها وسهولة الاستيلاء عليها . وبدأ معاوية سلسلة الحملات المنظمة للاستيلاء على أرمينيا بعد أن ضم إليه عثمان بن عفان إقليم الجزيرة بالعراق لتوحيد العمليات الحربية ضد البيزنطيين . وعهد معاوية بإدارة دفة العمليات الحربية في أرمينيا إلى حبيب بن مسلمة ، الشخصية التي عرفت بحسن جهادها ضد البيزنطيين ، وقيامها بإغارات مبكرة على أرمينيا إبان الفتوح الإسلامية الأولى في شمال العراق والشام ، إذ سبق لحبيب بن مسلمة أن أغار على أرمينيا سنة ٢١ هـ ، مما جعله أصابع شخصية لفتح هذا الإقليم .

سار حبيب بن مسلمة لفتح أرمينيا من قبل معاوية بن أبي سفيان سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م . وكان هدف القائد الإسلامي الاستيلاء على عاصمة أرمينيا البيزنطية ، وهي مدينة ثيودوستيوبوليس (Theodostopolis) ، التي تدعى « إيقلا » في المراجع العربية . واستهل حبيب انتصاراته بالاستيلاء على هذه العاصمة بعد حصار يبر ، وفر من بها من القوات البيزنطية إلى آسيا الصغرى . وبقى حبيب في هذه المدينة شهراً يدعم نفسه فيها وقواته ، حتى بلغه أن قائد الفيلق البيزنطي في إقليم « الأرمني » بآسيا الصغرى ، الذي يضم المنطقة المتاخمة لأرمينيا ، جمع جيشاً كبيراً لاجتياح المسلمين من هذه البلاد ، وضم إليه بعض العناصر من الخزر^(١) وغيرهم من سكان البلاد القريبة منه^(٢) .

وبعث حبيب بن مسلمة إلى معاوية يصف له حالة الفتح ويطلب منه أمداداً لتثبيت فتوحات المسلمين بأرمينيا . فأرسل معاوية إليه الأمداد سريعاً ، ثم التقى

(١) الخزر قوم استقروا في منطقة القوقاز غرباً . ولما سكن كل قومهم فتح ويكنش حسب الظروف السياسية . وقد عرف عن الخزر تحالفهم مع البرصيين قبل ظهور الإسلام . ولما تلبت الدولة البيزنطية تمسكهم بهم كبدلت أثناء حروبها ضد الأمويين .

(٢) الخلاقي ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ (Encyc. of Islam (art. Armenia))

المسلمون والبيزنطيون على شاطئ الفرات الأعلى ، حيث أنزل مسلحة بأعدادهم هزيمة ساحقة ، وكتب للمسلمين الاستقرار في هذا الإقليم الهام ، وأتبع مسلة انتصاره بوضع حامية قوية في مدينة فاليقلا ، وأغراها على البقاء ، فيها بمنح أفرادها إقطاعات من الأرض يستغلونها لأنفسهم وينعمون بخراجها ^(١) .

تابع حبيب زحفه بعد انتصاره في الشطر البيزنطي من أرمينيا إلى الجنوب الشرقي للاستيلاء على أرمينيا الفارسية كذلك . وكان يلقي في طريق زحفه ترحيباً من الحكام المحليين حيث قدموا له قروض الطاعة والولاء . وأخيراً بلغ عاصمة أرمينيا الفارسية ، وهي مدينة دوين (Diwin) لوديبيل في الراجع العربية . واضطر حبيب أن يحاصر هذه المدينة التي تحصن بها أهلها ، فنصب الحجابيق وأطاح بهم بها حتى ألجأهم إلى طلب الصلح . وكشف عقد الصلح الذي أبرمه مع أهالي هذه المدينة بخلاء عن أهداف المسلمين في فتح أرمينيا ، وأنها كانت ترمي إلى تأمين بلاد الإسلام ، إذ شرط حبيب على سكان دويل ، إلى جانب تأدية الجزية المطلوبة منهم ، ضرورة « مناصحة المسلمين » . ومعاونتهم على أعدائهم ^(٢) .

وأخذ حبيب يوالى انتصاراته بعد استيلائه على عاصمة أرمينيا الفارسية ، حتى التقى بقوات المسلمين في أرض الجزيرة بالعراق ، والتي كان يقودها غياض بن غنم . فاشتبك القائدان في فتح شمشاط ، وهي منطقة تدعى أرمينيا الرابعة ، أي أنها كانت قسم من الأقسام الإدارية التي انقسمت إليها أرمينيا . وكان بعض سادة نواحي أرمينيا المناهضة لأرض الجزيرة بالعراق قد أخذوا عهداً من غياض بن غنم ، فأقرها لهم حبيب ، ثم تابع فتوحاته بعد ذلك منفرداً عن غياض ^(٣) .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ . Encyc. of Islam (art Armenia)

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ . Encyc. of Islam (art Armenia)

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٧ .

أنتم حبيب فتوح أرمينيا بوصوله مدينة تفليس ، إذ منح أهلها عهد صلح وأمنهم على أنفسهم ويومهم وضوا معهم ، مقابل اعترافهم بالسيادة الإسلامية ودفع الجزية . ولم يترك حبيب أرمينيا إلا عام ٦٥٥ م بعد أن صد جيشاً بيزنطياً أخرجه تحت قيادة ماوريانوس « Maurianos » ، وختم بهزيمة هذا الجيش آخر المحاولات البيزنطية لاسترداد أرمينيا ^(١) .

عاد حبيب بن مسلمة بعد ذلك إلى إقليم الشام ، مخلصاً اسمه في سجل حوايات الكفاح الإسلامي ضد البيزنطيين . وقد اكتسبته انتصاراته على البيزنطيين شهرة فائقة جعلت معاوية يهده إليه بإدارة إقليم النفوذ المتأخر لحدود البيزنطية . فالتحق حبيب بن مسلمة بحصن مفرأ لإغاراته السنوية على أرض البيزنطيين . آسيا الصغرى ، ولإبعاد شعبهم عن إقليم أرمينيا ^(٢) .

وارتبط مصير أرمينيا منذئذ بتاريخ الدولة الإسلامية ، وتأثرت بما سادها أحياناً من فترات الاضطراب . ونجلى ذلك بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وانغماس المسلمين في الحروب الأهلية التي شتت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . إذ اضطرت معاوية إلى سحب قواته المرابطة في أرمينيا ليقوى جبهته في الصراع مع علي بن أبي طالب . وكان حبيب بن مسلمة نفسه ، القائد الإسلامي المظفر في الميدان البيزنطي بأرمينيا ، قائد جيش معاوية الذي أتجه أول الأمر إلى نجدة الخليفة عثمان بنمكة حين حاصره الثوار ، ثم قتل راجعاً بعد أن علم بمقتل الخليفة عثمان واضطراب الأحوال في الحجاز .

وجاء خلف أرمينيا من القوات الإسلامية فرصة مواتية للبيزنطيين لاسترداد هذا الإقليم ذي الموقع الحربي الممتاز . فعادت جيوش الإمبراطورية البيزنطية

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ٢٠٨ ، ١٧٢ . *History of Islam / Art Armenia*

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ٢١٢ .

إلى مقرها القديم بأرمينيا ، مصطلحية معها سياسة البيزنطيين التقليدية في العداء المذهبي . عني أن المسلمين لم يعضوا الطرف عن أرمينيا ، ولم يتركوها لقمة سائغة للبيزنطيين ، إذ بعد أن حالف النصر معاوية ، وأصبح خليفة المسلمين سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م وجه همه لاستعادة أرمينيا . وكانت الأحوال التي نفشت في أرمينيا إبان سيادة البيزنطيين الثانية لها عاملا ساعدا معاوية على الفوز من أسهل طريق وأسرع .

عانت أرمينيا في تلك الفترة من التبعية البيزنطية سوء الإدارة ونشر روح التذمر والتمرد بين الجيوش البيزنطية بها . وأدى هذا الفساد إلى إدراك معاوية سهولة فتح أرمينيا ثانية ، إذ تاركا الجيوش البيزنطية بأرمينيا يدعى إذ ذلك سابور (Sapor) في سنة ٦٦٨ م على الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع^(١) . وبعث هذا الثائر مندوب من قبله إلى معاوية بن أبي سفيان يطلب منه المساعدة ويعده مقابل ذلك بتمهيد الطريق للمسلمين للاستيلاء على آسيا الصغرى وإعادة الجيوش البيزنطية عنها ، ولا سيما الرابطة منها على تخوم الشام الشمالية^(٢) .

وعند الإمبراطور البيزنطي إلى عرقلة جهودات هذا الثائر ، فأرسل بدوره إلى الخليفة معاوية يحذره من مد يد المساعدة إلى ثوار أرمينيا . ولكن تصادف أن التقي المبعوثان الأول الذي أرسله الثائر سابور ، والآخر الذي بعثه الإمبراطور في بلاط معاوية ، وتشاحنا وخربا دون أن يظفر أحدهما بحصص إلى تحقيقه . وأدرك معاوية من ذلك أن الوقت قد حان لاسترداد أرمينيا . فأرسل إلى أهالي أرمينيا يدعوهم إلى الاعتراف بسطوانته والدخول في التبعية المسلمين ودفع الجزية مقابل حمايتهم وطرد البيزنطيين . وحقق معاوية أغراضه واستردت جيوشه

(١) Finlay, A History of Greece I, 388.

(٢) ابن العديم ، تاريخ عصر الدول ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

Cheirā, op. cit., 117, 118.

أرمينيا وما اردت فنول البيزنطيين المقطعة الأوصال^(١).

وضع معاوية بعد ذلك سياسة حكم أرمينيا كفلت للمسلمين البقاء فيها طوال العصر الأموي ، إذ عود بإدارة شئونها المحلية إلى أقوى الأسرات الحاكمة بها ، والتي اشتهر منها الماميلونيون « Mamlunians » ، والباغراتونيون (Bagratunians) . ونصب على أرمينيا بأسرها والى مسلم يرقب أحوالها ويدير شئونها عن طريق الحكام المحليين^(٢) . وحقت هذه السياسة الإسلامية وما اتسمت به من ترك الأهالي يحكمون أنفسهم حكما ذاتيا مستقرا ، هدوء الأوضاع واستقرارها بأرمينيا طوال العصر الأموي . وهكذا نعم الخلفاء الأمويون من بعد معاوية بما وضعه عميدهم من أسس الاستقرار في هذا الزكن الهام من الأراضي الإسلامية المتاحة للدولة البيزنطية .

(1) Hury, op. cit. II, 307 ; Muir , The Caliphate 1927 .

ابن الأثير : معجم التاريخ ، ١٧١ :

(2) Laurens , L' Arménie, 92, 93 ; Encyc. of Islam (art Arménia.)

الفصل الثالث

دمشق والقسطنطينية

أسس نمو المدن وإزدهارها

أوضاع المدن :

المدن عصب الدول ، وميزان ما ينالها من ازدهار والخلال ، ورمز ما يتفجر فيها من بنايع الحضارة والمدنية ، ومن ثم حرصت كل مدينة كبرى على العمل بما يهيئ للدولة التي تضمها سبل الرفاهية والعظمة ، والوصول إلى مركز الصدارة بين الأمم المجاورة لها سواء الدانية منها أو القاصية . وقد تفاوتت المدن الكبرى في تأدية هذه الرسالة ، فمنها ما ارتقى سريعاً في سلم الزخامة العالمية ، ثم هوت في ملح البصر كشهاب ما كاد يضيئ حتى حيي . ومنها ما جمعت أحداث دولها تحتل المسكن الأول بين أخبار العالم المعروف لها ، وسطرت لها صفحات خالدة في سجل التاريخ .

ويجزى ما أصابته المدن الكبرى من نجاح أو فشل ، وعلو بعضها فوق بعض درجات إلى عوامل شتى ، أهمها مدى ما حبت الطبيعة المدينة من مميزات جغرافية ، واستطاعة مؤسسو هذه المدن الكبرى استغلال هذه المميزات وتعميقها بما يحقق لها السيادة والازدهار . وكانت هذه العوامل التي تتحكم في مصائر المدن ونشأتها موضع التقدير والاهتمام من أولى الأمور في البلاد ، ودونوها في تقارير تداولها الخلف عن السلف لاسير على هديها والعمل وفق إرشادها . وظلت هذه القواعد العامة متبعة منذ أقدم الأزمان حتى نهاية العصور الوسطى ، حيث تغيرت

أوضاع المدن وفن تأسيسها لما طرأ على العالم في العصور الحديثة من انقلاب في أساليب المدنية ومظاهرها .

ونناول ابن خلدون في مقدمته هذه القواعد التي أرمى عليها القدامى وأهل العصور الوسطى صرح مدسهم ، وبين مدى أهمية مراعاة هذه القواعد حتى تحقق المدن الغرض المنشود منها . فذكر « أن المدن قرار يتخذها الأم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدعوة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المأوى للقرار ^(١) » . ولما كان الحدود والاستقرار أهم ما تعرض عليه الدول ، فقد دأب أولو الأمر فيها على العناية بالمدينة التي هي عماد هذا الاستقرار وعموده القوي ، وحرسوا عند تأسيسها ولا سيما الكبرى منها حتى أن تتوافر لها ثلاثة أمور هي : « دفع المضار . . . وجلب المنافع وتسهيل المرافق » ^(٢) .

وكان دفع المضار عن المدن يتحقق بأن « يدار على منزلها جميعا سياج الأسوار ، وأن يكون وضع (المدن) في ممتنع من الأمكنة ، إما على هضبة متوعدة من الجبل ، وإما باندادة بحر أو سهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو فنترة ، فتصوب منها لها على العدو ، ويقضاهف مناعها وحصنها ^(٣) » .

وأما جلب المنافع والمرافق المدنية فقد أطلب عدة أمور منها الماء ، « بأن يكون البلد على سهر أو بإزائها عيون . . . فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء ، وهي ضرورة ^(٤) » . وكذلك المزارع ، « فإن الزروع هي الأقوات ، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذها ،

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

وأقرب في تحصيله «^(١)». وأخيراً لابد للمدن من المراعى الجيدة ، « إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للقتاج والضرع والركوب ، ولابد لها من المرعى ، فإذا كان ذلك قريباً طبيياً كان ذلك أرفق بحالهم »^(٢).

ودال ابن خلدون على صدق هذه العوامل الثلاثة الأساسية بسر وأسماء بعض مدن عمر شطر منها طويلاً وازدهرت وامت مع الزمن ، على حين ذكر مدناً أخرى غفل مؤسسوها عن « حسن الاختيار الطبيعى » ، « ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الخطب ولا مراعى السائمة من ذوات الغلف ... ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية »^(٣).

وهكذا حفل التاريخ بقوائم عديدة لمدن كبرى ظهرت على مسرح بلاد الشرق ، بعضها تحقق لها الكثير من القواعد التي ذكرها ابن خلدون ، والبعض الآخر لم يحظ من أسباب البقاء إلا بالقدر الضئيل ، ومن ثم ظلت بعض هذه المدن تؤدي رسالتها في ميدان الحضارة العالمية حتى حان حينها وآز أفولها ، على حين اندثرت المدن الأخرى التي قامت على أسس عيب عليها طامع التصنيع والبعث عن « حسن الاختيار الطبيعى » . وليكن بذا مدن الشرق جميعاً مدينتان توافرت لها أسباب الزخامة على سائر مدن الشرق الأخرى ، وسعد التاريخ بفتحهما على المصور والأزمان ، مصححاً ببيان أهميتهما في بناء مسرح الحضارة العالمية . الأولى هي مدينة دمشق التي دارى فلسكها كثير من أحداث التاريخ منذ أقدم عصوره حتى الوقت الحاضر ، والثانية مدينة القسطنطينية التي شاركت دمشق في الظهور والبقاء حتى العصر الحديث .

وقد أخذت هاتان المدينتان أشيدان صريحهما ، كل جاهدة على الاستفادة مما حنتها الطبيعة من معجزات جليلة ، حتى شاء كرم المصور أن يتصل تاريخهما معاً

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

وبربط في ركايتها أهم الأحداث العالمية ، وجاء هذا الاتصال في العصور الوسطى حين ظهر الدين الإسلامي وأخذ يحتضن بلاد الشرق ويضيئ عليها نوره وهدهد . ففي تلك الحقبة الزاهرة من تاريخ الشرق نالت كثير من المدن شرف سبق في اعتناق الدين الإسلامي على حين تأخرت أخرى في هذا المضمار . ومن ثم نشب بين الفريقين صراع انصف سمات جديدة تختلف اختلافاً كلياً عن أي صراع آخر عرفه الشرق من قبل ، إذ جهد الفريق الأول على تأدية رسالته العالمية بأن يجعل الفريق الآخر على اعتناق الإسلام والسير في ركاب حضارته وهديه . واتخذت دمشق لواء الفريق الأول شعاراً لها ، على حين رفعت القسطنطينية راية عضبان الفريق الآخر .

على أن سبق دمشق في الإسلام جعلها تحتل مركزاً الزعامة العالمية في العصور الوسطى على عهد الأمويين ، وأرسلت جيوشها الواحدة تلو الأخرى لتتقدم بالشاء من الأراضي التابعة للقسطنطينية وتدفق أسوار هذه المدينة العتيقة ضيقها ، حتى جعلت أقطار المسلمين تتجه إليها ، وتطلع إلى أهمية ضمتها إلى حضارة الإسلام . وحملت رسالة الأمويين قائمة عند أولى الأمر من قادة الدولة الإسلامية حتى فتح الأتراك العثمانيون القسطنطينية ، وهربوا لها مكاناً جديلاً في التاريخ الإسلامي إلى حوار قزوينية دمشق .

دمشق — قبلة سفن الصحراء :

قامت عظمة دمشق على عهد الأمويين على أسس من الماضي النابذ وفوق دعائم قامة الأركان . فهي ذات تاريخ قديم يبدأ منذ بزغ فجر الحضارات في بلاد الشرق ، ومنذ أدرك أهالي تلك البلاد أهمية اتصال بعضهم ببعض الآخر ، واحتياجهم فقط تصليح العلاقات وتبادل المصالح . وقد رمت العالمية مدينة دمشق لتسكون من البدايع الأولى التي تغذي أرض الشرق بالحضارة . وأن تصبح

خير بقعة يتعارف فيها أهلها - إذ هي هبة أعظم طريق تجارى قديم ربط الشرق بالغرب ، وهبة نهر بردى أيضاً الذى خلق منها جنة فوحاء وقد دوساً هادئاً يجرد فيها التاجر والمسافر الراحة والاستقرار بعد عناء السفر ومتاعب الطريق .

وهكذا اختصت العاصمة مدينة دمشق بموقع رائع خالده لا يضمحل مع الزمن ، ورفعتها إلى مصاف عدد قليل من المدن الأخرى العالمية التى شاركتها فى القدم وطول البقاء . فقد أصبحت دمشق بفضل موقعها الممتاز مركزاً تلاقى فيه متاجر الأمم المحاورة لها ، وسوقاً لتبادل السلع التى ترد إليه من شتى الآفاق . فسكان المتاجر إذ ذاك تنقل من شاطئ الشام المطل على البحر الأبيض المتوسط ، ثم يسير بها القوافل عبر سهول الشام الخصبة المعروفة بالقامح (Coele Syria) قاصدة مدينة دمشق ، حيث تنقل منها سرية أخرى إلى نهر الفرات . ثم تعود منتجات العراق وما يضاف إليها من واردات اليمن وفارس عن هذا الطريق إلى البحر الأبيض المتوسط مارة بمدينة دمشق كذلك^(١) . وكان هذا الشريان التجارى أهم طريق يصل بين بلاد الشرق الأقصى الغنية بالتاجر وغيرها من المنتجات التى احتاج إليها العالم القديم وبين أسوان ومراكز استهلاكها فى البلاد المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى . واختص هذا الطريق التجارى بالأهمية فى حلقة التبادل التجارى بين الشرق والغرب لأنه كان ذا شعبتين : الأولى ، وقد سبق ذكرها ، ونسب من مياه الخليج الفارسي ثم مع الفرات ومنه إلى دمشق وأخيراً إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ وشعبة أخرى تواصل السير من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر ، حيث يبدأ عند اليمن طريق قوافل آخر يجتاز بلاد العرب إلى جنوب الشام حيث مدينة بصرى مفتاح الطريق إلى دمشق^(٢) .

وبعزى السبب فى اتجاه هذا الطريق التجارى ذى الشعبتين الكبيرتين

Kremer : Orient under the Caliphs. 131, 134. (١)

(٢) إبراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص ٢١٠ .

نحو مدينة دمشق إلى تحكمها في نقطة اتصال رئيسية بين منطقتين متباينتين
لها أهميتهما في ميدان التجارة والاقتصاد . فزلى الشرق من دمشق توجد مدينة
الشام التي تخترقها الطرق التجارية الآتية من شمال بلاد العرب أو من العراق ،
وإلى الغرب منها الممهل المصيب الزاهر الذي أطلق عليه القدامى اسم البتاع
لوقوعه بين سلسلتى جبال لبنان . واكتسب هذا الوادى شهرة كبرى في عالم
التجارة لأنه ممهل مهمة اجتياز هذه السلسلة الجبلية والوصول إلى شاطئ البحر
الأبيض المتوسط^(١).

وكان تحكم دمشق في هذا الطريق التجارى عاملا جعلها سطوح أنظار القوى
التي ظهرت بجوارها . فحرصت كل دولة تبغى لنفسها السيطرة التجارية إدخال
دمشق في دائرة نفوذها . على أن هذا التنافس أود دمشق نفسها حيث أتاح لها
سبيل الظهور على مسرح الأحداث العالمية . وارتبطت أولى خطوات دمشق في
سلم الزعامة السياسية ببلاد العرب ، وهي المهيد الذي سوف يخضع الإسلام في
مبدأ أسره فيما بعد . إذ فيما بين سنة ٦٥٠ ق . م خرجت من بلاد
العرب هجرة بشرية تعرف بهجرة الآراميين استقرت في بلاد الشام وأسست
لنفسها دولاتها ، وكانت دمشق حاضرة إحدى هذه الدول الآرامية الناشئة ،
و تشمل سطاتها الأراضي الممتدة من الفرات إلى اليرموك^(٢).

وأخذت دولة دمشق منذ تلك الحقبة تخضع لما يطرأ على الدول السياسية
من عوارق ونفاس ، ثم تدهور وانحلال . ولكن المدينة نفسها لم تندثر أو تفقد أهميتها
وعمد دوال سيادتها على ما جاورها من بلاد . وكان السبب في تدهور دولة دمشق
السياسي هو إغارات البدو المقيمين في الضمراء المجاورة لها على القوافل التجارية
القاصدة عاصمتها . وبلغ من كثرة أولئك المغيرون أنهم اتخذوا لأنفسهم كهوفا

(1) Kremer : op cit, 134, 136.

(2) Hill, History of Syria (London 1931) 165.

بقيومون بهاء ، وكان أحدها يقع بالقرب من دمشق نفسها ، ويضم أربعة آلاف رجل وظلت هذه الإغارات الشوكية التي تضايق دمشق لأنها آمنت بصفة خاصة طريق القوافل الحدم الآتي من بلاد العرب السعيدة (اليمن) إلى إقليم الشام ، والذي يحمل إليها الخبث المعبر^(١).

واستهدف البدو من إغاراتهم مشاركة دمشق في ثرائها ، على حين استقر بعضهم في المدينة نفسها حيث جذبهم إليها حدائقها وحقولها الخضراء . ومن ثم كان تاريخ دمشق الاقتصادي لا يمكن فصله عن نهر بردى وما أفاضه عليها من خصب وبهاء . فهذه المدينة بدت في نظر جيرانها من البدو ، وغيرهم من التجار والمسافرين الدرة الزاهية وسط عقد يحيط بها من حدائق زمردية اللون ، وكان الفضل في هذا إلى نهر بردى وحده الذي يسقى المدينة وبساتينها ، واستطاع بذلك أن يقتطعها من المنطقة المجاورة لها ويجعلها وحدة قائمة بذاتها . فدمشق محاطة من ثلاث جهات بتلال عالية على حين تحف بها الصحراء من الجهة الرابعة ، وتقف وسط هذا المحيط كجزيرة قائمة بنفسها ، لا يربطها بالظارح إلا سفن الصحراء ، التي تهرع إلى المدينة بعد عبورها الصحراء حاملة المتاجر والمسافرين ، حيث تقضي هناك فترة للراحة ومتابعة الرحيل^(٢).

ويعتبر نهر بردى من الأنهار التي لا ينضب ماؤها ، فهو ينبع من جبال لبنان الداخلية ، حيث تغذي الثلوج جداوله العليا بالمياه ، ثم ينساب الجرى الرئيسي من الشمال إلى سهل دمشق يغذي حدائقه وأراضيه بالمياه . وكانت أراضي دمشق تحصل على مياهها من نهر بردى في سهوله ويسر^(٣).

وهكذا تسكانف الموقع الجغرافي ونهر بردى على سهل دمشق غرة إقليم الشام ، وقيلة أنظار أية قوة تظهر في بلاد الشرق الأوسط والأدنى . ولكن

(1) Hitti, op. cit., 308.

(2) Feddan, Syriai, 34 ; Hitti, op. cit., 472.

(3) Ibid., 742.

أخذت دمشق منذ سنة ٨٥ ق. م تدخل في دور جديد من تاريخها السياسي ،
تجمعت فيه القواعد التي شيد عليها الأمويون فيما بعد صرح دولتهم . إذ دخلت
دمشق في التسمية لأحدى الهجرات البشرية التي خرجت من بلاد العرب ،
وتعرف بهجرة الأنباط ^(١) . وإذا كانت دمشق منذ هجرة الآراميين مرتبطة
أشد الارتباط بما ينبع من خوف بلاد العرب من حركات فإن حكم الأنباط
لمدينة دمشق الحجر الأول في بناء صرح دمشق السياسي الذي شمع وعلا عندما
أخذها الأمويون مقراً لهم .

وكانت أولى دلائل هذا العهد الجديد هو أن الطابع العربي أخذ يسود
دمشق ، فانتشرت اللغة العربية في أحيائها ، وأصبحت العبارات العربية تزداد
بين جناتها ، على حين توالى عليها هجرات عدد كبير من القبائل العربية
البدوية واستقرت في المنطقة المحيطة بها . وكان هذا التماسك الجديد يسير مع طريق
القوافل التجارية الآتية من بلاد اليمن ، ويدفعه الرغبة والشوق إلى التمتع بثراء
هذه المدينة الزاهرة .

وأدى استقرار هذه القبائل العربية في المنطقة المجاورة لدمشق إلى بدء
أية محاولة تهدف إلى إضعاف الطابع العربي لهذه المدينة . ونجلى ذلك حين
استولى الرومان على دمشق من الأنباط طمعاً في السيطرة على الطريق التجاري
الذي يمر بها . فلم يستطع الرومان وضع مقر حكمهم في الشرق في هذه المدينة خوفاً
من بطش القبائل العربية الضاربة في ضواحيها ، وتركوا المدينة تقع بحكم
ذاتي عربي . ولكن اضطراب الرومان إلى توجيه عنايتهم بهذه المدينة حين نشب
الصراع بينهم وبين دولة الفرس ، فأنشأ بها الأسباطور دقلديانوس داراً لصناعة
الأسلحة وتزويد الجيوش الرومانية بالعتاد ^(٢) .

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)

(2) Kremer, op cit, 130.

ولما خلفت الدولة البيزنطية أمها الأمبراطورية الرومانية الكبرى في بلاد الشرق زاد الاهتمام بدمشق ، ولا سيما أن الفرس الساسانيين جاهدوا على إكمال سيطرتهم التجارية في الشرق بالاستيلاء على هذه المدينة التجارية الهامة . وعلى إثر ذلك المييزنطينيين لأهمية هذه المدينة في خطط الدفاع البيزنطي ضد الفرس وغيرهم من القبائل العربية التي دأبت على مهاجمة القوات البيزنطية بها في أن الأمبراطور البيزنطي يوليان سماها « عين الأمبراطورية في سائر إقليم الشرق » ^(١) . وعمدوا في تقوية هذه المدينة لإزالة الأخطار المحيطة بها إلى اتباع سياسة جعلت في النهاية من دمشق مدينة عربية لحما ودما .

وكانت سياسة البيزنطيين هي اتخاذ قبيلة الفساسنة العربية التي استقرت في منطقة دمشق والصحراء القريبة منها عميلا لها بحسب حدود امبراطوريتها الممتدة على أراضي دولة الفرس ، وبدفع عنها إغارات البدو التي تبغى الشام والشعب . وأدت هذه السياسة إلى أن أصبح بلاط الفساسنة يجمع بالشعراء والوفود من العرب ، ونقلت دمشق قبلة العرب في الجاهلية ينعنون بخيراتها ويأخذون منها ما يحتاجونه من متاجر .

وجهد العرب الفساسنة في الدفاع عن دمشق ومنطقتها أيام الحروب الفارسية البيزنطية كما هي وطبعم ، وأكثر من الدفاع عن سائر الحدود البيزنطية . ودفع ذلك السلطات البيزنطية إلى التشكك في نوايا الفساسنة ، وأخذت تعمل على إضعافهم والقبض على رؤسائهم وإقصائهم عن إقليم الشام . وكان لهذه السياسة البيزنطية أسوأ الآثار ، إذ سرعان ما غزا الفرس الشام أوائل عهد الأمبراطور البيزنطي هرقل ، واستولوا على دمشق منتهزين فرصة ضعف الفساسنة . ولم يتعرض الفرس بأي تحرّيب أو أذى لمدينة دمشق ، التي أمثلوا أن يبقوا عليها لتأدية رسالتها في ميدان التجارة والاقتصاد ، ومن ثم ظلت دمشق رغم الاحتلال

(1) Kremer, op. cit, 130.

الفارسي محفوظة بطابعها العربي ونظام تخطيطها العربي ، دون غيرها من المدن الشامية التي أهل الفرس فيها التخريب^(١).

واسكن الاستعمار الفارسي للشام لم يدم طويلاً ، إذا استطاع الامبراطور هرقل أن يعي قوات دولته ويحمل الفرس على إخلاء الشام دون أن يصطدم معهم في معارك حربية . إذ سار نحو حوشه محراً من القسطنطينية ، معلناً أن هدفه الزحف مباشرة من آسيا الصغرى إلى أراضي الدولة الفارسية نفسها . فاضطرت الجيوش الفارسية إلى إخلاء آسيا الصغرى والشام والتجمع في بلادها الرئيسية للدفاع عنها . وبذلك ظلت دمشق قائمة دون أن يعطراً عليها تغيير في تلك المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الفارسية البيزنطية ، والتي سبقت مباشرة حركة الفتوحات الإسلامية للشام .

على أن السيادة البيزنطية نفسها لدمشق على عهد الامبراطور هرقل امتلأت بأحداث هامة جعلت هذه المدينة يسكنها من العرب يتطلعون إلى إخوانهم في شبه الجزيرة العربية ، الذين أخذ الإسلام يضم صفوفهم ويعلى من شأنهم . فلك أن الامبراطور هرقل أدرك جنوباً عند أهل الشام في الانقسام عن جسم الدولة البيزنطية ، وأنهم اتخذوا من اختلافهم في المذهب الذي مع هذه الدولة تسكناً للاستقلال . فسمد الامبراطور بعد طرد الفرس إلى نشر مذهب جديد يدعى بمذهب « التوحيد » ، يضم شمال ولايات الامبراطورية البيزنطية جميعاً في صعيد واحد ، ويقضي على عوامل التفرقة بينها . على أن عرب الشام الذين كانوا على الدين المسيحي كرهوا عودة الحكم البيزنطي ، ونشبتوا بمذاهبهم القديم معادين رفضهم في إياه المذهب هرقل الجديد .

وكان من نتائج إصرار أهل الشام على عقودتهم الدينية أن عين الامبراطور هرقل في مدينة دمشق حاكماً بيزنطياً أخذ يسوم أهلها العذاب ، ويعاملهم بعنتى

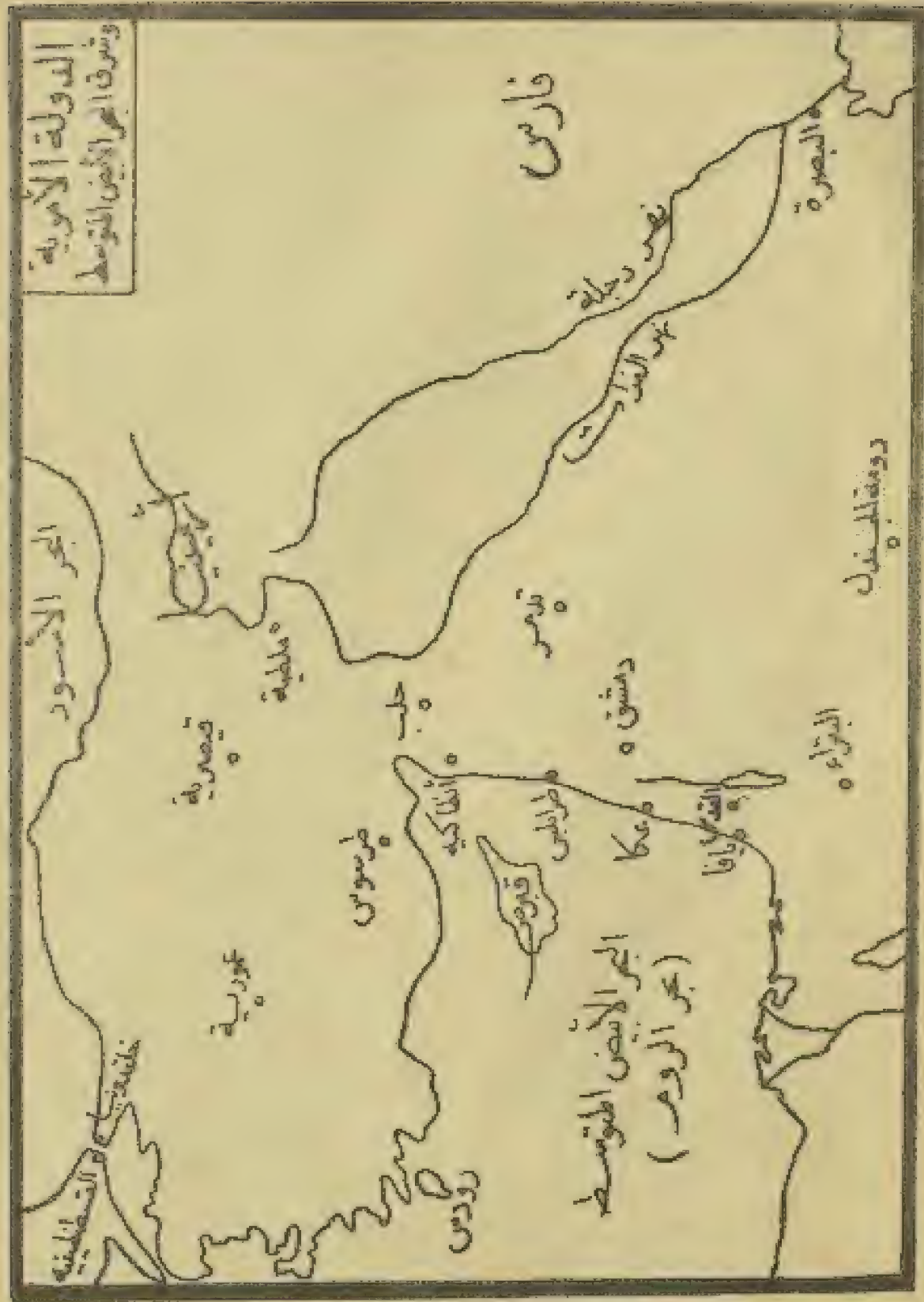
(1) Encyc. of Islam (art. Damascus)

التسوية . وكانت هذه الخطوة البيزنطية إيداعاً بشيعة عهد سيادة البيزنطيين على الشام ، إذ سرعان ما تمّ للإسلام كرامته في بلاد العرب ، وأخذ تيسار الفتوحات الإسلامية يتجه صوب الشام فسر هذا الذين الخفيف . ومن ثمّ بدأ للجيش الإسلامي أهمية الانجاء صوب دمشق وضمّ عروس الشام إلى رقعة الإسلام .

دمشق الأموية :

عندما بدأت جيوش المسلمين تغزو أرض الشام أخذ البيزنطيون يعملون جاهدين على عرقلة زحفها حتى تأتيمهم الأمداد من العاصمة البيزنطية . وجاءت النجذات البيزنطية سريعاً وتجمعت في دمشق الدافع عنها ، لأن استيلاء المسلمين عليها يحطم سائر خطوطهم الدفاعية الأخرى . على أن السلطات الإسلامية المركزية أدركت خطورة التجمعات البيزنطية في دمشق وعمدت إلى حشد قواتها مجمعة للتعقب على هذا الخطر . وكانت أولى الخطوات الإسلامية هو إرسال الخليفة أبي بكر إلى خالد بن الوليد ، الذي كان يوالى الفتوحات في العراق ، بأمره بالذهاب إلى الشام على رأس قواته لمساعدة زملائه من القادة المسلمين المقيمين بهذا الإقليم . وبانضمام خالد بن الوليد إلى القوات الإسلامية بالشام أصبح يتولى عمليات الفتوح أشهر قادة المسلمين وأكثرهم خبرة بأساليب القتال . فبادروا جميعاً بعد استيلائهم على أجنادين (٢٠ يوليو ٦٣٥ م) ، وأمين خطوط مواصلاتهم مع بعضهم البعض ، بالزحف على دمشق لتقطع سبل الاتصال بين الجيوش البيزنطية في سائر مدن الشام والنجذات التي تأتي إليهم من آسيا الصغرى . واستهل المسلمون نشاطهم في ميدان دمشق بأن شنوا شمل البيزنطيين في مخرج الصفر (٢٥ فبراير سنة ٦٣٥ م) ، وهو سهل يبعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من دمشق نفسها . وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام الجيوش الإسلامية للزحف مباشرة على هذه المدينة العتيقة (١) .

(١) اللاذقي ، فتوح البلدان ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، Hitti, op. cit., 412, 414.



استولى المسلمون على المنطقة المحيطة بمدينة دمشق ، الغنية ببيساتها وحدودها ، وهي المعروفة باسم « العوطة » ، وتابعوا سيرهم حتى وقفوا أمام أسوار المدينة التي تحصنت بها الحاميات البيزنطية . ومن ثم بدأ التعاون والتسبيق بين خطط سائر القادة المسلمين ، الذين كان من بينهم أحد أبناء البيت الأموي . فوزع أولئك القادة قواتهم على الأبواب الرئيسية لهذه المدينة لتضييق الخناق والحصار عليها ، وحملها على التسليم . فمسكر خالد بن الوليد على « الباب الشرقي » ، ونزل القائد الأموي يزيد بن أبي سفيان على « الباب الصغير » ، واختص عمرو بن العاص « بباب توما » ، على حين نزل شريحيل على « باب الفراديس »^(١) .

وكانت هذه الأبواب والأسوار الممتدة حول المدينة محصنة تحصيناً قوياً ، حيث نجفت عوامل التخريب والهدم رغم ما تعرضت له فيما سلف من هجمات الفرس أو البيزنطيين . ولذا مكث المسلمون في حصار دمشق ستة أشهر ، جاهدين على دراسة تحصيناتها وأسوارها ليقتدوا أنفسهم منها ، ويذهبون حامياتها وأهلها المدافعين عنها . وكانت دمشق كما وحدها المسلمون في حصارهم ، عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل مبتور شطر منها في الركن الشمالي الغربي ، وكان في هذا المكان قلعة حصينة تداعت منذ زمن بعيد وظل مكانها شاغراً . أما الأسوار فبلغ ارتفاعها عشرين قدماً وسماكتها حوالي خمسة عشر قدماً ، وبليت من حجارة متينة . وكانت بعض هذه الأسوار مشيدة على أسس مبنية قديمة ترجع إلى ما قبل العصر الأموي^(٢) .

وتوج أسوار المدينة أبراج بارزة مربعة الشكل ذات أسقف مخروطية الشكل ، ويبعد كل برج عن الآخر بمسافة قدرها خمسين قدماً . وكانت هذه الأبراج معدة بما يكفل للمدافعين ، ولاسيما الرماة وسائل الطائفة ، وكافة ما يحتاجون إليه من

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٢٧ .

(٢) Kremer, op. cit., 141.

وخيرة وعدد . أما الأبواب الكبرى التي يتسكن دخول المدينة منها فكانت منظمة بما يحقق الدفاع عن المدينة . فكان كل باب يشمل ثلاث فتحات ، أحدها كبيرة واسعة وهي الوسطى ، وفتحتان صغيرتان على جانبي هذه الفتحة الوسطى . وافتتحت الفتحتان الجانبيتان على حركة مرور الناس ، إحداهما للخروج والأخرى للدخول ، أما البوابة الوسطى فكانت تستخدمها الجنود أو قوافل الجمال وغيرها من دواب الحمل . وزاد في منعة هذه الأسوار وأبوابها خندق عميق يحيط بها ويزود بالماء من نهر بردى ، حتى لا يستطيع المهاجمون الاقتراب منها^(١) . ولذا لم يكن عجيباً أن تقضي القوات الإسلامية مدة ستة أشهر في حصار دمشق . ولكن امتازت هذه القوات بالثابرة في الحصار وبأن روحها المعنوية ظلت عالية . وكان جيش يزيد بن أبي سفيان خير نموذج لهذه الصفات التي تجلت في الجند الإسلامي ، إذ عبر أحد جنده ويدعى عبد الرحمن بن صهيل عن روح زملائه المعنوية في آيات من الشعر ، تكشف كذلك عن قرب سقوط دمشق في أيدي المسلمين^(٢) .

وتشير بعض المراجع إلى أن جيش يزيد استطاع أن يدخل دمشق عنوة من « الباب الصغير »^(٣) ، ولكن حدث في تلك الاثناء أن السلطات البيزنطية في دمشق قاومت خالد بن الوليد على تسليم المدينة بعد أن أدركت إصرار المسلمين على الاستيلاء عليها . وتم تسليم دمشق في سبتمبر سنة ٦٣٥م بعد أن غادرتها الحامية البيزنطية ، ثم دخلتها سائر الجيوش الإسلامية . ومنح خالد بن الوليد أهلها عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ، وصدق على هذا العهد سائر القادة

(1) Kremer, op. cit., 141.

(٢) قال ذلك الشاعر:

أبلغ أبا سفيان عنا بأننا على خير حال كان جيشنا
وأنا على ناي دمشق نرتمي وقد حان من ياي دمشق حروبنا

أنظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ص ١٧ .

(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ١١٧ .

المسلمين ، بما فيهم يزيد بن أبي سفيان ، مما يوضح اتفاق كلمة المسلمين في سياستهم
إزاء المدن المفتوحة .

و يعتبر هذا العهد الذي تالته دمشق نموذجاً للإجراءات التي اتبعها المسلمون
فيما بعد مع سائر مدن الشام الأخرى التي تم فتحها . وجاء في نص وثيقة التسليم
« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق ، إذا دخلها
أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسورهم — لم يهدموا — ولا يسكن نبي ، من نورهم ، لم يذل ، ولم يذل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم
والخلفاء المؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية . » (١)

وإذا كان تسليم دمشق يعد من أهم أحداث الفتح الإسلامي ، فإن تعيين
القائد الأموي يزيد بن أبي سفيان حاكماً عليها من قبل القائد العام للجيش
الإسلامية ، وهو أبو عبيدة بن الجراح ، يعد حدثاً هاماً آخر في التاريخ الإسلامي
لا يقل عن تسليم المدينة نفسها . إذ أصبح يمين على هذا المركز الحضاري القديم
في بلاد الشرق أحد أبناء البيت الأموي ، الذي آل على نفسه إعادة هذه المدينة
إلى سيرتها الأولى وسالف عظمتها بين دول العالم . واتضحت أهمية تعيين يزيد
واليا على دمشق حين اختطفه الموت من مسرح بلاد الشام ، إذ عهد الخليفة
عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان إدارة الجهات التي كانت تابعة لأخيه
يزيد بن أبي سفيان . وهكذا أخذت تنمو في دمشق بذور دوحة البيت
الأموي ، التي ترعرعت على عهد معاوية ، وأخذت تغل هذا المعقل الحضاري
وتزوده بثمار جديدة .

وبدت طلائع العهد الجديد ، الذي نعمت به دمشق بإبان ولاية معاوية
ابن أبي سفيان ، حين أخذ المسلمون الفاتحون يخرجون مع أهالي دمشق . وكان

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٢٧ - ١٣٠ .

أولئك الفاتحون قد استقروا بأدى الأماكن التي هجرها البيزنطيون في الطرف الشمالى الغربى من المدينة بالقرب من نهر بردى . ولم يجدوا في مقرهم الجديد أى ومشة ، حيث كان يقطن في الجهات الصغراوية القريبة منهم عرب من بني جلدتهم وفدوا إليها منذ زمن بعيد^(١) . وكان أولئك العرب ممن ساعدوا الفاتحين في الاستيلاء على دمشق ، وقدموا لهم كافة ما احتاجوا إليه من تسليحات . وسرعان ما تم الامتزاج بين الفريقين وبنوا على العدل لما فيه رفاهية مدينتهم في ظل العهد الجديد .

وزاد الامتزاج بين المسلمين وأهل دمشق في الفترة التي أصبح فيها معاوية يحكم الدولة الإسلامية بأسرها من دمشق ، بعد أن أودى به خليفة على المسلمين ، ودعم أركان البيت الأموى في هذه العاصمة الجديدة . إذ غدت دمشق حاضرة العالم الإسلامى ، تتطامع إليها أنظار سائر الولايات المسلمين في شتى الأرجاء يتلصسون منها الهداية والإرشاد وبدأت دمشق منذ تلك الفترة تفقد ما علق بها من صفات العهد البيزنطى البائد وتستبدل بها مظاهر إسلامية عربية . وظهرت دلائل هذا الانقلاب حين أخذت قبائل عربية عديدة تهاجر من بلاد العرب وتقدم إلى المنطقة المجاورة لدمشق . فقد أدت هذه الهجرات إلى اتساع رقعة دمشق ، وكثرت أحيائها ، إذ أقامت القبائل العربية في أحياء خاصة بها ، بكل منها مسجد خاص . وسوف نلاحظ . وبفصل كل حى من الآخر باب خاص ، حتى أصبحت هذه الأحياء أشبه مدن صغيرة . واتخذت القبائل الأخرى التي لم تستقر في قلب المدينة منازل لها في ظاهر دمشق حتى أصبحت هذه المنازل أشبه بقرى متصلة بعضها ببعض^(٢) .

واحتفظت مدينة دمشق على عهد معاوية بمبانيها العامة وأسوارها وأبنائها .

(1) Kremer, op. cit, 147: Encyc. of Islam, (art. Damascus).

(2) ابن عساکر، قس المرجع، ٢٤٣ : ١٤٧. Kremer, op. cit. 147.

فظلت مستطولة الشكل على نحو ما كانت عليه من قبل ، ويشقها نفس الطريق الرئيسية التي وجدت منذ العصر البيزنطي . فكان يشق دمشق طريق سمي « بالشارع الأعظم » ، واسكنه عرف غالباً باسم « المستقيم » ، وبلغ طوله ١٦٠٠ متراً ، ويمتد من الشرق إلى الغرب ، ويضم على جانبيه ممران أحدهما للمشاة والآخر للركبان^(١) . وكذلك بقيت مظاهر النشاط الاقتصادي والاجتماعي بالمدينة مركزة في الأحياء التي كانت عامرة بها أيام الحكم البيزنطي . فسكان قلب المدينة النابض يقع بالقرب من كنيسة القديس يوحنا ، التي حولها الأمويون فيما بعد إلى الجامع الذي نسب إليهم . وأقام معاوية بالقرب من هذه الكنيسة « قصر الخضر » الذي اتخذ مقرأ له ومنكراً لإدارة حكومته . وكانت الخضراء من الميالي التي شيدت من قبل أيام السيادة البيزنطية ، فجددها معاوية بأن هدم المتداعي منها ، وبنها بالطوب أولاً ، ثم ما لبث أن أعاد بناءها من الحجارة . وزين هذا القصر بالذهب والمرمر ، وحجراته بالفسساء ، وأحاطه بالحدائق الفناء^(٢) . وقد أشاد بهذه الأوصاف أحد الرحالة المسيحيين الذي وفد من غرب أوروبا في زيارة للشرق بعد انتشار الإسلام في مصر والشام ثلاثين سنة . إذ زار هذا الرحالة المدعو « أركولف » إقليم الشام في خلافة معاوية وأشار إلى احتفاظ دمشق بمظاهر نشاطها السابق قبل دخولها في حظيرة الإسلام^(٣) .

ولم تلبث دمشق بعد عهد معاوية أن شهدت حركة واسعة في البناء والتعمير ، وغدت مدينة إسلامية مخصصة . وكانت دلائل هذا العهد الجديد ببناء المسجد

(١) Encyc. of Islam (art. Damascus)

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٣ : Encyc. of Islam (art. Damascus) :
Sayed Ameer Ali, A short History of the Saracens 159

(٣) غير عن ذلك أركولف قائلاً :

« in que (Sc. Civitate) Saracenorum rex adeptus eius principatum regnat, et ibidem in honorem Sancti Johannis baptistae quondam fundata ecclesia incredulorum: et ipsa in eadem civitate, quam ipsi frequentant, fabricata est. »

الأموي ، إذ استولى الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥ م على كنيسة دمشق المعروفة
بكنيسة القديس يوحنا ، وأقام عليها المسجد المسمى بالجامع الأموي . وأدخل
الوليد من التعديلات الكثيرة على مظاهر الكنيسة القديمة بما جعلها تأخذ صبغة
مسجد إسلامي رائع ، وجعل له مآذن جميلة كان أهمها المئذنة الشمالية . وكانت
هذه المئذنة تستخدم منارة لكشف أي حركة هجوم قد يشنها عدو على المدينة ،
وأصبحت غوغاءاً يحتمل في سائر المباني التي شيدت فيما بعد في سائر أنحاء
دمشق والشام . وبذل الوليد جهداً عظيماً في هذا المسجد ، الذي أصبح رمزاً
لعظمة المسلمين في الشام ، وشاهداً ينطق بقوة دولتهم أمام الزائرين من الأقطار
المتنوعة . فيروي أن الوليد قضى في بنائه تسع سنين ، وأنفق عليه خراج مملكته
سبع سنين ، حتى أصبح يضم من الروائع ما جعل الإنسان لا لو عاش مائة سنة
وكان يتأمله كل يوم ، لرأى في كل يوم ما لم يره في سائر الأيام من حسن صنائه
واختلافها ^(١) .

وكان أهم مظهر اشتهرت به دمشق على عهد الأمويين إلى جانب مسجدها
الجامع هو نظام مياه الشرب ، وتحقيقه أسباب الرفاهية والراحة لجميع سكانها .
فقد بذل الأمويون جهداً كبيراً في تنظيم مياه نهر بردى الذي تعتمد عليه المدينة
وغواتها . ووصف ياقوت هذا النهر واعتماده على الينابيع وانسيابه إلى دمشق
وحدائقها قائلاً : « بردى أعظم نهر دمشق ، يخرج من قرية على خمسة
فراسخ من دمشق مما يلي بعلبك ، يظهر الماء من عيون هناك ، ثم يصب إلى
قرية على فرسخين من دمشق ، وتنضم إليه عين أخرى فإذا صار ماء
بردى إلى قرية يقال لها دُمر افترق على ثلاثة أقسام وتخرج هذه الأنهر
الثلاثة بالوادي ثم بالغوطة حتى يمر بردى بمدينة دمشق في ظاهرها ^(٢) » .

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

استغل الأمويون مياه بردى في إمداد البيوت الكبيرة والصغيرة على السواء بما تحتاجه منها ، فزودوها بأسواق خاصة تنبثق منها المياه ، على حين حفروا سبع جداول رئيسية تناسب في أنحاء المدينة لضمان إمداد المنازل بالمياه من مجرى النهر الرئيسي . وتولى الخلفاء الأمويون العناية بمجاري بردى الرئيسة ، ورعايتها خالفاً عن سالف . فشق يزيد بن معاوية النهر الذي عرف باسمه ، وكان هذا النهر في الأصل مجرى صغير به قليل من المياه تروى ضيعتين في منطقة النعومة . وفي خلافة معاوية آتت ملكية هاتين الضيعتين إلى الخلافة وإدارتها . فذاول يزيد وجد أن الأرض التي تحيط بهاتين الضيعتين واسعة وتفتقر إلى الماء لإصلاحها واستثمارها . فأمر بتوسيع النهر الصغير الذي كان يروى الضيعتين وأصبح نهراً كبيراً عرف باسمه تحليداً لأهميته بمياه دمشق وتنظيمها^(١) .

وبذل الخلفاء الأمويون جهوداً كبيرة في دراسة مياه بردى وتنظيمها بما يكفل للجميع الراحة والمنا . ففي خلافة سليمان بن عبد الملك قُلت المياه في نهر بردى ، وشكا الناس إلى الخليفة الحال التي أصبحت عليها النهر . فعهد سليمان إلى مهندس من رجاله بدراسة جهات يمكن أن يوجد بها عيون ماء جديدة تسكفل لحسين مستوى مياه بردى . وتمت الدراسات على عهد الخليفة هشام ، واستفاد من العيون الجديدة بحفر قنوات أخرى إلى سائر الضياع التي شكت من قلة المياه ؛ ثم نظم بعد ذلك توزيع المياه بالتناوب على ميهرات دمشق ، وزود كل منها بما تحتاجه من المياه . وغدت هذه الأنهار بما يفتنح به الداني والقاصي « وينقسم منها الماء إلى الأرضين في الجداول » . ويدخل من بعدها إلى البلد في القنى ، فينتفع به الناس الانتفاع العام على الوجه الحسن ، ويتفرق إلى البرك والحمامات ويمر في الشوارع والسقايات^(٢) .

(١) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

وهكذا خالق الأمويون من دمشق عاصمة زاهرة جديدة بأن تصبح المدينة الأولى في العالم الإسلامي ، وتضم أسباب ازدهارها ورفع شأنهم في العالم المجاور لهم . وكانت هذه الفترة الزمنية التي نالتها دمشق على عهد الأمويين مشار تنافس بينها وبين مدينة القسطنطينية ، إذ عزز على هذه المدينة الأخيرة التي كانت منذ زمن غير قصير سيده دمشق أن تروى تاريخها تبذلها سلطانا ومهنا ، وشب بين المدينتين صراع استطاعت فيه دمشق أن تلقى القسطنطينية درسا ، خلاصته أن الدين الإسلامي جعل من الشرق وحدة متماسكة تشد بعضها بعضا ، وأنها أصبحت بفضل خلفاء بني أمية رمز هذه الوحدة الجديدة ، ومطرفة تسكيك لها أشد الضربات في سبيل إغراز دولة الإسلام الناشئة والدفع عنها .

نشأة القسطنطينية

في الفترة التي خرجت فيها هجرة الأنباط من بلاد العرب ، وأخذت تصبح إقليم الشام وحاضرتهم دمشق بأولى ألوان الطابع العربي وهيأتها لتبوء مركز الصدارة فيما بعد على العالم الإسلامي زمن الأمويين ، كانت هناك هجرة بشرية مماثلة قد سبقته هجرة الأنباط بقليل ، خرجت من بلاد اليونان واستعمرت شواطئ آسيا الصغرى الغربية والشمالية ، وتمخضت عن ميلاد مدينة عرفت فيما بعد باسم القسطنطينية ، منافسة دمشق أيام بني أمية . وكان أنشط جماعات اليونان في هذه الهجرة هم سكان مدينة ميجارا ، إذ انصفوا بالمهارة والمقدرة الحسنة في اختيار أصالح الأماكن التي يشيدون عليها نضرح مستعمراتهم ومدنهم الجديدة . فأسس بعض أولئك السكان مدينة خلقدونيا على الشاطئ . الأسيوى قبالة مضيق البسفور ، حيث يتمتع هذا المكان بمميزات جغرافية هامة ^(١) .

(١) Runciman, Byzantine Civilisation, 11.

على أن فريقاً آخر من سكان ميغاريا أيضاً أقرانه جميعاً في انتقال المواضع التي تشيد عليها المستعمرات ، إذا انتقل إلى الشاطئ الآخر الأوربي المطل على البسفور قبالة مدينة خلقيدونيا ، وأسس لنفسه في هذا المكان الجديد مدينة عرفت باسم بيزنطة (Byzantium) . وحببت الطبيعة هذا المكان بتميزات جالبة لجماعته يتحكم في مفرق طرق هامة . ذلك أن مساحتين كبيرتين من الماء وهما البحر الأسود وبحر إيجه يفصلان قارة أوروبا عن جنوب غربى آسيا . والسكن يعتقد بين البحرين إقليم ترافيا قبالة آسيا الصغرى ، ويقرب الشاطئان الآسيوى والأوربي حتى لا يفصلهما عن بعضهما البعض سوى مجرى ضيقان فقط ، هما البسفور والدردنيل وبحر مرمرة الممتد بينهما^(١) .

وبعد مضيق البسفور الذى أسست عليه مدينة بيزنطة أسهل الممرات التي يمكن عبورها بين آسيا وأوروبا . إذ أن المسافر عبر هذا المضيق يتجنب تسلق جبال آسيا الصغرى ، على حين يجد طريقه إلى أوروبا بعد اجتياز المضيق سهلاً يسوراً عن طريق جبال ترافيا . ولذا أصبح المسافرين والتجار بين أوروبا وآسيا يرون بمدينة بيزنطة ، على حين سير بالقرب من شواطئها السفن التي تبحر بين البحر الأسود وبحر إيجه متجهة إلى البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن البسفور يقع في ممر طريقين هامين من طرق التجارة الكبرى بين أوروبا وآسيا ، وبشكل المدن التي تقام عليه سيطرة تجارية فضلاً عن الموقع الممتاز^(٢) .

وإذا كانت بيزنطة تشترك مع خلقيدونيا في أن كلا منهما يطل على البسفور ، إلا أن الأولى بذت الأخرى بسبب تمتع الشاطئ الأوربي بتميزات يفتقر إليها الشاطئ الآسيوى . إذ قبل اتصال مياه البسفور وبحر مرمرة يمتد داخل الشاطئ الأوربي خليج عظيم طوله سبعة أميال في انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله

(1) Runciman, op cit, 11 :

Bury, History of the later Roman Empire (1911) , 97.

(2) Runciman, op cit, 11, 12.



يعرف في التاريخ بالقرن الذهبي . وأصبح محصوراً بين القرن الذهبي وبحر مرمرة
 رأس أرضية ثلاثية على شكل مثلث متساوي الضلعين تقريباً ، رأسه تقابل
 الشاطئ الآسيوي^(١) . فسكانت أي مدينة نظام على هذا الرأس تنعم بمياه
 حلبي يهيئ لها مرفأً آمناً هادئاً ، فضلاً عن الحصانة من ناحية البحر ، لأن
 المياه تحيط بها تقريباً من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية ، وقبضت
 بيزنطة على ناضية هذه المميزات المهمة وحدها .

على أن مناخ مدينة بيزنطة شاب مميزاتها الجغرافية وانحصر منها . إذ يهب
 على المنطقة التي تقع فيها المدينة رياح باردة في فصل الشتاء ومطالع الربيع تأتي
 من الاستبس الآسيوي وتعب البحر الأسود . وكان المستعمرون الأغريق يشعرون
 من زهمير هذه الرياح ، ولا سيما أنهم اعتادوا الحياة في وديان بلاد اليونان
 التي تقيهم شر هذه الرياح . ولم يقتصر سوء المناخ على ذلك ، إذ أن الصيف
 في هذه المنطقة حار جداً ، مما يجعل الإقامة فيها أمراً غير محبوب . وامتدت
 آثار هذه الرياح السيئة إلى الملاحة في مياه هذه المدينة ؛ إذ أن هذه الرياح
 الشمالية تعرقل سير السفن في نوار البسفور المتجه جنوباً وتعوقها عن السير حول
 رأس مدينة بيزنطة والوصول إلى القرن الذهبي . فالرياح تسير في نفس اتجاه
 التيار المائي وتزيد من صعوبة الملاحة فيه^(٢) .

وظل هذا المناخ من أهم العوامل التي أخرجت مدينة بيزنطة عن النمو والازدهار
 مدى ألف سنة بعد تأسيسها . ولكن سرعان ما ظهرت أهميتها وما غنمت به من
 موقع فريد حين بدأ الصراع بين قوى الشرق والغرب على السيادة والسيطرة .
 فاهتمت أئمة المدينة بيزنطة إبان الحروب البلطوبيزية^(٣) لأنها المدخل المؤدي إلى

(١) Bury, op cit, 7: 8; Kunciman, op cit, 12

(٢) Kunciman, op cit, 12; Bury, op cit, 7: 8.

(٣) انتهت الحروب التي عرفت باسم البلطوبيزية بين البيزنطية وخطفائها من المدن اليونانية
 وبين امبراطورية أثينا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد .

شواطئ البحر الأسود الشمالية ، حيث تحصل على ما تحتاجه هناك من غذاء من حقول القمح الغنية . واعتبرها فيليب المقدوني وابنه الاسكندر الأكبر البوابة الرئيسة التي تؤدي إلى آسيا ^(١) . ثم جاء أباطرة الرومان أخيراً وأدركوا أهمية هذه المدينة التجارية في حلقة الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، فأقاموا فيها حنذاً نظامياً من الرومان لمساعدة الجند المحلي على حفظ الأمن بها وتنظيم أحوالها ^(٢) . وأخذت مدينة بيزنطة منذ عهد الرومان تتأرجح علواً وخفواً ، إذ سرعان ما ثارت على السلطات الرومانية مما حدا بأباطرة الرومان على منع أهالي المدينة من تسليح أنفسهم أو بناء حصون لهم . وظلت المدينة على هذا النحو من الحياة المستكنة حتى عهد الامبراطور دقلديانوس . فقد ظهر إذ ذاك جماعة من القوط ^(٣) أقاموا على شواطئ البحر الأسود الشمالية ، واحرقوا القرصنة وأخذوا يتوغلون بسفهم حتى بحر إيجة عبر البسفور لقيام بأعمال النهب والسلب . فاضطر الامبراطور دقلديانوس إلى إعادة تسليح المدينة وتقوية أسوارها وحصونها لتقف سداً مانعاً في وجه القراصنة القوط ^(٤) .

ولم تلبث مدينة بيزنطة أن دخلت في دور جديد من أدوار حياتها حين بدأ النزاع على العرش الروماني بين الامبراطور قسطنطين الكبير ومتنافسه ليكيينيوس . إذ اتخذ الأخير مدينة بيزنطة مقراً لإدارة دفة عملياته الحربية وحصناً يحتمي به من متنافسه القوي . ولسكن تحطمت آمال ليكيينيوس في النصر حين حطم قسطنطين أسطولاً في البسفور وأنهىه بأيقاع هزيمة بحرية . وسيطر قسطنطين على المدينة وأصبح السيد المطلق في الدولة الرومانية . ولكنه لم يفض الطرف

Runciman, op cit, 42. (١)

Charlesworth, Trade Routes, 118, 119. (٢)

(٣) القوط جماعات جرمانية ظهرت من حدود الامبراطورية الرومانية الكبرى ، وأخذت تعمر على أراضيها لتعمر نفسها العيش بها والنهب أحياناً .

Runciman, op cit, 43. (٤)

عن هذا الموقع الممتاز الذي كشفه في مدينة بيزنطة خلال حروبه السالفة ، وبدأ يستغلها بما فيه الصالح العام لإمبراطوريته^(١) .

وكانت الإمبراطورية الرومانية قد أحسّت منذ عهد دقلديانوس ضرورة تعديل نظمها الإدارية لمواجهة الأخطار الملحة التي حاطت بها على حدودها الشرقية . فكانت حدودها مهددة بعناصر جديدة من القبائل الجرمانية التي أخذت تنال على أراضي الدولة في الشرق تبغى العيش والاستقرار فيها ؛ فضلا عن أخطار دولة الفرس العدو اللزمن لها . واضطر الأباطرة الرومان إلى البحث عن مكان يقيمون به بالقرب من الحدود الشرقية لدفع هذا الخطر . وأحسوا أن عاصمتهم روما لم تعد صالحة لأن تكون مركز إمبراطوريتهم العتيقة . فأقام الإمبراطور دقلديانوس في مدينة نيوميديا خاصة ليستطيع مراقبة الأحداث على الجبهة الشرقية .

ولما جاء الإمبراطور قسطنطين سار على نهج دقلديانوس في ضرورة البحث عن مقر في الشرق يتخذ عاصمة جديدة للدولة الرومانية بعد ما حاط بها من أخطار جسيمة . وتعلقت أفكاره ببعض مدن آسيا الصغرى وتقبل بينها ليدرس أحوالها . ولكن حين نشب الصراع بينه وبين إيسكينيوس ، ورأى أن منافسه قد اتخذ من مدينة بيزنطة مقعلا يحتص به فتفتحت عيناه واسعة عن أهمية هذه المدينة ، وزاد إدراكه لأهميتها بعد أن تم له الفوز ، ووقف على مميزاتها الطبيعية البرية والبحرية . وسرعان ما زال عنه التردد في اختيار مقر جديد لحكمه ، وانتقى بيزنطة لينقل إليها عرش إمبراطوريته .

وفي نوفمبر سنة ٣٢٤ م أرسل الإمبراطور قسطنطين المهندسين والمخططين إلى مدينة بيزنطة وضواحيها للبدء في تعميرها وبناءها ، بما يجعلها جديرة بتولى إدارة شؤون الإمبراطورية الرومانية ومقر الجالس على عرشها . وتمت عمليات البناء

(1) Runciman, op cit. 13.

والتعبير بعد خمس سنوات ونصف سنة ، واحتفل الامبراطور بانتقال ملكه إلى العاصمة الجديدة في ١١ مايو سنة ٣٣٠ م . وأطلق قسطنطين على هذه المدينة اسم روما الجديدة تشبها بروما القديمة ، ولكن رعاياه أخوا إلا أن يسموها القسطنطينية نسبة إليه واعترافاً بفضل ، شأن أي عمل جليل يقرن دائماً باسم صاحبه ^(١) .

وهكذا ارتفعت مدينة بيزنطة ، المستعمرة الإغريقية ، إلى مصاف المدن الكبرى العالمية ، واستطاعت أن تظل محتفظة بمكانتها السامية التي انتهت إلى أمد طويل . ذلك أن العناصر الجرمانية المهاجرة لأطراف الإمبراطورية الرومانية استطاعت أن تستولى على الأراضي الرومانية في غرب أوروبا وأسست نفسها هناك دولاً ، ولكنها لم تستطع القيام بأشياء ذلك في الأراضي الرومانية في الشرق بفضل بقية القسطنطينية وأباطرتها . وهذا هذا المظهر الجديد إلى تسمية التراث الباقي من الإمبراطورية الرومانية باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الإمبراطورية البيزنطية نسبة إلى الاسم القديم لحاضرة الإمبراطورية ، ودلالة على العهد الجديد الذي أخذ يظل بلاد القسم الشرقي من الإمبراطورية العتيدة .

القسطنطينية البيزنطية :

لم يكن ارتفاع مدينة بيزنطة إلى مصاف العواصم الكبرى أسراً أفقدها طابعها القديم أو أكسبها سمعة جديدة . إذ ظلت هذه المدينة محتفظة بطابعها الإغريقي دون أن تؤثر عليها اللاتينية السائدة في روما العاصمة القديمة . فاضطر الأباطرة الذين أقاموا بها أن يعرفوا اللسان اليوناني حيث عاشوا في وسط جديد يتحدث بهذه اللغة ، ويحرص على الاحتفاظ بقراءة النفاذ الإغريقي . كذلك جدد أولئك الأباطرة الذين أقاموا في العاصمة الجديدة على الإفادة من سمات مدينتهم الطبيعية واستغلالاتها لما فيه صالح الدفاع عنها . ومن ثم أضحت هذه المدينة

(1) Runciman, op cit, 14.

رسم توالى العصور نابتة الدعائم ، حرية أن تجمع بين اسمها القديم مخلود مظاهرها القديمة وبين اسمها الجديد لمساكنها الجديدة في الامبراطورية الرومانية الشرقية. ورسم الامبراطور قسطنطين خلفائه من بعده السياسة التي يسرون عليها للتفاوض بأمر عاصمة ملكهم الجديدة ، وتوجيهها لمهمة الدفاع عن كيانات الامبراطوريتهم . ونجحت سياسته لأنها قامت على القواعد الرئيسية الكبرى التي حرص القدامى على اتباعها لإعلاء شأن مدنتهم والحفاظ علىها . فخص الامبراطور قسطنطين عاصمته بأن بنى لها حائطاً في الجهة الغربية يمتد من البسفور إلى القرن الذهبي ، بحيث أصبح هذا الحائط قاعدة المثلث الذي قامت عليه بيزنطة . واسكن المدينة لم تلبث أن انسمت بسبب كثرة سكانها ، مما اقتضى إحداث تجديدات وتغييرات جوهرية في وضع الحائط وبناءه . فكان الحائط ينقل تدريجياً إلى المنطقة الخلفية بحيث يضم البقاع الجديدة التي تعمّر بسكان العاصمة^(١) . وكان يدفع الأباطرة على تجديد هذا الحائط أيضاً باستمرار الزلازل التي تكرّر حدوثها في منطقة القسطنطينية وتحيطها بعض تحصيناته . وكان أهم هذه الحرات الأرضية الزلزال الذي حدث سنة ٤٤٧ م وإصابته الحائط بأضرار جسيمة . فافتضى ذلك تجديد بناء أسوار المدينة وحائطها ، وظلت على هذا الطابع الأخير دون تغييرات جوهرية^(٢) حتى وقفت أمامها جيوش المسلمين . ويعتبر هذا الحائط جزءاً لا يتجزأ من المدينة ومن نظام تخطيطها ، كما أنه كان أول نقطة في سياسة الامبراطورية العامة في تنسيق وسائل الدفاع عن أراضيها ، حتى أصبحت شئون هذا الحائط المقياس الذي يتحكم في طول أعمار الحكومات البيزنطية وقصرها . وانقسم هذا الحائط إلى عدة مناطق اسكن منها تحصيناتها الخاصة . فكان يشمل جداراً داخلياً يعيط بمبنى المدينة ويسكون خط الدفاع الرئيسي عنها .

(1) Bury, op. cit., 68.

(2) Ibid., 70.

ولذا بلغ سمك هذا الجدار ١٤ قدماً ، عليه أربعة وأسمون برجاً شديدة الارتفاع ،
ويبعد كل واحد عن الآخر بمسافة قدرها حوالي ٥٠ متراً . وكانت هذه الأبراج
مقر حراس يراطلون فيها بصفة دائمة ، وعلى أكمة الاستعداد لرد أي عدوان يقع
على المدينة . إذ يشمل البرج على دهليز ينحوى أحدها الذخيرة والعتاد الضروري
والآخر يقيم به الجنود . ثم يحيط بهذا الجدار الداخلي سور خارجي يفصل بينهما
مسافة سميتها بتفاوت بين خمسين إلى أربعة وستين قدماً^(١) .

والسور الخارجي أقل سمكاً من الجدار الداخلي ، إذ يتفاوت سمكه بين قدمين
وست أقدام ونصف قدم . وله تقريباً نفس أبراج الجدار الداخلي ، إذ تبلغ ستة
وأسمون برجاً يتفاوت ارتفاع كل منها بين ثلاثين وخمسة وثلاثين قدماً . وأحاط
بهذا السور جسر من الأرض عرضه ٦١ قدماً ، ثم يدور حول هذا الجسر خندق
عرضه كذلك ٦١ قدماً ، ولكن عمقه يتفاوت من مكان إلى آخر . وهذه
الأسوار البرية أمنت حلقة تحصين القسطنطينية ، التي تولى البحر حماية جهاتها
الثلاثة الأخرى^(٢) . ويتضح من استعراض هذه الأسوار وتحصيناتها مدى
مبادئته السلطات البيزنطية من نفقات في سبيل صيانتها والاحتفاظ بها معدة دائماً
لدفع الأخطار عن المدينة .

وكانت تمتاز هذه الأسوار وتحصيناتها من عشرة أبواب رئيسية ، خمسة منها
خصصت للأغراض الحربية وانتقال الجيوش عبرها ، والأخرى اقتضرت على
استعمال المدنيين وشؤونهم . ورببت هذه الأبواب بحيث يكون هناك باب حربي
وعلى بعد منه باب مدني ثم باب حربي ، وهكذا حتى يتم وضع الأبواب الحربية
والمدنية بالتبادل عبر الأسوار . وكانت أعظم هذه الأبواب وأهمها « باب الذهب »
الذي شيده الإمبراطور ثاوداسيوس العظيم (٣٧٩ — ٣٩٥ م) تخليداً لذكري

(1) Bury, op. cit., 70, 71.

(2) Ibid., 71.

انتصاره في القضاء على ثورة غالية أعلنها أحد أعدائه ومذافسيه . واشتمل هذا الباب على ثلاث فتحات أشبه بأبواب دمشق الرئيسية ، منها فتحة كبرى في الوسط وعلى جانبيها الفتحتان الأخريتان . وكان هذا الباب أقرب أبواب المدينة لبحر مرمرة وبنوه سائر الأبواب الأخرى التي تضمها الأسوار^(١) .

أما الأبواب الأربعة الأخرى الرئيسية الحربية ، فكانت تحمل أسماء « باب ميلانتياش Melantias » و « باب ريجيون Rhegion » و « باب القديس رومانوس St. Romannus » و « باب خاريسيموس Charisius » . وكان الجزء من السور الممتد من باب القديس رومانوس إلى باب خاريسيموس يعرف بالمناطق الأوسط ، واستهدف دائما لهجمات الأعداء على المدينة ، حيث اعتبروه أصابع بقعة للهجوم على قلب المدينة . على أن هذه الأبواب قدمت سور المدينة إلى ست مناطق حربية للدفاع عنها ، قام بحراسة كل جزء منها فيلق من فيالق الجيش ، يتعاونون فيما بينهم بما يحقق للمدينة السلامة والطمأنينة^(٢) .

وإلى جانب هذا السور البري العظيم أنشأ الأباطرة جدراناً للدفاع عن المدينة من ناحية البحر . وكانت تحيط بجميع الجهات البحرية ، وتعتمد على القلاع والحصون أكثر من اعتمادها على سلك الجدار وضخامته . فكان على امتداد القرن الذهبي وبحر مرمرة أسوار بحرية تتصل بخط الدفاع البري الذي تم إنشاؤه في القرن الخامس الميلادي . وأصبحت المدينة الجديدة التي أسسها الإمبراطور قسطنطين ثامنة الحصون ومستكملة لوسائل الدفاع عنها على عهد خلفائه^(٣) . وكان الدافع على هذا النشاط الحربي الذي بذله الأباطرة لإعداد القسطنطينية رغبتهم في جعل عاصمتهم تبرز روما العاصمة القديمة في المنعة والقوة ، وتشجيع الناس

(1) Bury, op cit 71.

(2) Ibid, 71 , 72.

(3) Ibid, 72.

على الانتقال إليها بحمل وسائل الطعامينة مكفولة لهم . وقد وقعت هذه الأسوار
سداً مريعاً حتى بطش بها المسلمون على عهد الأمويين ثلاث مرات كبرى .

وقامت إلى خارج أسوار القسطنطينية خلف القرن الذهبي ضاحيتان هامتان
من ضواحي المدينة ، أشبه باقليم القوطة الواقع خارج أسوار دمشق . وكانت هذه
الضواحي مهمة في حياة القسطنطينية لأنها تطل على القرن الذهبي أعظم موانئ
العاصمة . ولذا حرصت السلطات البيزنطية على إيجاد حلقة اتصال بينها وبين هذه
الضواحي ، فأعدت سقفاً منظمه تعبر الخليج جيئة وذهاباً ، فضلاً عن إنشاء جسر
خشبي عليه ، ولكن لم يلبث أن أعيد بناء هذا الجسر من الحجر ^(١) . وكانت
هذه الضواحي قبلة أنظار مهاجمي القسطنطينية ، يعملون على الاستيلاء عليها كمرحلة
حركات الأساطيل في القرن الذهبي ، فضلاً عن قطع الأمداد التي تأتي إلى العاصمة
من هذه الناحية .

واهتمت السلطات في العاصمة بالموانئ التي ترسو بها الأساطيل المدافعة عنها .
فإلى جانب القرن الذهبي كان المدينة موانئ أخرى صغيرة تطل على البسفور ، منها
ميناء اليوتريوس (El eutherius) الذي عرف فيما بعد باسم ميناء تاوداسيوس ،
وكذلك ميناء أياصوفيا . ولعبت هذه الموانئ رغم صغرها دوراً هاماً في تسهيل
الملاحة في مياه القسطنطينية . إذ كانت تجد السفن فيها أما كن هادئة تأوي إليها
عند اشتداد التيار المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة وهبوب الرياح الشمالية
العاصفة . فقد ترتب على هذا التيار والرياح معاً عرقلة سير السفن التي تنفي
الطواف حول رأس مدينة القسطنطينية ودخول القرن الذهبي ، فاصدة ميناءاً
في هذا الخليج يدعى « بروسفوريانوس » (Portus prosphorianus) ، تأتي
عنده مراسيها ^(٢) .

(1) Bury, op cit, 72.

(2) Ibid, 71, 72.

وكان الميناء الأخير في القرن الذهبي محصناً بسلسلة موضوعة في مدخل الخليج تمنع السفن التي لا يرغب فيها من الدخول ، شأن الموانئ الهامة في المصور الوسطى . وبذلك استطاعت القسطنطينية أن تنظم حركة الملاحة في مياهها المحلية لعمقها التجارية وأساطيلها الحربية ، وفي نفس الوقت جهدت في منع الأعداء من الاستيلاء على هذه الموانئ الصغيرة أو الاستفادة منها في حصار المدينة ، ولا سيما في الاقتراب من الميناء الأخير في خليج القرن الذهبي . إذ كان هذا الميناء يقع بالقرب من « باب الذهب » في الركن الجنوبي الغربي للمدينة ، ويعتبر مفتاح الطريق الذي تدخل منه الأمداد الحربية وغيرها إلى القسطنطينية . وظل هذا الميناء صعب المنال على القوى المهاجمة للعاصمة بسبب صعوبة التيارات المائية التي تدفع السفن الآتية من بحر مرمرة ، وإن كان كثيراً ما نال هجمات مفاجئة من السفن التي تأتي من البحر الأسود . ومن ثم اهتمت السلطات في العاصمة بتقوية باب الذهب المشرف على هذا الميناء حتى أصبح أهم الأبواب الحربية في المدينة^(١).

وكانت جهات القسطنطينية المعالدة على القرن الذهبي تشمل أهم مرافق العاصمة . ففي الركن الشرقي للمدينة الذي يحده القرن الذهبي والبسفور يوجد قصور الأباطرة والملعب (الهيدروم) وكنيسة أياصوفيا^(٢) . ويصل بين هذه الجهات الهامة طريق رئيسي يعرف بالشارع الأوسط (Mese) أشبه « بالطريق المستقيم بدمشق » . وكان هذا الطريق طويلاً ، على جانبيه أعمدة تعطي المدينة طابعاً شرقياً^(٣) . ويمتد هذا الشارع من باب الذهب الذي اعتاد كبار الزائرين الذين يقدون إلى العاصمة الدخول منه . ويؤدي الطريق إلى نصب من الحجر يتخذ

(1) Bury, History of the Later Roman Empire, 52, 53.

(2) Bury, op. cit., 52, 53.

(3) Ibid, 53.

نقطة مركزية تقاس منها الأبعاد (Milestone) . ولم يكن هذا النصب مجرد عمود حجري ، وإنما هو عبارة عن مبنى مستوف مفتوح من الجوانب ، ويحمل السقف على سبعة أعمدة ، بينها تماثيل للإمبراطور قسطنطين الكبير مؤسس المدينة ، وأمة القديسة هيلانة وغيرها من التماثيل التي تمثل الشخصيات الكبرى للإمبراطورية . وكان الأباطرة يتخذون من هذا البناء نقطة تتجمع عندها الوفود عند القيام بالمواكب الرسمية^(١) .

وكان العابر لهذا الطريق يرى بعد أن يجتاز هذا النصب الحجري قبة كنيسة أياصوفيا المائلة ، التي بناها الإمبراطور جستنيان . وعندما يتجه الزائر لدخول هذه الكنيسة من الباب الغربي يجد على يمينه الماعب (الهيدروم) ، مقر لواءه إلى العاصمة وندوة اجتماعاتهم . وإذا ما انتهى الزائر من مشاهداته للكنيسة وخرج من بابها الجنوبي رأى أمامه القصر الأمبراطوري الذي تدار منه دفة شئون الإمبراطورية^(٢) .

واهتم الأباطرة البيزنطيون بتمهئة أسباب الرفاهية لسكان عاصمتهم . وكان موضع رعايتهم جميعاً تزويد المدينة بالمياه ولا سيما أنها عرضة للحصار من شتى الأرجاء . واتبع الأباطرة البيزنطيون نهج أسلافهم الأباطرة الرومان في جعل سياسة تزويد المدن بالمياه من مهام الدولة الرئيسية . فالمعروف أن أولئك الأباطرة أجادوا فن بناء خزانات المياه والقناطر في عاصمتهم روما ، وفي غيرها من المدن الكبرى في الولايات التي دخلت في حظيرتهم . ووجد البيزنطيون مهمة الحصول على المياه سهلة ميسورة من الينابيع التي تفوض بها التلال الشمالية في المدينة . وأعدوا خزانات مغطاة ومكشوفة كذلك في سائر أنحاء المدينة لتزويدها بالمياه .

(1) Bury, op cit, 54.

(4) Ibid, 54.

وإلى جانب ذلك كان هناك نهر اسمه ليسكوس (Lycus) يجري بمرض المدينة ويصب في بحر مرمرة^(١).

وكان المسلمون يعملون جاهدين على دراسة الموقع الاستراتيجي لمدينة القسطنطينية وما بها من حصون ومرافق لتدميرها في حصارهم. وكان الأمويون واضعي الأسس الرئيسية في سياسة المسلمين الخاصة بالوقوف على مظاهر الضعف والقوة عند أعدائهم البيزنطيين للاستفادة منها. ونتج عن هذه السياسة وحملات الأمويين المتكررة على القسطنطينية أن عرف المسلمون فيما بعد جميع أحوال هذه المدينة، وحصلوا على وصف تام لأسوارها وحصونها. وخلفت لنا المراجع الإسلامية صورة عن أوصاف هذه المدينة تجلت فيها الدقة وتحري الصدق.

وجاء في تقارير المسلمين عن القسطنطينية ما يأتي: «وما وجدناه من صفة مدينة الرومية (وهي القسطنطينية) ثلاث نواح، منها في البحر العظيم مما يلي القبلة والمشرق والمغرب، والناحية الرابعة مما يلي البر...، يعني الشمال. وطولها من الباب الغربي إلى الشرقي ثمانية وعشرون ميلاً، ولها حائطان من حجارة، وبينهما فضاء حنون ذراعاً. وعرض السور الخارج ثمان أذرع وممسكة اثنتان وأربعون ذراعاً، وفيها بين السورين نهر يسمى قسطنطاليس...» وهناك تقيير من المغرب إلى المشرق) يجري فيه لسان من البحر، وتجرى السفن في هذا التقيير بحمولتها. «واقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بلقر (بلاد البلغار)، ويجري إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوماً، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث، فثلث يذهب إلى دار الملك، وثلث يذهب إلى حبوس المسلمين، والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة، وسائر أهل المدينة فأهم يشربون الماء الذي بين العذب والملح»^(٢).

(١) Bury, History of the Later Roman Empire (1921), 73.

(٢) الندوى، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية، اظهر ملحق ١ من ص

وهكذا كان العصر الأموي أهم حقبة في تاريخ الإسلام والمسلمين ، عالت فيه راية الجيوش الإسلامية المظفرة في أراضي الدولة البيزنطية ، وغادت عملة بأثمن المعلومات التي تفيد سياسة دولتهم العامة . واضطلعت دمشق في هذا الدور برسم الخطوط الكبرى لهذه السياسة التي جعلت هدفها الأول إذلال عاصمة البيزنطيين ، وقطع خط الرجعة على أي تفكير قديصور بخلد أولى الأمر فيها على مناوأة المسلمين والعمل على استرداد الأراضي التي استولوا عليها واستظلت براية الإسلام . فأصبحت دمشق طوال عصر الأمويين الزاهر مركزاً لعمليات حربية كبرى اتجهت الواحدة تلو الأخرى نحو القسطنطينية ، تلقى الحصار على أسوارها وتديق أهلها صنوف المتاعب والصنك .

وآتت سياسة دمشق الحربية أكلها طوال العهد الأموي ، إذ ظلت الأراضي الإسلامية ، ولاسيما مناطق التخوم بها بعيدة المثال عن أيدي البيزنطيين . وتمر المسلمون بالحدود والطمانية في بلادهم ، وغدت دمشق نفسها عنوان هذه المنعة والعزة والسؤدد ، فضلاً عن الحدود والاستقرار . فلم تستطع جيوش البيزنطيين أن تطرق أبواب هذه العاصمة الفتية ، وظلت مبعثرة في أنحاء آسيا الصغرى تعمل على عرقلة زحف المسلمين المظفر دون جدوى . إذ عهد الخلفاء الأمويون بقيادة جيوشهم إلى كبار رجال دولتهم ، وجعلوا أبناءهم في صفوف الجند الإسلامي المحارب ليبنالوا شرف الجهاد في سبيل الله وإعزاز دينه . وكان ميدان القسطنطينية وحده هو الذي اختص بمشاهدة أعظم جالات الأمويين وأبناء خلفائهم وأخواتهم كذلك ، يحاربون في صفوف المسلمين للحد من شوكة القسطنطينية ، رمز عناد البيزنطيين في التمسك بأحلامهم القديمة في إعادة دولتهم إلى سالف هيئتها ومجدها .

معاوية والقسطنطينية

فنى العرب وحصار القسطنطينية

بعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ، وحاصر خليفة العالم الإسلامى
الذى غدت حاضرنه دمشق ، بدأ يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته
والامبراطورية البيزنطية . فمذ وقعة « ذات الصواري » واستقرار أقدام المسلمين
في الشام ومصر داخل النزاع بين المسلمين والبيزنطيين في مرحلة جديدة ، فقد
تخلت الامبراطورية البيزنطية بعد هزيمتها في وقعة ذات الصواري عن مشاريعها
القديمة في استعادة مصر والشام ، وأصبح الموقف الجديد يحتم عليها تعديل سياستها
باعتلائهم مع ظهور المسلمين كقوة عظمى على شواطئ البحر الأبيض المتوسط
الشرقي . ومن ثم كانت مسألة السيادة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي هي شغل
معاوية الشاغل ، ونهج الزاوية في سياسته إزاء القسطنطينية التي جهدت على منع
المسلمين من التوسع البحري .

أدرك معاوية بواقب نظره أن القسطنطينية عصب جزر البحر الأبيض المتوسط
الشرقي ، تغذيها بالقوات والأمداد ، وتشجع أهلها على شن الإغارات على سواحل
المسلمين . وقوى هذا الاتجاه عند معاوية حملاته على قبرص ، ومنعها من أن تصبح
قاعدة للبيزنطيين في شرق البحر الأبيض المتوسط . وبعد إدراك معاوية لقوة
القسطنطينية وأهميتها في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المسلمين السيامي من
الدعائم الأساسية التي كتبت المسلمين الخلود في البحر الأبيض المتوسط ، القاب
الناضب للعالم القديم ومفتاح سيادته وزعامته . وجهد معاوية في وضع خطة تهدف
إلى ضرب القسطنطينية في عقر دارها والإستيلاء عليها إذا تهيأت الظروف .
وترك خلفاه من بعده طريقاً واضح المعالم للسير فيه من أجل رفع راية الإسلام

على مياه البحر الأبيض المتوسط .

استهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بعد أن نالت جيوشه نصراً وافراً من
المران الحربي على اجتياز آسيا الصغرى ، واطمأن إلى حسن تدريبها بعد الإغارات
المكررة التي شنتها على أراضي البيزنطيين . فأرسل حملة استطلاعية تمهيدية سنة
٤٩ هـ / ٦٦٨ م بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري إلى ضواحي القسطنطينية ^(١) ،
لتعجم عود خط الدفاع البيزنطي الأمامي عن العاصمة . إذ تعتبر مدينة خلقدونيا
ضاحية من ضواحي القسطنطينية على الشاطئ الآسيوي ، ومعقل لقياق من الجيش
البيزنطي مكون من حرس الإمبراطور الخاص . واستطاع فضالة أن يستنسخ
المائل البيزنطي التي اعترضت طريقه حتى وصل مدينة خلقدونيا ، وأقام بها خلال
فصل الشتاء الذي حل عليه بهذه المدينة ^(٢) . وكانت العمليات الحربية تنفذ
دائماً خلال هذا الفصل من السنة لشدة البرودة ، وظل طوال شتاء عام ٦٦٨/٦٦٩ م
ينظم قواته انتظاراً للإمداد التي كان يعدها معاوية بن أبي سفيان في عاصمته دمشق .
ومثل معاوية جهوداً عظيمة لإعداد القوات الإسلامية التي رغب في إرسالها
لشد أزرجيش فضالة بن عبيد الأنصاري . فجعل على رأس هذه الحملة ابنه وولي
عهد يزيد . واستهدف معاوية من وراء ذلك إعطاء ابنه فرصة يعلى فيها من ذكره
واسمه في ميدان الجهاد ضد البيزنطيين ، وأبرد بذلك على الأشخاص الذين أبدوا
إمتعاضهم من يزيد والمحاولات التي بذلها أبوه لأخذ البيعة له باختلافه من بعده ^(٣) .
إذ صورت الدعايات المعادية لبني أمية شخصية يزيد بحجها المجهول والخلاعة ،
وعدم أهليتها لتصرف شئون المسلمين ، ومن ثم كان ميدان القسطنطينية خير

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٣٠ .

Hitti, History of Syria, 443.

(2) Ibid, 443.

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٣٠ .

Laumens, Etudes Sur Le Règne du Califé Omayyade Mo, awia ler, 443.

محال يندحض فيه يزيد افتراءات منافسية وأعداءه ، ويعلم عن مواهبه الحربية وما انصف به من شجاعة وإقدام .

ويبلغ من اهتمام معاوية بأمر هذه الحملة وإكسابها طابع الجهاد المقدس ، أن ضم إلى ابنه شخصية كبرى من أصحاب الرسول الكريم ، ومن لعبت دوراً رئيساً في مؤازرته وفي نصرته دعوته . إذ اختار أبا أيوب الأنصاري ، الذي استقبل الرسول في بيته بالمدينة ، وحارب إلى جانبه في غزوة بدر ليرافق يزيد في هذه الحملة . وكان الهدف من ذلك الإفادة من شخصية أبي أيوب في تقوية روح الجند المعنوية وبث الثقة في نفوسهم والفتاؤل الطيب ^(١) . وبعد أن تم جمع سائر الأمداد والعتاد توجهت الحملة بقيادة يزيد إلى مدينة خلقدونية ، المقر الحربي الذي اتخذته فضالة مركزاً لإدارة دفة الهجوم على القسطنطينية .

وعلى ضفاف البسفور انضم يزيد إلى قوات فضالة ، وغير ميام هذا المضيق إلى الشاطئ الأوربي ، وحقق لخدمته سبقهم على أقرانهم من جند الإسلام في مشاهدة أسوار القسطنطينية ، والوقوف أمامها يدقونها بالآلهم الحربية ، يعملون على تخريبها أو إحداث ثغرات فيها . وأظهر يزيد في هذا الحصار من ضروب الشجاعة والبسالة ما أكسبه لقب « فتى العرب » ^(٢) . ودونت المراجع سيرته وأعماله في هذا الفضال ، وكيف حاول أن يضم إليه بعض عرب الشام المسيحيين الذين استقروا في القسطنطينية بعد استيلاء المسلمين على بلادهم . وكان معظم أولئك القوم من الفلاسفة الذي فرّ زعيمهم جبلة بن الأيهم إلى بلاط البيزنطيين زمن الخليفة عمر من الخطاب . وأبدى الفلاسفة عطفهم على القوات الإسلامية وميائهم إلى تشجيعها . فقد شاهد يزيد بالقسطنطينية أثناء حصارها قبتين عليهما ثياب الديباج ، ترتفع من إحداها أصوات الدفوف والمزامير إذا أصاب المسلمون نجاحاً في هجومهم ، على حين

(١) Lamimens, op cit, 445, 446.

(٢) Ibid, 446; Hitti, op cit, 443.

ترفع أصوات القبة الأخرى بالتهايل عندما ينجح البيزنطيون في صد هجمات المسلمين . فسأل يزيد عن هذه الظاهرة ، وعرف أن القبة المنصورة لجيوشه ابنة جبلة بن الأيهم ، وبالأخرى ابنة إمبراطور البيزنطيين ، وكل واحد منهما تظاهر السرور بما فعله عشيرتها . وكان لذلك أعظم الأثر في نفس يزيد الذي ضاعف من مجهوداته ليرضى شعور منافريه من الفاسانة ، ليفوز ابنة جبلة بن الأيهم ^(١) . وامتاز هذا الحصار بصبر المسلمين وجلدهم في التضيق على سكان العاصمة البيزنطية ، حتى استشهد الجند دون خوف أو وجل . وقال هذا الشرف المقدس أبو أيوب الأنصاري رحمه الله الذي رافقه المنيعة وهو محاصر القسطنطينية ، ودفن بالقرب من أسوارها ^(٢) . ويعتبر هذا الحادث ذا نتائج كبرى في التاريخ الإسلامي ، إذ ظل قبر أبي أيوب شاهداً يجذب أنظار المسلمين دائماً نحو عاصمة البيزنطيين ، ويذهب في نفوسهم الرغبة في إعادة الهجوم عليها مراراً وتكراراً . وقال هذا القبر تكريم المسيحيين اليونانيين القديسين بالقرب منه لاعتقادهم أنه يجلب لهم الأمطار ، ونعميرة بالقرمم والإصلاح . وقد اكتشف الأتراك العثمانيون موضع القبر عند حصار القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م وبنو عنده مسجداً ، وأصبح أبو أيوب ، ذلك الشيخ النفي الذي كان من أنصار المدينة ، ولياً عند المسلمين والبيزنطيين والأتراك . وفي صيف سنة ٦٦٩ م رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن أثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قوات الإسلام . وعادت الحملة الإسلامية إلى دمشق استمدت لعاودة الكرة على حصار القسطنطينية . وقد خلقت هذه الحملة ورانها نتائج بعيدة المدى في سياسة الإمبراطورية البيزنطية ، إذ تولى العرش البيزنطي إذ ذاك الإمبراطور قسطنطين الرابع ، وكان كأي قسطنطين الثاني من أعداء المسلمين . فآثر هذا الإمبراطور أن يسير قدماً بسواة أبيه وهي

(١) الأعمش ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .

(2) Hilli. History of Syria, 444.

(3) Hilli. op. cit, 444.

تأمين بلاده من هجوم المسلمين ، والتدخل تماماً عن المشاريع القديمة التي تهدف إلى طرد المسلمين من الشام ومصر . ووجه هذا الامبراطور عنايته بصفة خاصة إلى تقوية وسائل الدفاع عن القسطنطينية والطرق المؤدية إليها ، وإحداث تغييرات جوهرية في النظم الإدارية لامبراطوريته .

خط الدفاع البيزنطى عن القسطنطينية :

كان للحملة الإسلامية الأولى التي شنها معاوية بن أبى سفيان على مدينة القسطنطينية أثر كبير في سياسة الأباطرة البيزنطيين ، إذ أفضت هذه الحملة مضاجعهم وجعلتهم يدركون أن مطرقة الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى مشارف عاصمتهم نفسها ، وأن المسلمين على استعداد لاستئناف حملاتهم على هذه المدينة بشكل أعنف وأقوى مما اضطلعوا به من قبل . وانجذبت سياستهم إزاء هذا النشاط الإسلامى الحرجى المضطرب إلى اتخاذ كافة الوسائل الممكنة التي تجعل عاصمتهم بعيدة عن أيدي المسلمين أو عرقلة زحف جيوش الإسلامية عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، أو جعلها تصل إلى القسطنطينية وقد أنهكها التعب والسكد .

وبدأ الأباطرة البيزنطيون ينفذون سياستهم الجديدة في إقليم آسيا الصغرى ، الذي غدا بعد ضياع الشام ومصر أهم مورد تعتمد منه الإمبراطورية الجند القادرين على القتال ، والأموال اللازمة للهوض عرافق البلاد والدفاع عن العاصمة^(١) . فوضعوا للدفاع عن هذا الإقليم الذى أصبح خط الدفاع الأول عن القسطنطينية نظاماً حروبياً بدأت نواته الأولى تترعرع منذ حركة الفتوحات الإسلامية الأولى على الشام ومصر ، ثم أخذت تنمو مع الزمن وتتطور بما يحقق

(1) Runciman, Byzantine, Civilisation 88 :

Byzantium, 280, 285.

الأغراض المنشودة من هذا النظام الحربى الجديد . وتداول الأباطرة البيزنطيون العناية والاهتمام بهذا النظام الجديد حتى اكتملت صورته وأوضاعه .

وظهر الاهتمام الحقيقى بهذا النظام الحربى منذ عهد الإمبراطور هرقل ، الذى نالت جيوشه هزائمه ساحقة متتالية على أيدي المسلمين . إذ دفعت هذه السكوارث المتلاحقة الإمبراطور هرقل إلى إنقاذ البقية الباقية من إمبراطوريته بآسيا الصغرى باتباع نظام إدارى يحقق لها الصمود أمام زحف المسلمين ، وسد الطرق الرئيسية بها المؤدية إلى القسطنطينية . وكان هذا النظام الإدارى الجديد ثورة على الأوضاع الإدارية القديمة التى كانت تسير عليها الإمبراطورية الرومانية منذ أواخر القرن الثالث الميلادى على عهد الإمبراطور دقلديانوس . إذ قام هذا الإمبراطور بإصلاحات فى إدارة إمبراطوريته هدفتم إلى الفصل بين السلطتين الحربية والمدنية فى الأقاليم الرومانية المختلفة للحد من شوكة القادة الحربيين ، ولإقضاء على الحركات الانفصالية التى أخذت تسرى فى أرجاء هذه الأقاليم ^(١) وظل نظام فصل السلطات الحربية والمدنية متبعاً فى أرجاء الدولة الرومانية حتى أبطله الإمبراطور حستينيان العظيم ، إذ رأى هذا الإمبراطور أن الأقاليم التابعة له ما زالت عرضة للاغارات والأخطار الخارجية رغم انتقال السلطان إلى مدينة القسطنطينية . وأيقن ألا سبيل للمحافظة على هذه الأقاليم ، ودحرى الأخطار عنها إلا بصيغتها بصيغة حربية تمكنها من الدفاع عن نفسها . وطبق هذه السياسة الجديدة فى إقليم إفريقيا الشمالية بعد أن طرد منها عنصر الواندال ^(٢) الجرمانى ، الذى انتزع هذه البلاد من أيدي البيزنطيين من قبل . فعين على إفريقيا رجلاً جمع فى يده السلطة المدنية الخاصة بتصرف شؤون هذه البلاد

(١) Vasiliev. Histoire de L' Empire Byzantin I. 76.

(٢) الواندال أخذ العناصر الجرمانية التى أغارت على الإمبراطورية الرومانية وانقطعت منها شمال إفريقيا فى القرن الخامس الميلادى .

وأعمال القائد العام للجيش هناك « Magister Militum »^(١)

واتبع جستنيان هذا النظام الجديد في ولاية أرمينيا كذلك المعوضة دائماً لمجتمعات الفرس . فمنح القائد العام للجيش هناك « Magister Militum Per Armeniam » سلطات مدنية إلى جانب مهامه الحربية . فصار الحاكم أرمينيا الحرة في الحق في تصريف الشؤون المدنية لهذا الإقليم وتنظيم أحوال الأهالي به^(٢) . ولم تأت الأحداث التي حاظت الإمبراطورية البيزنطية بعد عهد جستنيان أن عمات على تقوية دعائم هذه النظم الجديدة . إذ عانت الإمبراطورية منذ أواخر القرن السادس الميلادي ، وهو القرب السابق مباشرة لحركات الفتح الإسلامي ، ضعفاً مالياً أعجزها عن الاعتماد على الجيوش المرتقة واضطاعها بالمال ، واضطرت أمام الأخطار الخارجية المدبغة أن تعتمد على أبناء أقاليمها أنفسهم ، ونجدهم في جيوشها . ونجح هذا النظام الجديد في سائر الولايات حتى سار التجنيد وفق قواعد دقيقة متبعة ، وأصبح تحت تصرف حاكم كل إقليم جيش مدرب من أبناء البلاد^(٣)

وحارب الإمبراطور هرقل الفرس في حملاته المظفرة بجيش عيانه على النمط السالف ، أي من أبناء أقاليم الإمبراطورية . وكانت غالبية الجند من الفرق الأرمنية وفرق ترافيا والأقاليم الشرقية للدولة ، إلى جانب فرق الإمبراطور الخاصة ، (وتعرف الأخيرة بالحرس الإمبراطوري Obsequium, obsequentes)^(٤) . وبعد سقوط الشام في أيدي المسلمين ارتد جيش هرقل السالف إلى آسيا الصغرى ، التي غدت منذئذ موضع عناية الأباطرة لمواجهة دولة المسلمين الفتية ، لأنها أصبحت

(1) Bury, op cit II 346

(2) Ibid, 346.

(3) Byzantium, 297.

(4) Byzantium, 297.

Bury, op cit, 348.

أهم مورد تعتمد عليه الدولة في تجديد جيوشها وتعبئة أساطيلها . ومن ثم اقتضى الدفاع عن الأراضي البيزنطية وضع آسيا الصغرى في حالة دفاع دائم ، ولا سيما بعد أن أخذت جيوش المسلمين تطرق منافذها ومسالكها متجهة نحو القسطنطينية . فاتجه الأباطرة إلى تطبيق سياسة الإمبراطور جستنيان العظيم مع إدخال تعديلات هامة تتفق والدفاع عن العاصمة .

وكان النظام الجديد الذي طبقه الأباطرة البيزنطيون على آسيا الصغرى هو توزيع فوايق من الجيش (Themata) على جهات منها تعسكر فيها بصفة دائمة . ثم منح الأباطرة الجند المقيمين في هذه الجهات قطعاً من الأرض يستغلونها ويهتمون بحيراتها ، لترغيبهم في الاستقرار بأماكنهم وتشجيعهم على الاسماحة في الدفاع عنها . وإلى جانب ذلك منح الأباطرة قائد الفيلق في الإقليم سلطات مدنية واسعة ، وأصبحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية ، يقيم بكل منها فيلق من الجيش ، يجمع قائده بين مهام الانصراف على جنده وأعباء الحاكم المدني ^(١) . وعرف هذا التقسيم الإداري الجديد ، الذي كانت الوحدة فيه الإقليم الحرري ، باسم نظام الأجناد أو البنود ، حيث كان لكل جند أو فيلق بند خاص أو علم كبير يميزها بعضها عن بعض ^(٢) .

ونشأت بآسيا الصغرى في القرن السابع الميلادي إبان اشتداد الحملات الإسلامية على القسطنطينية ثلاثة بنود كبيرى لعبت دوراً هاماً في سير العمليات الحربية . وسعى إثنان من هذه الأقاليم الحربية باسم الفيلقين الذين أقاما بها ، على حين أخذ الإقليم الحرري الثالث اسماً جغرافياً . فسمى الإقليم الأول باسم

(١) Runciman, op cit, 88.

(٢) ذكر المزمودي في كتابه التنبية والاشراف ، ص ١٥٠ : أن نظام البنود أو الأقاليم الحربية أشبه بنظام الأجناد الذي انتشرت إليه بلاد الشام ، فقال : « أرى الروم (البيزنطيين) واسعة في القنول والعرض ، مقسومة من قديم الزمن على أربعة عشر قسماً : أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال أجناد الشام . »

البند الأناتولى (Anatolie Theme) ، وهى تسمية ترجع إلى الفترة السابقة مباشرة لظهور الإسلام ، إذ كانت كلمة الحاكم الأناتولى — ومعناها الشرق — تطلق على القائد العالم للولايات الشرقية من الامبراطورية (Magister Militum Per Orientum) ، والتي كانت تضم سوريا وآسيا الصغرى . وعندما استولى المسلمون على الشام انسحبت الفرق الخاضعة لذلك القائد العالم نحو الغرب ، واستقرت في الجهات الواقعة شمال جبال طوروس للدفاع عن آسيا الصغرى . وتبعاً للنظام الجديد (أى نظام البنود) تلاثت سلطة القائد الشرق العالم ، ولكن اسمه اُصق بالإقليم الجديد الذى استقرت به البقية الباقية من جنوده ، وأصبح قائدها الجديد يتولى تصريف مهام هذه المنطقة في النواحي المدنية إلى جانب رعاية قبيلة الخرى^(١) .

وأخذ البند الثانى اسمه من الفرق التى كومت حرس الامبراطور هرقل . وقد استقرت هذه الفرق بعد عودتها إلى آسيا الصغرى في الجهات المحيطة ببحر مرسية ، وعرفت باسم بند الأسيق (Opsikion — أى إقليم فرق الحرس الامبراطورى) . واختصت هذه المنطقة بالحرس الامبراطورى لمواجهة نشاط القسطنطينية ، وضرورة انتقاء الجند المدافع عنها لصد الحملات المباشرة على العاصمة . ودأبت الامبراطورية البيزنطية على تقوية هذا البند بإمداده بعناصر من جماعات السلاف التى أمرتها في حروبها ، وعرفت بالباس وشدة المراس . ففي سنة ٦٨٨/٦٨٧ م سبغت سبل الإقامة في هذا البند لبعض العناصر السلافية لشد أزرها الفرق الامبراطورية به . وكان هذا الإقليم الخرى يمتد من بحر مرسية إلى مسافة كبيرة داخل آسيا الصغرى ، أقامت في جهاته الساحلية فرق بحسرية (Peratic Themes) لصد سفن المهاجمين عن العاصمة ، على حين استقر

(1) Dury, op. cit, 347, 348; Vasiliev, op. cit, 301

في جهاته الداخلية فرق من الخيالة (Cavallarii) لمراقبة الروحى البرى^(١).
 وكان البند الثالث الهام في آسيا الصغرى هو بند أرمينيا ، الذى اشتمل
 على الأراضي المواجهة لثلاث المنطقة من أرمينيا التي خضعت لسلطان المسلمين .
 واهتم البيزنطيون بهذا البند الرئيسى لمواجهة بعض المنافذ التي سلكتها جيوش
 المسلمين في إغاراتهم الصيفية والشتوية على آسيا الصغرى ، ومحاولتها الاتصال
 بغيرها من القوات الإسلامية الزاحفة من الشام على القسطنطينية^(٢) .
 وظهر إلى جانب هذه البند الثلاث بآسيا الصغرى نواة بند آخر ، أخذ
 صورته الكاملة في مطلع القرن الثامن الميلادى بعد آخر حملة أموية
 كبرى على العاصمة البيزنطية . وكان هذا الإقليم الحرنى الصغير يعرف ببند
 كيريا (Kibyrrhaiotai) . وظهر نشاطه المبكر أثناء سير السفن الإسلامية
 بالقرب من ساحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه لمعاونة الحملات الإسلامية البرية
 في حصار القسطنطينية . واشتمل هذا الإقليم على الجهات الساحلية من آسيا
 الصغرى وجزر بحر إيجه ، التي استمدت الامبراطورية البيزنطية منها حيرة
 بحارها وأساطيلها . ولكن إزاء حملات المسلمين اتسع نشاط هذا الإقليم ، واضطرت
 الامبراطورية البيزنطية إلى تقسيمه قسمين ، الأول يضم الجهات الساحلية الجنوبية ،
 والجنوبية الغربية من آسيا الصغرى واحتفظت بالاسم القديم أى بند كيريا . أما
 القسم الثانى فقد ابتدأ بتقريباً بجذيداً يضم جزر بحر إيجه ، ويعرف بالبند الاشبي^(٣) .
 ونظمت السلطات البيزنطية وسائل التعاون والنشاط البحرى بين هذين
 البندين بما يحقق الدفاع عن القسطنطينية . فكان لكل بند منهما أسطول خاص
 عليه أمير بحر (Drungarius) يشرف عليه . ولكن خضع هذان الأسطولان
 لسيادة أمير البحر العام المقيم على الأسطول الراسى بنباه القسطنطينية ، وكان هذا

(1) Bury, op cit, 340, 341.

(2) Bury, op cit, 341, 342.

(3) Ibid, 342.

القائد (Strategos of the Karabisiani) بزود معاونيه بالتعليمات ،
ويرسم لهم الخطط اللازمة لمواجهة أى عدوان تتعرض له العاصمة ^(١) .

وكان ذلك الركن من الشاطئ ، الأوربي المواجه لآسيا الصغرى ، والذي تقع
عليه مدينة القسطنطينية ، ينظم بدأ قنمايداته ، وإن كان يعتمد في الدفاع عن نفسه
على بنود آسيا الصغرى السالفة . وهى البيزنطيون لهذا الإقليم سبل الدفاع عنه ،
بما يمكنه من الصمود طويلا أمام أى حصار أو هجوم كبير . فنظموا موارد
الغذائية وكيفية الحصول عليها ، لأنها العمود الفقري في مقاومة السكان المهاجمين .
وكانت هذه المؤن تأتي إليه من اليونان وجزر بحر إيجه ، ومن سهول الفريج
الواقعة على شواطئ البحر الأسود الشمالية . وقد عرف المسلمون هذه الخفينة
وأدركوا أن قطع الأمداد والمؤن عن إقليم القسطنطينية ، هو الهدف الذى يجب
أن يصلوا إليه ليصيبوا من عاصمة البيزنطيين مقتلًا .

حرب السنوات السبع (٥٤ — ٦٠ هـ / ٦٧٤ — ٦٨٠ م)

في الوقت الذى جهدت فيه الإمبراطورية البيزنطية على إعادة تنظيم أحوالها
الإدارية ، وتدعيم نظام البنود ، أو الأقاليم الحربية ، بعد أن أحست وصول
يد المسلمين القوية إلى أسوار عاصمتها ، ضمم معاوية بن أبى سفيان على إعداد
حملة ثانية لتقويض دعائم البيزنطيين . فاستهدف الاستيلاء على عاصمتهم ، قبل
أن تفيق دولتهم من حالة الفوضى والقلق التى سادتها ، حيث كانت تحتل مرحلة
انتقال من عهد العظمة والتوسع إلى عهد الانكماش والانتواء . فبعث في سنة
٦٧٣م حملة بقيادة عبدالرحمن بن خالد إلى القسطنطينية ، يؤازرها أسطول بحرى .
وحل فصل الشتاء والقوات الإسلامية في طريق زحفها عبر آسيا الصغرى ،

(١) Runciman, op cit, 150; Byzantium 304.

فألقت السفن مراسيها على شاطئ، فبقيا حتى يتحسن الجو ويصبح ملائماً لاستئناف السير^(١).

و بمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول إسلامي آخر، واستأنفت القوات جميعها الزحف على القسطنطينية. وفي شهر إبريل اجتاز الأسطول الإسلامي مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة من البيزنطيين، إذ كانت البنادق البحرية لا تزال في دور التسكوير، عاجزة عن الصمود أمام سفن المسلمين الفتية. وفي نفس الوقت كانت الجيوش الإسلامية البرية قد اجتازت آسيا الصغرى في سهولة ويسر لاضطراب أحوال بنودها البرية، وتفشي التنارع واللباغض بين قادتها^(٢).

واستولى المسلمون على جزيرة كزيكوس (أرواد) في مياه القسطنطينية واتخذوها مقراً لإدارة حملتهم على العاصمة. فكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر المحاصرة أسوار القسطنطينية، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هيدومون (Hebdomon) التي تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة، وبين رأس كيكلوبوس (Kyklobios) الواقعة بالقرب من باب الذهب. واستمر الحصار البري والبحري للقسطنطينية من شهر إبريل إلى سبتمبر، فتخلله مفاوضات بين أساطيل وجنود المسلمين والبيزنطيين. وجرت خطة الحصار على اصطدام بين سفن المسلمين والبيزنطيين من الصباح إلى مساء، على حين تراقش القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطي للمرابطة على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام^(٣).

واستطاعت المدينة أن تصمد أمام الحصار طيلة هذا الوقت لأن الإمبراطور

(1) Bury, op. cit. II, 310.

(2) Ibid, 310.

(3) Bréhier, Vie et mort de Byzance, 63.

Bury, op. cit, 310,

البيزنطي قسطنطين الرابع ملاً خزانها بالمؤن والعتاد ، وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير . على أن المسلمين أظهروا من المثابرة والجِد ما أثار قلق سكان القسطنطينية . إذ في شهر سبتمبر عادت السفن والجند الإسلامي إلى مقرها بحزيرة كزيكوس ، تقضى بها فصل الشتاء وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة . ويعطّل الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالجند لحصار القسطنطينية براً وبحراً على النحو السابق ، وأذاقت حاميات المدينة أشد أنواع الضنك والأرهاق . وقد اقتضت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين على الربيع والصيف فقط طيلة السنوات السبع التي استغرقتها عملية حصار القسطنطينية في هذه المرة الثانية^(١) .

وهذا الجهاد الإسلامي الرابع في حرب السنوات السبع يقلل من الإشادة بالنار البحرية التي استعملها البيزنطيون لأول مرة أثناء هذا الحصار . إذ تذكر المراجع الأوربية أن البيزنطيين جهزوا سفناً مزودة بالآلات خاصة تقذف نوعاً من النار لا يطفئها الماء ، وإنما يزيد لها اشتعالاً ، واستطاعوا أن يحرقوا كثيراً من السفن الإسلامية بهذا السلاح الجديد . على أن هذا السلاح لم يثن المسلمين عن غرضهم ، ولم يفت في عضدهم ، أو يبعث في نفوسهم القنوط ، إذ تابعوا الحصار كما تهيأت لهم العوامل الطبيعية من اعتدال المناخ أثناء الربيع والصيف .

وساهم كثير من قادة الأمويين في إدارة عمليات هذا الحصار ، خلف القائد عبد الرحمن بن خالد شخصية أخرى كبيرة ، وهو سفيان بن عوف . واشترك ولي العهد يزيد بن معاوية في حصار القسطنطينية كذلك ، حتى أن هذه الشخصيات الهامة ألهمت روح الجند الإسلامي حماساً ، وشجعت على متابعة النضال طيلة السنوات السبع . ولكن في نهاية تلك الفترة أحس معاوية بن أبي سفيان دنو أجله ، وأن صالح الدولة الإسلامية العام يحتم سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية .

(1) Brehier, op cit. 63.

وهكذا كان معاوية ناقد النظر كذلك في أيامه الأخيرة حين اتخذ هذا القرار الهام ، إذ أحس أنبيعة ابنه يزيد^(١) لا بد أن تلي مقاومة فعالة حين تؤول مقاليد الدولة الإسلامية إليه ، وأن المحافظة على الخلافة في بيته تحتم وضع أكبر قوات ممكنة تحت تصرف يزيد لمواجهة ما قد ينشأ من مصاعب طارئة ، ومن ثم دخل معاوية في مفاوضات مع الدولة البيزنطية تمهيداً لسحب قواته المحاصرة لقسطنطينية وإعادتها إلى قواعدها بالشام .

وكانت الدولة البيزنطية تتألف لإنهاء حالة الحرب مع الدولة الإسلامية ، إذ أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا ، من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاً وفطنة . وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكرمه تقدير معاوية واحترامه . وتجمعت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة^(٢) . وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية للرابطة يراً وبحراً أمام القسطنطينية ولم تنحسرها للعودة إلى الشام ، وتحركت عاصمة البيزنطيين ثلث من جراحها المشقة .

الدار البحرية :

يظهر من ثنايا الخواصات البيزنطية ، ومن المراجع الأوربية التي اعتمدت عليها ، أن أهم عامل أبعد القسطنطينية من حصار المسلمين لها هو ظهور اختراع أثناء فترة حرب السنوات السبع يعرف بالدار البحرية^(٣) . ولكن أحداث الحصار الإسلامي

(١) أنه معاوية إلى أخذ البيعة لابنه يزيد بتحريرين القيرة بن سبعة . وفي سنة ٥١ هـ خرج معاوية إلى الحجاز وجهد على أخذ مبايعة أهله لابنه ، بعد أن قال رساء أهل العراق والشام . وعند بايع أهل الحجاز يزيد تحت تهديد معاوية ، ولكن أي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جحر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، مبايعة يزيد . وبذلك كان الموقف الذي يقف عليه يزيد فقط .

(2) Bury, op cit II, 312. Gibbon, op cit II, 701.

(3) Bury, op cit II, 311, Brehier, op cit, 63.

مدينة القسطنطينية تبين بخلاصة أن هذا السلاح الجديد ليس العامل الأول في تمكين القسطنطينية من الصمود أمام القوات الإسلامية ، وإنما ترجع حصانة المدينة إلى موقعها الجغرافي وطبيعة التيارات المائية التي تحيط بجبهاتها الساحلية . على أن قصة النار البحرية أعجبت مؤرخي الدولة البيزنطية ، لأنها شأن كل سلاح جديد اجتذبت أنظارهم ، ولا سيما أنها جاءت في فترة كانت دولتهم وعاصمتها يعانيان من أتوان الضئيل والمتاعب ما جعلهم يشيدون بأي سلاح يخفف عنهم الويلات التي حلت بهم .

وتنسب الروايات اكتشاف هذه « النار البحرية » إلى رجل من مواطني مدينة هليو بوليس بالشام ، هاجر إلى القسطنطينية عندما سقط هذا الإقليم في يد المسلمين ^(١) . وكان هذا الرجل ممن حذقوا أعمال الهندسة والكيمياء واستطاع أن يصل إلى اختراعه في الفترة التي كان المسلمون يحاصرون فيها القسطنطينية ، مما جعل الدولة البيزنطية تتاهت عليه وتستخدمه في الدفاع عن عاصمتها . وأطلق على هذا السلاح اسم « النار البحرية » لأنها استخدمت ضد السفن في البحارة وعلى الجند في البر ، ولم تعلقها المياه التي لجأ إليها المسلمون في أول الأمر ، وإنما زاد اشتعال النار كلما ألقى عليها الماء . وسميت هذه النار كذلك « بالنار الإغريقية » نسبة إلى الإغريق وهم البيزنطيون . وتعزى هذه التسمية الأخيرة إلى أن البيزنطيين استطاعوا الاحتفاظ بسر هذا السلاح فترة طويلة ، إلى نهاية القرن العاشر الميلادي ، ولصق اسمهم بهذه النار دليلاً على اختصاركم لها .

وتناول الكتاب في القرن العاشر وصف العناصر التي تتكونت منها هذه النار ووسائل إخمادها . فذكر أحدهم « إذا أخذت كبريت نقي مع حامض الطرطريلك والصمغ الفارسي والقار الخام والنفثات ثم مزجت الخليط معاً ، وغشت في هذا الخليط تسبيج الكتان ، ثم أشعلت فيه النار انشتر اللهب

(1) Gibbon, op cit II, 796.

في الحال . ويطغى هذه النار الرمل فقط أو الخلل . وتطور هذا السلاح فيما بعد
وظهر منه نوع أشبه بالمفرقات . وكانت تتكون من وحدات ، كل منها تحوي
رطلا من السكريت المسحق مع رطلين من الفحم البلدي وست أرطال
من نترات البوتاس (ملح البارود) ، ثم يوضع المزيج في غلافات طويلة صلبة
محكمة ، أشبه بالخرطوشة ، تغطي فتحتها بسلك حديدي . وتشمل هذه الأنابيب
وتقذف في الهواء بواسطة مجاذيق ، ويسمع لها انفجار مدوي يصحبه دخان كثيف
مسيوق بالهب خاطر^(١) .

وكانت النار التي يلقيها الجند من أعلى الأسوار ، عبارة عن كرات من الحجر
أو الحديد بها المزيج السالف ، ثم تحمى بالنار . وأحياناً تغطي الكرات بدميخ
السكتان المشرب بزيت مغلي ، ثم يشعل فيها النار عند إطلاقها . وأما النار التي
استخدمت في الحرب البحرية ، فكانت عبارة عن أنابيب طويلة من النحاس
تقذف من مقدمة المركب . وكانت توضع على مقدمات السفن تماثيل تصور مناظر
الأسود وغيرها من الحيوانات الضارية ، ينبعث من أفواهها النار التي تلقى
على سفن الأعداء^(٢) .

وأمدت الإمبراطورية البيزنطية حلفائها بهذا السلاح من المفرقات أو السفن
المنجزة بقذائف النار البحرية ، دون أن تعلمهم على سر تركيبها . فكانت أهم
الوصايا التي يلقيها الإمبراطور لولي عهده حين بعده لتتولى مقاليد الأمور ، هي الاحتفاظ
بسر صناعة هذه النار ، والاشير إليها في مؤلفاته بما قد يكشف عن خواصها ،
وإنما يقصر قوله عنها بأنها من وحي الله وإلهامه . ونفذ الأباطرة هذه الوصية
بعناية مدى أربعة قرون حتى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ، إذ استطاع
المسلمون بأنحاثهم الكيميائية ومثابرتهم أن يعرفوا هذا السلاح ، وأدخلوا عليه

(1) Bury, op. cit II, 319; Oman, History of war II, 46, 47.

(2) Gibbon, op. cit, 797.

من التعديلات ما جعله أشد فتكاً وأقوى أثراً من النار الأخرقية^(١).

واستخدم المسلمون هذه النار الجديدة في الحروب الصليبية ، التي دارت رحاها بأرض الشام ، كما أرادوا أن يثبتوا مقدرتهم على النهوض بتراث الأمويين الحربي ، الذي خلفوه بدمشق عروس إقليم الشام ، والتي واجهت جيوشها النار الأخرقية لأول مرة في التاريخ الإسلامي . فكانت النار التي قذفها المسلمون منار رعب وفزع في قلوب أعدائهم ، ولم يستطع الصليبيون رغم تظاهرهم بالشجاعة والبأس إخفاء زعجهم من هذه النار ، إذ وصفها أحدهم قائلاً « انطلقت النار علينا أشبه بفتين ذي جناحين طويلين ، رأسه تقرب من رأس السكاب ، وكانت تصحوق بصوت أشبه بالرعد ، وبضوء أشبه بالبرق الخاطف : وتبدد الظلام فجأة بهذا النور القاتل^(٢) » .

وغدت هذه النار تنسب إلى المسلمين وتدعى « بالنار الإسلامية » ، لأن الأعداء عجزوا عن معرفة سر هذا السلاح الجديد الذي احتضنه المسلمون . وظل استخدام النار الإسلامية سائداً حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، حيث دخلت عليها تطورات وتعديلات كثيرة أدت أخيراً إلى صناعة البارود . ومن ثم اعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير في أساليب الحرب التي عرفها العالم الحديث . وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفي الأيدي أمام أي سلاح جديد يقاومهم به الأعداء ، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم .

(١) Gibbon op cit 797.

(٢) Ibid, 798 ; Oman, op cit II 47, 48.

بنو مروان والقسطنطينية

نصر عجم البيت الأموي:

بعد عودة القوات الإسلامية من حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع ، انفجرت بعض الأحداث في جوف العالم الإسلامي كان لها أبعاد الأثر في مجرى الحرب مع الامبراطورية البيزنطية . إذ توفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان تاركاً لابنه يزيد عرش الخلافة يتنازع فيه كثير من كبار رجال الدولة الإسلامية . ومن ثم وقعت حملات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية فترة مدتها خمسة عشر عاماً ، صرفها أبناء البيت الأموي في تدعيم سلطانهم على العالم الإسلامي وتأمين أحواله الداخلية . إذ انقسمت الدولة الإسلامية على عهد يزيد إلى ثلاثة أجزاء تقريباً ، وهي الشام الباقية على الولاء لبني أمية ، والعراق حيث كانت الحركة لإقامة خلافة علوية ، وبلاد العرب نفسها التي كانت تريد إقامة خليفة عربي منتخب وفق نظام الشورى .

واستطاع يزيد أن يضم العراق إلى إقليم الشام بعد معركة كربلاء ، ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب فيها ^(١) . إذ انهضت آمال أهل العراق في إقامة خلافة علوية ، ودخلوا في البيعة لبني أمية مرة أخرى . ثم اتجه يزيد بعد ذلك إلى إقليم الحجاز الذي نادى بخلافة عبد الله بن الزبير ، ورفض إعلان ولائه لبني

(١) رفض الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ م ، واستجاب لدعوات أهل العراق الذين أعلنوا أنه الخليفة الشرعي . وذهب الحسين قاصداً الكوفة على رأس قوة صغيرة من ذوي قريته . ولكن حاكم العراق الأموي عبد الله بن زياد سدد الطريق في وجه الحسين . وفي العاشر من عزم سنة ٦٨١ / ٢٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م أحاطت قوة الأمويين الكبيرة باتباع الحسين عند كربلاء التي تبعد ٢٥ ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة . وأسفرت المعركة عن قتل الحسين وكثير من معه . ولكن جاءت هذه الحادثة وبلاؤها بعد علي بن أمية ، إذ غشت روح التدمير ضدهم حتى سقطت دولتهم آخر الأمر .

أمية . وكانت ثورة عبد الله بن الزبير من أخطر المشاكل التي واجهها يزيد
ابن معاوية بن أبي سفيان . إذ لم يستطع القضاء عليها ، وتوفي نازكا ابن الزبير
ببسط سلطانه على إقليم العراق مستهدفاً ضم سائر العالم الاسلامي تحت رايته .
وتوالى الأزمات على البيت الأموي بعد وفاة يزيد ، إذ بناها عبد الله بن الزبير
بوسع دائرة نفوذه تولى عرش الخلافة الأموية بالشام ابن يزيد ، ويدعى معاوية
الثاني . وكان حدثاً ضعيفاً غير قادر على مواجهة الموقف الدقيق الذي حاط
بالبيت الأموي . فلم تلبث عوامل النزاع أن انتشرت بين القبائل العربية للقيصة
بالشام ، وانقسمت إلى فريقين متناضلين ؛ النخعيون أو عرب الجنوب ومن أشهرهم
قبيلة كلب ، والقيسية أو عرب الشمال . وعجز معاوية الثاني عن السيطرة على
الموقف ، وأصبح البيت الأموي مهدداً بالزوال على عهده .

وكان لهذه الأحداث أثر كبير في نفوس رجال البيت الأموي ، فاجتمعوا راجعين
على إبعاد الفرع السفلي عن تولى مقاليد الأمور حيث أصبح مفتقراً إلى الشخصيات
الجديرة بمنصب الخلافة . ووقع لاختيار أبناء البيت الأموي على أحد كبار رجالاتهم
وهو مروان بن الحكم ، وكان مقيماً بدمشق منذ وفاة يزيد . وبأمر أتباع مروان
إلى مبايعته بالخلافة في الجابية (ذي القعدة سنة ٦٨٤/٦٨٥ م) . وتعتبر هذه البيعة
حداً فاصلاً بين عهد بن من البيت الأموي ، إذ انتقلت الخلافة نهائياً من الفرع
السفلي إلى الفرع المرواني (من أبناء مروان بن الحكم) .

واشتهر مروان رغم شيخوخته بالدهاء والبراعة في تهيئة الأمر لنفسه ولأبنائه
من بعده . فاستمال إليه خالد بن يزيد ، بأن وعده بولاية العهد ، ثم كسب
مع هذه الشخصية كذلك خال يزيد وهو حسان بن محمد زعيم قبيلة كلب .
وكان لهذا التحالف أثر كبير في المحافظة على البيت الأموي ، إذ كان انضمام
عرب الجنوب إلى مروان عاملاً قوياً شدد أزره ضد القبيلة . التي كان زعيمها

الضحاك بن قيس القهري ، قد نصب نفسه والياً على دمشق من قبل عبد الله ابن الزبير^(١) . فسار مروان على رأس خلفائه إلى دمشق ، وخرج القيسيون للقاءه في سهل مرج راهط شمال شرق المدينة . وكان النصر حليف مروان في هذه المعركة ، وأخضت الشام مرة أخرى وحدة تابعة لبني أمية تحت إمرة مروان ابن الحَكَم .

وقضى مروان البقية الباقية من حياته في التمسك بالخلافة في سلالة بدلا من الفرع السفلي . فاستطاع بعد عدة مفاوضات إقناع ابن يزيد بالتنازل عن حقه في الخلافة لابنه عبد الملك ، وضمن بذلك انتقال الخلافة الأموية إلى يده نهائياً . ويعتبر ظهور هذا البيت الجديد من أهم العوامل التي أكرست الدولة الإسلامية قوة وحيوية ، وبعثت فيها نشاطاً جريباً رائعاً ، كانت آيته عبد الملك ابن مروان .

ويعتبر عبد الملك صورة حية لما تتمتع به بنو أمية من نشاط وذكاء وروح الشجاعة . إذ سار على نهج السياسة العامة التي اتبناها معاوية مؤسس الفرع السفلي وهي تدعيم الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية للتفرغ للبيزنطيين أعداء المسلمين ، مما ينهض دليلاً على اهتمام الفرع المرواني بمقاومة سياسة أسلافهم من بني سفيون في الدفاع عن أرض الإسلام وإعزاز كلمة المسلمين . وجهد عبد الملك على أن يحبط نفسه بكافة الوسائل التي تكفل له تحقيق أهدافه في توحيد القوى الإسلامية

(١) لما قتل الحسين نزلت الحجاز بخلافة عبد الله بن الزبير . وأمر ح يزيد بإرسال حلة تأديبية ضد أهل المدينة بالحجاز . وقد انتصرت هذه الحملة ، ثم انتقلت إلى مكة وعاصمتها ، حيث التقي بها عبد الله بن الزبير . ولكن مات يزيد أثناء الحصار ، ف وقعت الحملة الأموية للحصار وغادرت إلى دمشق . وتلا موت يزيد فترة اضطراب زاد فيها نفوذ ابن الزبير . إذ نالت به العراق خليفة كذلك ، وبعض أجزاء من الشام . حيث أقام ابن الزبير زعيم حزب القيسية الضحاك ابن قيس القهري والياً على دمشق من قبله . ولكن اضطر مروان على حربه القيسية وأخضع الخلافة منه للقضاء على ثورة ابن الزبير . إذ استطاع ابنه عبد الملك أن يطيح بابن الزبير بفضل الحجاج بن يوسف الثقفي . وكانت ثورة ابن الزبير قد استغرقت سبع سنوات .

جميعها . فعقد هدنة مع الامبراطورية البيزنطية في مستهل حكمه ، حيث كانت الجيوش البيزنطية تقوم بإغارات على حدود الشام الشمالية ، متبصرة فرصة انشغال المسلمين بمشاكلهم الداخلية . واشترى عبد الملك هذه الهدنة بدفع مبلغ معين للبيزنطيين ، يعتبر تافها إلى جانب المبالغ التي حققها فيما بعد لدولة المسلمين في غال الحدود ، والأطمئنان . ولم تكن سياسة شراء السلم بمال مما يبيع الخلفاء الأمويين ، حيث برهنوا على أنهم استهدفوا من وراءها مصلحة أرض الإسلام ، لا عن خوف وخنوع .

وكرر عبد الملك جهوده ضد ثورة عبد الله بن الزبير التي كانت تقسم عرى الوحدة الإسلامية . ففضى على مصعب أخى عبد الله بن الزبير ، وكان ينشر الدعوة لأخيه بإقليم العراق . ثم وجه بعد ذلك إلى إقليم الحجاز ، الذي أقام به عبد الله ابن الزبير نفسه ، شخصية من أعظم الشخصيات الموالية لابن أموى وهو الحجاج ابن يوسف الثقفي^(١) . واستطاع هذا القائد الأموى أن يعيد إقليم الحجاز إلى النعمية لبني أمية بعد مقتل ابن الزبير عام ٦٩٢ م . وكان لهذا الانتصار الأموى أثر كبير على مجرى العمليات الحربية الإسلامية فيها بعد . إذ هاجر كثير من مسلمي الحجاز إلى الشام لينضموا إلى حملات الأمويين المظفرة ، التي كانت تعد مرة أخرى لاستئناف الجهاد ضد البيزنطيين .

عبد الملك بن مروان وحسبنا الثاني :

شاهد عام ٦٨٥ م ارتقاء حاكمين جديدين عرش الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية ، وارتبط بعهديهما مجدد الصراع الإسلامى البيزنطى ،

(١) كان الحجاج بن يوسف الثقفي معلم صبي في مدينة الطائف بالحجاز . وقد انضم إلى بني أمية وساعدهم في القضاء على ثورة ابن الزبير سنة ٦٩٢ م . ثم عينه عبد الملك بن مروان والياً على العراق الذي اشتبه أهله بالثورة على الأمويين . واستطاع الحجاج أن يقبض بيد من حديد على هذا الأقليم ، ونشر الخدوش في سائر أرجاءه . وقام بتفويضات جليلة في بلاد ماوراء النهر من مقر ولايته الجديد .

واستئناف الجهود الإسلامية لإذلال عاصمة البيزنطيين . وكان هذان الخاكان على طرفي نقيض ، فالأول وهو عبد الملك بن مروان أريب متزن ، يقطب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وخبير بأحوال العالم الإسلامي ، ويصير بالطرق التي تكفل له الرقعة والغلبة على الامبراطورية البيزنطية . والحاكم الآخر هو جستنيان الثاني نزع أحق ، يقتصر إلى تفهم شؤون امبراطوريته وما يكفل لها الاستقرار^(١).

وتردد صدى ما انصف به كل من عبد الملك بن مروان وجستنيان الثاني من صفات حين تجدد الاصطدام بين دولتهما . إذ ابتدأ جستنيان بالعدوان على أراضي الدولة الإسلامية منبهةً انشغال عبد الملك بالثورات الداخلية ، وخلق مناطق التخوم الإسلامية من القوات المراقبة بها . واعتمد جستنيان في هذا الهجوم على جماعة المردة المقيمين في جبال اللكام ، وكانوا دائماً وكلاء يعملون على تنفيذ أغراض الدولة البيزنطية في الأراضي الإسلامية . وكان جستنيان الثاني يهدف من إغارات الجراجمة أو المردة إزهاق الدولة الإسلامية في فترات اضطرابها ، دون الانتحاء إلى خرق المعاهدة التي سبق أن عقدها معه عبد الملك بن مروان في مطلع حكمه . ولكن عبد الملك آثر القضاء على حركة الجراجمة نهائياً باتباع سياسة المسالمة ، ومعتمداً على قصر نظر جستنيان الثاني . إذ دخل في مفاوضات لتجديد المعاهدة السالفة ، وأضاف إليها تعهد الإمبراطورية البيزنطية بإبعاد الجراجمة عن مناطق التخوم الإسلامية مقابل دفع ١٠٠٠ دينار سنوياً^(٢).

وتعتبر هذه المعاهدة من أعظم الخطوات الدبلوماسية نجاحاً ، والتي تفوق بها عبد الملك بن مروان أثناء انشغاله بمشاكله الداخلية على الامبراطورية البيزنطية . وكان لها صدى بعيد فيما بعد حين تجدد النزاع الحربي بين الرواين والبيزنطيين . إذ رأى الامبراطور البيزنطي في الحصول على ذهب الدولة الإسلامية مقابل إبعاد

(1) Bury, op cit II, 320.

(2) Bury, op cit II, 302.

الجراجمة ، رمزاً لعظمته دون أن يدرك ما يكمن وراء هذا العمل من أخطار جسيمة سوف تحقيق بدولته . وبدأ جستنيان فعلاً بنقل ١٢٦.٠٠٠ من الجراجمة إلى رومانيا، على حين ذهب بعضهم إلى تراقيا ، ونشئت البقية الباقية منهم داخل آسيا الصغرى ^(١) .

و بذلك كسب عبد الملك جولة هامة في علاقاته مع الامبراطورية البيزنطية ، و برهن على أنه خير بأحوال أعدائه كذلك . إذ كان جستنيان الثاني مستعداً لقبول فكرة نقل الجراجمة مقابل مبلغ زهيد . فالدولة البيزنطية نظرت دائماً إلى الجراجمة نظرة شك وريبة ، رغم ما قاموا به من خدمات ضد الدولة الإسلامية منذ أيام معاوية بن أبي سفيان . إذ كان أولئك الجراجمة على المذهب المونوفيزيتي البغيض لدى الأباطرة البيزنطيين ، وجاء جستنيان الثاني وحكم نزواته وحبه للمال وأبعد الجراجمة إلى الأبد ، وحطم بذلك هذا « الستار الحديدي » ^(٢) ، على حد قول المراجع البيزنطية ، والذي وقف دائماً في وجه الجيوش الإسلامية . وأثبت عبد الملك من ناحيته علو كعبه في السياسة على الامبراطور جستنيان الثاني .

وسرعان ما تبين الامبراطور جستنيان الثاني خطأ نشيئته الجراجمة ، واحتياج الدولة لم حين تجمدت إغارات الجيش البيزنطي بأناتوليا على أراضي الحدود الإسلامية . إذ أدرك ضرورة سد الثغرة التي أحدثها نقل الجراجمة ، وعول على وضع عناصر جديدة ذات بأس وشدة في الأماكن المعرضة للخطر ، لحمايتها على نحو ما فعل الجراجمة من قبل . وانجذبت أنظار جستنيان الثاني نحو العناصر السلافية الضاربة في أطراف البلقان . وكانت الدولة البيزنطية تدفع لهم ضريبة سنوية مقابل احتفاظها بالهدوء والسكينة في الأراضي البيزنطية التي استقروا بها . ورأى جستنيان الفرصة مواتية للتخلص من التزاماته المالية والهجوم على هذه العناصر وأخذ عدداً كبيراً

(1) Bury, op cit 321.

(2) Ibid., 321.

منها أسرى لإحلالهم محل الجراحمة . ونجح في مهاجمة العناصر السلافية القيمة بالقرب من سالونيك وجمع عدداً كبيراً حاربهم معه إلى آسيا الصغرى ^(١)

* ووزع الإمبراطور جستنيان الثاني العناصر السلافية على أشد جهات آسيا الصغرى بصفة طيحات المسلمين ، والتي كانت تقع على طريق زحفهم صوب القسطنطينية . فكون منهم فرقة كبرى بلغت ٣٠.٠٠٠ جندي ، وجعل مقرها الرئيسي في المنطقة المطلة على الدردنيل ، والتي عرفت بذلك ببند أوبسيكيون (Opsikion) أو ببند الفرق الإمبراطورية ^(٢) . وكانت هذه المنطقة محط رجال القوات الإسلامية حيث جاهدت على إقامة بقعة لتركازها هناك قبل عبورها المياه لحصار القسطنطينية . وأراد جستنيان بعد ذلك شد أثر جماعات السلاف بنقل عدد كبير من أهالي جزيرة قبرص إلى بند الأوبسيكيون أيضا . وكانت خطوته تحمل في طياتها الكثير من العسف والعتب ، إذ واجهت السفن التي تقل أهالي قبرص عاصفة عاتية أغرقت الكثيرين ، ولم ينج إلا القليل عاد أدراجه إلى جزيرة قبرص ^(٣)

استئناف الجهاد ضد البيزنطيين :

ولسكن شرعان ما حدث الانفجار بين عبيد الملك بن مروان وجستنيان الثاني حول مسألة القراطيس ، أو الورق الذي كانت تستورده الإمبراطورية البيزنطية من الدولة الإسلامية ، وتدفع مقابل ذلك دنانير بيزنطية ، كانت العملة السائدة في البلاد الإسلامية . وكانت مصر هي القطر الذي يصدر القراطيس للدولة البيزنطية منذ تبعيتها لها قبل الفتح الإسلامي . وجرى عادة أقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعبارة الثالوث في رؤوس الطوامير أو قطع الورق الكبيرة .

(١) Bury, op cit II, 336.

(٢) Bury, op cit II, 323.

(٣) Ibid, 323.

ولكن عبد الملك بن مروان رأى أن هذه الصيغة لا تتفق ومظهر الدولة الإسلامية الجديدة . فأمر أن يستبدل بهذه الصيغة عبارة « قل هو الله أحد »^(١) .

ووصلت هذه القراطين الجديدة إلى الإمبراطورية البيزنطية وأحدثت ضجة كبرى في البلاط البيزنطي ، إذ غضب الإمبراطور جستنيان الثاني واستكبر قيام الدولة الإسلامية بهذا العمل الجديد . فكتب إلى الخليفة عبد الملك « إنكم أحدثتم في قراطينكم كتاباً نكروه ، فإن تركتموه ، وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تسكرهونه »^(٢) وأغضب هذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيراً ، وخشى اضطراب أحوال العملة بسبب تهديد الإمبراطور البيزنطي ، وما قد تحدثه من أثر سيء في نفوس عامة المسلمين ، إذ أن الدنانير البيزنطية كانت العملة الرسمية للتجارة في الأسواق الإسلامية ومع الدول الخارجية .

ولكن هذه الأزمة أثبتت قوة التعاون والتآزر بين أفراد البيت الأموي جميعاً ، ونفانيهم في العمل على عزة المسلمين . إذ أشار خالد بن يزيد على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقراطين الجديدة دون أن يخشى تهديد البيزنطيين ، فقال : « يا أمير المؤمنين حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير »^(٣) . وجاء هذا الحل يلجأ شافياً للخليفة ، ورأى أنه يصاحب خطوة أساسية تصبغ الدولة الإسلامية بصبغة عربية ، وخلق وحدة اقتصادية في العملة خاصة بها .

وأقبل عبد الملك على سك دنانير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن ، وعرفت باسم الدنانير الدمشقية^(٤) . وخلّص عبد الملك بذلك الدولة الإسلامية من رقة العملات الأجنبية التي كانت متداولة فيها منذ زمن بعيد . إذ كانت دنانير

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٤٩ .

(٤) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٢١ .

بيزنطة نزل إلى بلاد الغرب منذ الجاهلية ، وتعتبر العملة الأساسية في المعاملات التجارية الكبرى ، على حين يستخدم الدرهم الفارسي في المعاملات المحلية . وظل أمر العملة الأجنبية معالفاً في الشؤون التجارية الإسلامية حتى نسب الخلاف بين عبد الملك وجستيان الثاني ، حيث ضرب عملته الجديدة (سنة ٧٥/٧٤ م) ليخلص من تهديد البيزنطيين . ولم يحدث هذا التغيير انقلاباً في أحوال الدولة الإسلامية لأن الناس سرعان ما تعاملوا بالنقود الجديدة ، ووجدت الجماعات التي نشأت عن استعمالها قسوة وعقاباً صارماً من الخليفة^(١) .

ونجم عن العملة الإسلامية الجديدة تحديد الصراع الحربي بين المسلمين والبيزنطيين ، حيث انتقل الأمر من مجرد تهديد ووعيد إلى ضليل السيوف . إذ أرسل الخليفة عبد الملك في سنة ٦٩٢ م التزاماته المالية للدولة البيزنطية ، نظير إبعاد الجراجمة ، من هذه العملة الجديدة . فرفض جستيان الثاني قبول هذه العملة الخالية من صورة الأباطرة البيزنطيين ، وأخذ يتحرش بالمسلمين ويهاجم أراضيهم . ولكن صادفت هذه الأعمال انتهاء الخليفة عبد الملك من مشاكله الداخلية كلها ، وعول على إلقاء درس قاس على الإمبراطور المغرور .

استعمل عبد الملك جهاده للدور عن أرض الإسلام بالزحف على قيليقيا بآسيا الصغرى ، واصطدام عند مدينة سيواس (Sebasteopolis) بالقوات البيزنطية ، التي كانت تضم عدداً كبيراً من العناصر السلافية التي وضعها جستيان في بند أو سيكيون . وجاء الإمبراطور نفسه على رأس هذه القوات لمحاربة المسلمين ، محدوده الآمال في الانتصار عليهم . ولكن المسلمين ، ذوي آمال الإمبراطور ، إذ دارت رحى الحرب على قواته بسبب انضمام العناصر السلافية فيها إلى المسلمين . وكانت هذه الجماعات السلافية تتخذ على الإمبراطور وترفض طاعة أو أمره ، ومن

(١) البلاقرى ، نفس المرجع ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٠ .

ثم دخلت غالبيتها في التبعية للمسلمين حين ستحت لها الفرصة في معركة ميواس،
وحاربت إلى جانب المسلمين أيضاً في هذه المعركة ضد من تبقى من قوات مع
الإمبراطور جستنيان^(١).

وعاد الإمبراطور بعد هزيمته هاربا مع فلول جيشه متوجها إلى البسفور.
وكان يصحبه بعض جند السلاف ممن بقى على الولاء له. ولكنه ارتكب خطأ
فاحشا مع فلول السلاف بسبب خنقه على خيانة زملائهم، إذ جمعهم عند مدينة
ليوكاتا (Leucata) وقتلهم جميعاً، شاقياً غليظة مما فعله بنى جلدتهم من التخلي
عنه والانضمام إلى المسلمين.^(٢) ونجم عن هذه الحادثة أن أصبح جستنيان الثاني
موضع كراهية السلاف جميعاً المقيمين في سائر أنحاء آسيا الصغرى، وغدوا أداة
مستعدة لخدمة المسلمين في أى نضال حربى ينشب بينهم وبين البيزنطيين^(٣).

واستفاد المسلمون كثيراً من ولاء السلاف لهم، إذ كانوا على علم بدروب
آسيا الصغرى والسهالك التى تصل بين مدينها المختلفة. فقاموا بوظيفة الأدلاء
للجيوش الإسلامية، يهدونها إلى أسهل الطرق وأيسرها الاستيلاء على المعقل
الحامى بهذه البلاد. ولذا تابعت الجيوش الأموية انتصاراتها وإغاراتها على مدن
آسيا الصغرى دون أن تلقى جهداً كبيراً.

(1) Bury, op cit II, 323.

(2) Bury, op cit, 322.

(3) Ibid, 322.

الحصار الثالث للقسطنطينية

الاستعدادات الدفاعية والبيزنطية

لم تتغير سياسة البيت الأموي تجاه القسطنطينية رغم انتقال الخلافة من الفرع السفلي إلى المرواني . فثلاثا كرس معاوية بن أبي سفيان ، زعيم الفرع الأول ، جهودا لحشد قوى الدولة الإسلامية لضرب القسطنطينية ، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان زعيم الفرع الثاني في البيت الأموي مهد الطريق لأبناءه من بعده على الجهاد ضد عاصمة البيزنطيين وتخليد اسمهم في سجل التاريخ الإسلامي .
دفع النظام الذي سلكه لأبناء دولة مستقرة الأركان يسودها الهدوء والنظام ، وأحيى في نفوس أهلها حب الجهاد ضد البيزنطيين ، والتطلع مرة أخرى إلى إذلال عاصمتهم وما بها من أباطرة تملأ نفوسهم اليقضاء والكبرياء الأجوف .

وكان الوليد بن عبد الملك خير خلف لأبيه ، إذ تابع الفتوحات التي بدأها أبوه في آسيا الصغرى ، وجعل هدف حركاته الحربية الاستيلاء على المعامل الهامة الواقعة في الطريق الرئيسي المؤدى إلى القسطنطينية . واستهل الوليد تنفيذ خطته الجديدة بحصار مدينة طوانة (Tyana) مفتاح الطريق الهام بين الشام والبيشاور ، والذي تسلكه الجيوش الإسلامية في طريقها لمهاجمة القسطنطينية . وحاصر المسلمون هذه المدينة عامين متتاليين ، لشدة تحصيناتها ولاستقامة البيزنطيين في الدفاع عنها . وأرسل الإمبراطور جستنيان الثاني قائدين من قادة الدولة على رأس قوات من الجند النظامي ، ومعهم عدد من الجند غير النظامي كذلك لإبادة المدينة وتخفيف حدة الهجوم عن حامياتها . ولكن المسلمين قضوا على هذه الامدادات ، وتابعوا حصارهم للمدينة . ولم تجد الحاميات البيزنطية مفرأ من التسليم بعد أن أنهك الجوع جندها وضحج سكان المدينة من العناء . ودخلت

الجيش الإسلامي مدينة الطويلة سنة ٧٠٧ م ، وأصبحوا يتحكمون في أهم معامل إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ^(١).

وتابع المسلمون إغارتهم على مدن آسيا الصغرى ، وامتازت سنوات ٧١٠ م ، ٧١١ م بما لازم الجيش الإسلامي من توفيق في نشر الدغم والاضطراب بين صفوف الجنود البيزنطيين . وفي سنة ٧١٢ م وصلت الجيوش إلى البسفور واستولت على بعض المعاقل المهمة بالقرب منه ^(٢) . وكانت هذه العمليات الحربية الإسلامية حملات استطلاعية وتهديد الزحف المباشر على العاصمة البيزنطية . وساهم الأسطول الإسلامي في الحركات الحربية كذلك ومن ثم وجد البيزنطيون على حال المسلمين ودياً على إيقاف زحفهم صوب ~~البحر~~ ^{البحر} . إذ أمر الأسطول البيزنطي في سنة ٥٩٠ / ٧٠٩ م خالد بن ~~البحر~~ ^{صاحب} البحر ، أي أمير البحر على السفن الإسلامية . فبادر الأسطول البيزنطي إلى إعادته للخليفة الوليد مدالاً على رغبته في استئناف العلاقات الودية مع المسلمين ^(٣) . وانتقل الخليفة الوليد بعد نجاح جيوشه في السيطرة على معاقل آسيا الصغرى المهمة إلى إعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية نفسها . وكان الإمبراطور البيزنطي إذ ذاك هو أنسطاس الثاني (Anastasius) الذي أدرك الفوضى التي سادت أقاليم آسيا الصغرى الحربية ، وانتقلها إلى القادة الأكفاء والجنود المدربين . فبدأ الإمبراطور بقوة جبهة آسيا الصغرى لمواجهة الحملات الإسلامية المتكررة . وعين على بغداد أناتوليا ، أي الإقليم الحربي الشرقي بآسيا الصغرى ، قائداً أعدته الأحداث لأن يلعب دوراً هاماً في قصة الحملة الإسلامية الكبرى التي كانت تعد لمهاجمة القسطنطينية .

وكان القائد البيزنطي الجديد يدعى ليو ، من مواطني المنطقة الجبلية

Bury, op cit II, 362

٨٨

٨٨

Bury, op cit, 292. (٢)

(٣) القليوبي ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ٦٨٠ .

في إقليم إيسورة ، ولكنه قضى فترة طفولته في مدينة سمرعش (Germanica) على الحدود الإسلامية البيزنطية . وذلك أتبع له أن يعرف اللسان العربي وأن يفهم تقاليد الإسلام ومطامح المسلمين . وعند ما شب وتعرّج ظهرت عنده ملكة حب الخداج وإيقاع الفرقة بين طوائف الناس . فأوفده الإمبراطور جستنيان الثاني إلى القبائل الضاربة على حدود الإمبراطورية في الشمال ليشد بؤر الفرقة والشتاق بينهما . وعاد مكثلاً بالنجاح من مهمته على عهد الإمبراطور انطاسي الثاني ، الذي كان يبحث عن رجال جدد يعهد إليهم بإدارة الأقاليم الحربية في آسيا الصغرى ، ولا سيما بعد أن تحوالت حملات المسلمين عليها إلى نشاط منظم هدفه الاستيلاء على القسطنطينية . فاختار الإمبراطور انطاسي الدبلوماسي ليو إيدير إقلم أناتوليا بآسيا الصغرى^(١) . ومهد ذلك لهذا القائد طريق الاحتكاك بالمسلمين خلال أحداث حصاره الثالث للمدينة القسطنطينية .

وفي الوقت الذي كان الإمبراطور البيزنطي يرفع فيه شخصية ليو إلى مسرح الأحداث ، كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعد شخصية أخرى اضطلمت ببطولة الحصار الأموي الثالث لمدينة القسطنطينية . إذ عهد إلى أخيه مسلمة ابن عبد الملك إدارة دفة الحملات الإسلامية التي استمرت على معظم المعقل البيزنطي بآسيا الصغرى ، والمؤدية إلى القسطنطينية . وبذلك أصبح مسلمة القائد الأموي الجديد يتولى الحملة الإسلامية التي أخذ الوليد يعدها لغرب القسطنطينية ، ويتوَجَّع مجهوداته بالاستيلاء على عاصمة البيزنطيين .

وأقبل مسلمة بن عبد الملك على مساعدة أخيه الخليفة الوليد في تجهيز الحملة الإسلامية القاصدة حصار القسطنطينية . وكانت الاستعدادات الإسلامية واسعة النطاق بحيث تزامت أثناء هذه الحملة إلى السلطات البيزنطية في العاصمة سنة

(١) Büry, op. cit II, 374 .

٧١٥ م . فأوفد الإمبراطور أنسطاس سفارة إلى دمشق لنتباحث مع السلاطات الإسلامية في شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكن زود السفارة البيزنطية بعمليات سرية تقضي التجسس على مدى استعداد المسلمين للحرب ، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية . وكان رئيس هذه السفارة رجلاً خفيفاً يدعى دانيال (Daniel) حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التي تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره ^(١) .

ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق شاهدت عظمة المسلمين في عاصمتهم ، وشاؤ الخليفة في إعداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية . فمادت السفارة بحمل إلى الإمبراطور البيزنطي صدق عزيمة المسلمين على الجهاد ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة . وبعد أنسطاس تعليمات السفارة ، فأعان في القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فرد أن يحزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته . ثم ملأ الخزان الإمبراطورية بكيات هائلة من القمح وغيره من الحاجات التي يتطلبها المدافعون عن المدينة . واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ولا سيما الجهات المطلقة منها على المياه ، حيث كان القذاعي قد دس فيها ، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع ^(٢) .

وفي تلك الفترة من الاستعدادات الإسلامية البيزنطية توفي الخليفة الوليد . ولكن الم شروع الإسلامي لحصار القسطنطينية سار قدما دون أى تغيير ، إذ تبناه أخوه سليمان بن عبد الملك ، الذى خلفه على عرش الدولة الإسلامية بحماس أشد قوة . فقد بلغ اهتمام المسلمين في أرجاء الدولة الإسلامية شأواً كبيراً

(1) Bury, op. cit 371.

(2) Ibid. 371.

بالمساهمة في مجهودات الخليفة سليمان^(١) . وتكاثفت مصر والشام وشمال إفريقيا على تزويد الحملة الإسلامية بكل ما يحتاج إليه من عدة وعتاد . فأبحر أسطول من مصر إلى سواحل الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان ليصنع منها سفن جديدة في دور الصناعة بمصر ، لتعزيز الأسطول الإسلامي المتجه لحصار القسطنطينية . وعلم الامبراطور انسطاس بأخبار نشاط المسلمين وإزدیاد استعدادهم الحربي على عهد الخليفة سليمان ، وآثر أن يعرقل هذه الاستعدادات ولا سيما البحرية منها . لأنه أدرك أهمية الدور الذي ستطلع به السفن الإسلامية . فعمد إلى مهاجمة الأسطول المصري وتخريب الأخشاب قبل عودتها إلى مصر . وعهد إلى جند إقليم أو سيكيون (أي إقليم فرق الحرس الامبراطوري) بتنفيذ هذه المهمة . ولكن بامت مجهودات الامبراطور انسطاس الثاني بالفشل لعصيات الفرق الامبراطورية لأوامره وكرهيتها له . إذ شقت عصا الطاعة حين وصلت جزيرة رودس في طريقها لمهاجمة سواحل الشام ، وقتلت القائد الذي عينه الامبراطور عليها لإدارة عمليات الهجوم ، وعادت إلى القسطنطينية وعزلات الامبراطور^(٢) وعينت على العرش امبراطور آخر^(٣) .

سير الحملة الإسلامية :

رأى الخليفة سليمان بن عبد الملك ملامة أحوال الامبراطورية البيزنطية لقرب القسطنطينية ، ولا سيما بعد أن سرى الفساد في جميع مراقبها وإدارتها . فأعد في دابق بشمال الشام معسكراً كبيراً ليكون مقراً لإدارة دفعة العمليات الحربية ضد القسطنطينية . وقضى الخليفة معظم وقته في هذا المعسكر ليشراف

(١) الطبري ، نفس المرجع . ج ٨ ، ص ١١٨ .

Bury, op cit, 372. (٢)

Ibid, 372-373 (٣)

بنفسه على سير العدل فيه ، « وأعطى الله عهداً أن لا يتصرف حتى يدخل الجيش
الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية » ^(١) .

وفي سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م تحركت الجيوش الإسلامية نحو القسطنطينية تحت
قيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة نفسه ، وأمر سليمان أخاه « أن يقيم عليهما
(أى على القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتيه أمره » ^(٢) . فبعث مسلمة أحد
قواده ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع له الطريق عبر آسيا الصغرى .
وتوغل سليمان في إقليم أناتوليا (أى الأقليم الشرقي) حتى بلغ حاضرتة وهي مدينة
عمورية ، التي كانت منذ أيام معاوية بن أبى سفيان مقصد الجيوش الإسلامية
الزاحفة على القسطنطينية . وألقى سليمان الحصار على هذه المدينة ، وعلم إذا ذلك
أن حاكمها المدعو ليو ، يدين مركزه الامبراطور السابق انسطاس ، ويناضى
الامبراطور تاوديسيوس الثالث القابع على أزمة الحكم بالقسطنطينية .

وبدأ القائد سليمان يدبر خطتها هدفها القبض على ليو وإدخاله في التبعية
للمسلمين ، والاستفادة من خبرته في هدم الامبراطورية البيزنطية . فكتب إلى
ليو خطاباً جاء فيه « نحن نعلم أن مآل الامبراطورية الرومانية إليك ، فأخرج
لنا اتفاق على شروط الصلح » ، ثم أمر القوات الإسلامية المرافقة أمام أسوار
عمورية بأن تهتف « بحيا الامبراطور ليو » ^(٣) . وأجاب ليو على خطاب سليمان
متسائلاً « لماذا يحاصر المسلمون مدينة عمورية إذا كانوا يريدون عقد صلح
معه ؟ » . فرد عليه سليمان مبيناً « أن الحصار سيرفع عن المدينة عندما تبدأ
المحادثات الرسمية بينهما » ^(٤) .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٣) Bury, op. cit., 376 .

(٤) Bury, op. cit., 379, 380-381 .

وأدرك أيو أن المسلمين سيواصلون الزحف على القسطنطينية ، وأنه لا بد أن يسلم لهم . فبیت أمراً خطيراً احتفظ به لنفسه فقط ، وهو أن ينضم إلى الجيوش الإسلامية متظاهراً بإرشادها إلى ما يجب أن تفعله للاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن ليصل بذلك إلى العاصمة نفسها ويحصل على العرش ، ثم يقف بنفسه مناهضاً الجيوش الإسلامية . فدخل أيو في مفاوضات مع المسلمين أعلن لهم فيها انضمامه إليهم ، وطلب منهم زرع الحصار عن عمورية ، ثم صاحب الجيوش الإسلامية بعد نجاح مفاوضاته فاصداً القسطنطينية . وكسب أيو من وراء ذلك ولا أقل عمورية الذين حفظوا له نعمتهم ويلات الحصار ، ونادوا به امبراطوراً على الدولة البيزنطية (١).

ولكن أعداء أيو تهموه بتفريطه في الدفع عن إقليم أناتوليا ، وبمخالفة المسلمين ، وتسببه سبل الطمأنينة والراحة لهم عبر آسيا الصغرى . وكان هذا الاتهام عاملاً جعل أيو موضع ثقة المسلمين ، وسمحوا له بأن يسبقهم إلى القسطنطينية ليهد لهم سبل الاستيلاء عليها . وبدأ أيو حينئذ ينفذ ما عزم عليه من الحصول على السلطان وعرش الامبراطورية . فأخذ يعمل على إضعاف جبهة الامبراطور نادرسيوس الثالث المقيم بالقسطنطينية ، والنفوس في طوره ومسراته . وكان هذا الامبراطور يعتمد في قوته على الجند المقيم في إقليم أوبسكيون ، أي جند الفرق الامبراطورية ، ونصب عليها ابنه قائداً لينحقق لنفسه أسباب الطمأنينة والسلام . ولذا ناهض ابن الامبراطور حركات أيو واستمد اصداءه عند مدينة نيقوميديا بآسيا الصغرى . ولكن أيو تمكن من هزيمة ابن الامبراطور ، وعبر السفور إلى القسطنطينية . واستطاع أن يقتحم المدينة من باب الذهب ودخلها ليوطد نفوذه بها . إذ سرعان ما كشف عن نواياه الحقيقية عندما احتل العاصمة ، وأخذ يعمل على الوصول إلى العرش الامبراطوري . واستغل أخبار الحالة الإسلامية

(١) Bury; op. cit. 381, 382.

وقرب وصولها إلى القسطنطينية ليجذب الأنصار حولها . فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل ، وأن جيش المسلمين قوى العدد والعناد ، وأن الموقف يتطلب شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التي تواجهها . وساعد ليو على نجاح دعوته العناصر الآسيوية المقيمة بالقسطنطينية ، إذ انضمت إليه ونادت به امبراطورا^(١) .

وفي ٢٥ مارس سنة ٧١٧ م عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة ، قرر عزل نادر واسيوس عن العرش وتعيين ليو امبراطورا تحت اسم ليو الثالث^(٢) . وبذلك حقق ليو ما كانت تصبو إليه نفسه من آمال ، حيث وصل إلى أعلى مركز في الامبراطورية . ولكن لم يتمتع بهذا الظفر طويلا ، إذ كانت الجيوش الإسلامية تقترب حينها من القسطنطينية ، مضصة على إزال أشد ألوان الهوان بها . وكان ليو يعلم الكثير عن مطامع المسلمين وأغراضهم في هذه الحملة الكبرى ولا سيما أنه صاحب جيوشها فترة من الزمن ، فأمر ع في تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار الإسلامي المنتظر .

الحصار الإسلامي :

كان أمام ليو فترة خمسة شهور لإتمام استعداداته الحربية ، إذ قضى للسلطان هذه الفترة في تدعيم خطوط مواصلاتهم وتأمين مؤخرتهم . فاستولى مسلمة بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندي على مدينة برجام ، ثم عبر الزردنيل عند أيدوس وعسكر أمام أسوار القسطنطينية في ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م^(٣) . وكان مسلمة يدرك أهمية تدبير مؤونة جيوشه ، فأمره كل فارس أن يحمل على مخزن قوسه

(1) Bury, op cit, 383.

(2) Bury, op cit, 383.

(3) Bury, op cit, 401.

مدین من طعام حتى يأتي به القسطنطينية»^(١). واحتفظ بقدر كبير آخر من المؤن لتزويد جنده بها أثناء الحصار.

وبعد ستة عشر يوماً من وصول مسلمة إلى أسوار القسطنطينية، دخل مياه البسفور في أول سبتمبر أسطول إسلامي كبير، مكون من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة. وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية والبحرية لإنهاء حافة الحصار على القسطنطينية. فأخطعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية، على حين عمد سليمان أمير البحر المسلم على سد المنافذ والمسالك المائية التي يمكن أن تحصل منها العاصمة على الأمداد والمؤن، ثم حصار أسوار المدينة البحرية كذلك. فاحتل الأسطول الإسلامي مدخل البسفور الجنوبي لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجه كذلك. ثم انتهر أمير البحر فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة وبعث شطراً من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالي لمنع وصول أي مدد يأتي المدينة من البحر الأسود، ولأبداً أن شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التي تزود القسطنطينية بالقلال^(٢).

وسارت السفن الإسلامية السكبري سيراً بطيئاً رغم الرياح المواتية بسبب التيار المائي الشديد الذي يتدفق من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة. ثم غيرت الرياح اتجاهها فجاءت أن الأحوال الجوية في تلك المنطقة. فاحتل سير السفن سوء الأحوال الطبيعية ورداءة الملاحة في هذه المياه الإقليمية لقسطنطينية. ولذا انتهر البيزنطيون هذه الفرصة، وبعثوا سفنهم الحاملة بالدار الإغريقية ليزيدوا من مناعب السفن الإسلامية^(٣). ويلاحظ أن أيو لم يجرؤ على إرسال سفنه

(١) الطبري، نفس المرجع، ج ٨، ص ١١٢.

(٢) Bury, op cit, 401, 402.

(٣) Bury, op cit, 402.

إلا بعد أن ساءت الأحوال الجوية ، وأن سفن الفار البحرية ليست هي العامل الأول أو الرئيسي في منع أمير البحر المسلم من إكمال حلقة الحصار البحري للقسطنطينية .

وحاصر المسلمون القسطنطينية حضاراً فاسياً شديداً رغم بقاء جهتها المطلة على القرن الذهبي مفتوحة . وظل الحصار مستمراً حتى جاء الشتاء ، وهو فارس جد ، ويعتبر من العوامل الطبيعية الأخرى التي تعتمد عليها القسطنطينية في الدفاع عن نفسها وإطالة مدة مقاومتها . غير أن مسألة احتياط هذه العوامل الطبيعية لا وعمل بيوتاً من خشب ، شتافها وزرع الناس . . . وأقام بالقسطنطينية تاهراً لأهلها ، ومة وجوه أهل الشام ^(١) . وبرهن المسلمون بهذا الثبات طول الشتاء القارس أنهم أولى بأس وعزم صادق في الجهاد ، وأنهم حريصون على رفع راية الإسلام في كل مكان .

و تطلع الربيع وصلت تجذات بحرية ويزيرة للقائد مسلمة بن عبد الملك . فجاءه أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد . وتمازى هناك القائدان مع مسلمة ، لأن أمير البحر السابق سليمان توفي من قبل أثناء الشتاء . وكذلك وصلت تجذات بحرية بقيادة رجل يدعى مرداس ، عبرت آسيا الصغرى عن طريق أبواب قيليقيا ، وعسكرت في نيقوميديا ونيقيا . وأخذت القوات الأخيرة تهاجم من شواطئ إقليم أو بيسكيون الحرى ، المعروفة بالشواطئ ، البحرية « Paratie coast » المدن البيزنطية التي تحاول الخروج ، طلباً للحصول على حصيد بحري يغذى سكان العاصمة ، أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئها ^(٢) . واستخدم المسلمون النفط ، واستعانوا بنوع أسية بالمدفعية في حصار القسطنطينية .

(١) الطبري ، نفس المراجع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .

(٢) Bury, op cit 403 .

وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بطلان روحهم المعنوية وحبهم للاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الاسلام^(١) . وظهر من الجند الاسلامي رجل يدعى عبد الله البطال ، وكان كبير حراس مسلمة بن عبد الملك . فقد أبلى في هذا الحصار بلاءاً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال . واستشهد هذا البطال في معركة نالقة (٧٤٠ م) بعد انتهاء الحصار الاسلامي ، حيث كان دائماً على الجهاد . وعرف في القصة التي تداولت عن شجاعته باسم السيد غازي ، واعتبره الأتراك فيما بعد بطلاً من أبطال أمتهم . وأنشئ على قبره بالقرب من إسكي شهر تسكية ومسجداً لأبناء الطريقة البسكتاشية لا يزالان إلى اليوم . وتسرّد القصص عن البطال أيضاً أن البيزنطيين رسموا صورته على بعض كذاشهم لذكور الناس بما له من بأس وسطوة بين جند المسلمين^(٢) .

وفي تلك الفترة التي اشتد فيها الحصار الاسلامي لمدينة القسطنطينية ، تولى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وتردد صدى هذا التغيير في ميدان الحملة الاسلامية المحاصرة للعاصمة البيزنطية . إذ كان الخليفة سليمان يمثل عصر أوج الفتوحات الاسلامية ، مما جعله يبدي اهتماماً بالغاً بإمداد الجيوش الاسلامية أمام القسطنطينية بكل ما يكفل لها السيادة والقوة . ولكن أحوال الدولة الاسلامية على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز اقتضت إيجاد فترة استقرار في تيار الفتوحات لتدعيم الصرح الاسلامي العظيم الذي ظهر وعلا . إذ غدت الدولة الاسلامية تمتد من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ، ومن بحر آرال شمالاً إلى شلالات النيل السفلى جنوباً . وأصبحت بذلك تزد سائر الامبراطوريات الكبرى التي عرفها التاريخ من قبل ، وتفضي أوضاعها الزمنية توجيه الجهود إلى تنظيمها وتأمين رقعتها قبل الاستمرار في الفتح والتوسع .

(١) العيون والمذاقي ، ج ٣ ص ٢٤ .
(٢) Hill, History of Syria, 449.

ولذا اتجهت أنظار الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى سحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية . فأرسل في ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م ٨٠ ألف جندي حصار دام اثني عشر شهراً كاملاً ، يطلب من مسلمة العودة بحبوشه وأساطيله إلى الشام . وهكذا عادت الجيوش الإسلامية إلى قواعدها بعد أن أدت رسالتها في إعزاز دولة الإسلام ، وحلت عاصمة البيزنطيين وأباطرتها على التخلي عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة في استعادة سالف أراضيهم التي دخلت في رقعة الإسلام . وترك الخلفاء الأمويون بحملاتهم المتكررة على القسطنطينية سجلاً حافلاً بجهودهم في نصرته الإسلام ، وحافداً جعل خلفائهم من الدولة الإسلامية يتطلعون للاستيلاء على هذه العاصمة . وظلت رسالتهم ماثلة حتى حقت في شعب إسلامي فتى ، هم الأتراك العثمانيون ، بعد انقضاء سبعة قرون تقريباً على الحملة الأموية الكبرى زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك .

وإذا كان الأمويون قد تركوا مهبة الاستيلاء على القسطنطينية لغيرهم من المسلمين ، فإن جهودهم وحملاتهم على هذه العاصمة لم تضع سدى ، إذ تردد صدى هذه الحملات في إقليم شمال إفريقيا ، الذي اتجهت إليه جيوشهم أيضاً لطرد البيزنطيين منه ، وضمه إلى رقعة الإسلام . فقد صرقت أحداث الحصار الأموي للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقيا ، واعتبروا حماية هذا الإقليم في المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم . وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية ، حيث جعلوا من شمال إفريقيا ركناً هاماً من أركان الدولة الإسلامية القوية الأوتاد .

الفصل الرابع

استيلاء الأمويين على شمال إفريقيا وإقصاء البيزنطيين

المغرب قبل العصر الأموي

إفريقية البيزنطية

حل الأمويون راية الجهاد ضد البيزنطيين في كل مكان ، وتعقبهم في كل بقعة يمكن أن تتخذ قاعدة يهاجمون منها أرض الإسلام ، وكانت الجبهة الجديدة التي اتجه إليها الأمويون هي شمال إفريقيا البيزنطية . وقد آلت هذه البلاد إلى الامبراطورية البيزنطية بعد انهيار الدولة الرومانية الكبرى ، واشتملت على الساحل الممتد من برقة إلى طنجة . واعتمدت السلطات البيزنطية على موارد الغلال بهذه البلاد في تمويل زعائها بالعاصمة ، فضلا عن أخذ أخشابها لبناء أساطيلها^(١) . وهذا يوضح أهمية الدور الذي قام به الأمويون لاقتزاع هذه الأراضي من البيزنطيين ، وتقليل مجهوداتهم على الحدود الشرقية بآسيا الصغرى .

وكان سلطان البيزنطيين غير مستقر في هذه الرقعة من تمسكهم قبل قيام الفتوحات الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط . إذ ساءت العلاقات بينهم وبين سكان البلاد ، ولا سيما أبناء البلاد الأصليين^(٢) ، الذين ظفروا بعيدين

(١) Brehier, Vie et Mort de Byzance, 26.

(٢) حنين مؤنس ، فتح العرب للمغرب (١٩٤٧) ص ٥٠ .

ويعتبر هذا الكتاب أحدث مرجع تناول في أسباب فتح المسلمين للمغرب ، ويضم =

عن حضارات البحر الأبيض المتوسط . وكان الرومان يطلقون كلمة بربر (Barbāri) — على نحو ما فعل اليونان من قبل — على سائر العناصر التي لا تدين بحضارتهم . ومن ثم لصق هذا الاسم بسكان شمال إفريقيا الأصليين ، وظل شائعاً حتى جاء المسلمون واتخذوا نفس الاسم للدلالة على سكان المغرب دون تغيير في مدلوله ^(١) .

وقد انقسم أولئك البربر إلى قسمين متباينين كان لهما أبعد الأثر فيما بعد في الصراع الذي نشب بين المسلمين والبيزنطيين . القسم الأول يشمل على البربر المستقرين المقيمين في النواحي الخصبة المحيطة بجبال أوراس ، وهي جنوب ووسط الجزائر الحالية ، وجنوب مراکش وبعض أجزاء من تونس الغربية . وكان هذا القسم على جانب من الحضارة لقيام نوع من العلاقات بينه وبين البيزنطيين المستقرين في البلاد ، واشتغل بالزراعة والصناعة ^(٢) .

وكان القسم الآخر من البربر يضرب في الجهات الصحراوية التي تلي منطقة جبال أوراس ، وفي الواحات التي تقع في المنطقة الجنوبية والشرقية من الصحراء . ودأب أولئك البربر على مهاجمة أراضي البربر المستقرين ، حتى ظهر نوع من العلاقات بين البربر المستقرين والبيزنطيين لصد عدوان البربر البدو . واستغل البيزنطيون هذه العلاقات حين وحف المسلمون على شمال إفريقيا ، وظلوا يعتمدون عليها في المقاومة حتى تمكن المسلمون من ضم البربر البدو إليهم وسيطروا على شمال إفريقيا . وهكذا كان الشقاق بين عنصرى البربر من العوامل التي أطالت عهد البيزنطيين بأراضيهم . ولما كان نفوذهم غير مستقر ، حيث بسط البربر البدو

معلومات قيمة أشير على القارىء بالرجوع إليها يريد أن يتوسع فيه من آراء جاءت في هذا الفصل . وقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في مناقشة أحداث الفتح ومبطلات سنواتها .

(١) Gibi, History of the Arabs, 214.

(٢) حميد مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٦ .

لإغاثتهم على سائر الأراضي التابعة للبيزنطيين بالساحل^(١).

و زاد في عدم استقرار النفوذ البيزنطي في شمال إفريقيا أن حكام هذه
الولاية جنحوا في الفترة السابقة لحركة امتداد الزحف الإسلامي إلى الاستقلال
بشؤونهم^(٢). إذ ظهر على مسرح الأحداث أسرة عسكرية من سلالة أحد الحكام
البيزنطيين يدعى جرجور يوس^(٣)، تولى حكم إفريقيا البيزنطية سنة ٦١٠ م ،
واعتمدت البلاد منسكاً لهم^(٤). واتجه آل جرجور يوس إلى تدعيم علاقاتهم
بالبربر ليضمنوا استقرار الأمور لهم . وظهر تفكيرهم في الانفصال عن الدولة
البيزنطية فيما بين سنة ٦٢٨ ، ٦٢٩ م حين فكر الإمبراطور هرقل في نقل
عاصمته من القسطنطينية إلى قرطاجنة بشمال إفريقيا فراراً من الزحف الفارسي .
فقد اضطرب حاكم إفريقيا ، وكان إذ ذاك يدعى جرجور يوس أيضاً ، وهو الذي
عرفه المسلمون فيما بعد باسم جرجير ، وسم على الانفصال التام حتى لا ينقل
هرقل إلى قرطاجنة^(٥).

ولم يلبث جرجير أن انتهز فرصة عدول الإمبراطور عن ترك القسطنطينية ،
وقيام الفتوحات الإسلامية في الشام فيما بعد واستقل تماماً بشؤون إفريقيا .
واعتمد في ذلك على تشجيع البابا في روما ، حيث كان يناهض سياسة الأباطرة
البيزنطيين الدينية ، وعلى مؤازرة البربر أيضاً الذين أعلنوا ولائهم لآل جرجور يوس ،
حيث آخذوهم من المطالب الباهظة ؛ وإلى جانب ذلك عصبه بعض البيزنطيين

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٦ ، ٧ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢١ .

(٣) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٤) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ ، ٥٩ . Bréhier, op cit, 59.

من أصحاب المطامع استقلال جرجير بإفريقيا^(١) . ولكن لم يهتأ جرجير باستقلاله ،
إذ ما كاد يفصل عن الدولة البيزنطية حتى كان المسلمون قد استولوا على مصر ،
ووصلت طلائع جيوشهم إلى برقة وطرابلس .

طرائع الفتح الإسلامي :

كان أنجاء عمرو بن العاص لفتح مصر ضرورة اقتضتها العمليات الحربية
وتأمين الفتوحات الإسلامية بالشام . إذ كانت مصر معقلا حصينا للبيزنطيين
وقاعدة تهدد سلامة الجيوش الإسلامية بالشام . ولكن بعد أن تم إخماد فتوح مصر
أدرك أن ذنب الأفعى البيزنطية ما زال قائما في شمال أفريقيا ، وأنه لا بد من
القضاء عليه . فقد لقت الحاميات البيزنطية بمصر مددا وعونا من شمال إفريقيا
مكنها من مقاومة الزحف الإسلامي ، وجمعت عمرو بن العاص يعرف أن برقة
وما والاها من بلاد تابعة للبيزنطيين ، ولم فيها منعة وعزة ، فضلا عن ذلك كان
أهل برقة وطرابلس بصفة خاصة على علاقات قوية مع مصر ، حتى أن بعض
قيادتها اعتبر من سكان مصر الأقباط^(٢) . وقامت بين مصر وهذه البلاد سبل
الاتصال في سهولة ويسر ، مما حفز عمرو على أن يتابع سيرة إليها بعد فتح
الاسكندرية للقضاء على ما قد يكون بها من تجمعات للبيزنطيين .

ولم يضيع عمرو بن العاص وقتا حين وجد الظروف تحمله على غزو شمال
إفريقيا ، إذ بادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري في سرية صغيرة إلى برقة لاستطلاع
أحوالها وقيادتها من إتمام فتح مصر . ولما اطمان إلى سلامة مواقفه بمصر ،

(١) Dieht, L'Afrique Byzantine, 552, 556.

حسين مؤنس ، فتح المغرب ، ص ٤٩ ، ٤٧ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٥٢ .

ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

ووصلته أنباء مشجعة من عقبة عن حالة برقة ، زحف بنفسه على تلك البلاد وفتحها .
وقد سارع البربر بالدخول في طاعة المسلمين وصالحوهم على دفع جزية كبيرة .
ودفع أهالي برقة الجزية عن طيب خاطر وبعثوا بها إلى مصر ، حتى أنه
« لم يسكن يدخل برقة يومئذ جناي خراج ، وإنما كانوا يبعثون بالجزية إذا
جاء وقتها »^(١) .

وسار عمرو بن العاص بعد ذلك إلى فتح طرابلس ، واتبع خطة تعتبر
النموذج الذي احتذاه قادة بني أمية فيما بعد لانعام فتح شمال أفريقيا . إذ تقدم
عمرو على امتداد الساحل دون أن يهمل الناحية الداخلية ، فكان يعمل على
تأمين جيوشه من الأخطار التي قد تذهبها من هذه الجهة وتدعم مركزه فيها
قبل أن يواصل زحفه على الساحل . فأرسل البعوث الحربية إلى داخل البلاد ،
نم بدأ فتح مدائن الساحل ، إذ عرف أن انتزاع الساحل من أيدي البيزنطيين
لا معنى خضوع البلاد ، ودخولها في حظيرة المسلمين . واستطاع عمرو بذلك أن
يستولى على مدن الساحل بطرابلس ، وواحاتها الداخلية دون أن يلقى مقاومة
كبيرة^(٢) .

وترجع السهولة التي سيطر بها عمرو على طرابلس إلى عدم وجود أية مقاومة
بيزنطية . ذلك أن جرجير لم يبد اهتماما بالدفاع عن برقة وطرابلس . فقد انفصل
تماما عن الدولة سنة ٦٤٦ م ، أي في الوقت الذي زحف فيه عمرو على طرابلس . ومن
ثم اتجه جرجير إلى تأمين نفسه أولا وتميز دونته الجديدة قبل أن يواجه المسلمين .
ووقع اختياره على أخذ حصون المضيق الداخلية ويعرف بمدينة سنيطة . وكانت
هذه المدينة إلى جانب منفعتها تشرف على السهل الساحلي كذلك . وما أن

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ٢٣٢ ، أبي عبد الحكيم ، نفس المرجع ، ١٧٠ ، ١٩١ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ٥٧ .

انتهى عمرو من الاستيلاء على طرابلس حتى رأى التوقف عن الزحف وطالب
أمداداً جديدة قبل استئناف السير، ثم انسحب عندما أصدر الخليفة عمر بن الخطاب
بالسكف عن مواصلة الفتح، حتى تستقر الأوضاع في مصر وغيرها من البلاد
الإسلامية^(١)

وبعد عودة عمرو بن العاص إلى مصر خرجت طرابلس عن طاعة المسلمين
واحتلها البيزنطيون مرة أخرى، أما بركة فقد ظلت على التبعية للمسلمين، وبقى
بها عقبة بن نافع، حيث قضى وقته منتقلاً بين قبائلها الضاربة حولها وبالقرب
من واحاتها. والسكن المسلمون لم يقضوا الطرف عن شمال أفريقيا، حيث
رأى خليفة عمرو بن العاص على مصر، وهو عبد الله بن سعد بن أبي مروح،
خطورة بقاء البيزنطيين في تلك البلاد بالقرب من التخوم الإسلامية.
فبعث يستأذن الخليفة عثمان بن عفان في غزو شمال أفريقيا للقضاء على جرجير
ومملكته.

أذن الخليفة لعبد الله بن أبي مروح بالزحف على أرض المغرب. فخرج على
رأس قوات كبيرة ووصل إلى سهل تونس. وكان جرجير قد تعدد أن لا يصد
زحفه، متجهاً إلى تحصين نفسه بالداخل. ووقف جرجير على أنتم استمداد عند
مدينة «عقوبة» على أميال من سبيلة. وهناك دارت معركة رهيبة تم للمسلمين
فيها الفوز وسقط فيها جرجير نفسه قتيلاً^(٢).

وتابع عبد الله انتصاره بالزحف على سبيلة نفسها، وحاصرها حصاراً شديداً
حتى سقطت، وقضى على من بها من البيزنطيين. وبسقوط هذه المدينة أصبحت
ولاية أفريقيا تحت رحمة المسلمين، فواصلوا تقدمهم حتى بلغوا سفوح الجبال

(١) البلاذري، نفس المرجع، ص ٢٢٤ بحسين مؤنس، نفس المرجع، ٦٧، ٦٨.

(٢) البلاذري، نفس المرجع ص ٢٢٤، ٢٢٥ ابن خلدون، نفس المرجع، ج ٢

مطاردين قتل البيزنطيين . إذ تفرقت قوة البيزنطيين بعد واقعة سيبطة ، وجأ معظمهم إلى حصن قسطنطين يدعى « الجمل » (Thysideras) . فسارع عبد الله بن أبي سرح وحاصر هذا الحصن حتى استولى عليه وأطاح بقوة البيزنطيين تماماً ^(١) .

وأغارت بعض السرايا من جيش عبد الله بن أبي سرح على سائر أرجاء البلاد في الفترة التي كانت تسقط فيها حصونها المهمة على الساحل . ومن ثم اضطر رؤساء البربر إلى عقد اتفاق مع عبد الله بن أبي سرح يقضي بأن يدفعوا له قدرًا معينًا من المال سنويًا ، وأن يترك بلادهم ^(٢) . وقد آثر عبد الله بن أبي سرح انتهاء فرصة عرض البربر الصلح وصمم على الرجوع إلى مصر أقله عدد الجند في جيشه ، وعدم استطاعتهم مواصلة القتال . وشجعه على العودة أنه انتهى من تحقيق هدفه وهو القضاء على قوة تجرير الثأر البيزنطي ، الذي وقف وحيداً في الميدان دون أن يتلقى أمداداً من الدولة البيزنطية .

وبذلك لم تكن حملة عبد الله بن أبي سرح فتحاً منظماً ، إذ لم يتبع خطة مرسومة على نحو ما فعل عمرو بن العاص من قبل ، كما أن حملته لم تتمخض عن نتائج لها أهميتها في استقرار الفتح الإسلامي . إذ لم يستطع عبد الله بن أبي سرح الحصول على أمداد جديدة من الخليفة عثمان تمسكه من استئناف الزحف على شمال أفريقيا . فقد أخذت تدور السخط على الخليفة عثمان فتعوررو بدأ انفضاضه أبناء البيت الأموي في إدارة الأمصار الإسلامية ، ثم شبت وترعرعت حتى غدت عاصفة هوجاء . فقتل الخليفة عثمان ، وشغل بقوامة في الدفاع عن أنفسهم تحت لواء معاوية وإلى الشام .

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٢٩ .

وانقضت فترة بلغت ثلاثة عشر عاماً تقريباً بعد عودة عبد الله بن أبي سرح
من شمال أفريقيا، ووقفت فيها المجهودات الحربية الإسلامية للقضاء على البيزنطيين
في تلك البلاد . ولكن بعد أن استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة المسلمين
وجه عنايته لمحاربة البيزنطيين بشمال أفريقيا مثلاً بدلاً من جهود الاستيلاء
على عاصمتهم القسطنطينية . وقد استفادت الجيوش الأموية الغازية لشمال
أفريقيا من انشغال البيزنطيين بالحروب دفاعاً عن عاصمتهم حتى تم لهم أخيراً
السيطرة على هذه الرقعة الهامة وضموها إلى حظيرة الإسلام .

معاوية بن أبي سفيان والمغرب

صحة معاوية بن حريج سنة ٤٥ هـ / ٦٦٦ م

أخذت موجة الفتوحات الإسلامية تنطلق مرة أخرى بعد استقرار الأمور لمعاوية بن أبي سفيان ، وانسمت في هذه الحقبة بطابع النشاط والعمل المتواصل ، إذ عهد معاوية بمشاريعه الحربية إلى رجال مخلصين خبرهم وعلم عودهم أثناء مساعدتهم له في النضال بينه وبين علي بن أبي طالب . فعين الكثير من أولئك الرجال على قيادة الجيوش الأموية لاستئناف الجهاد ضد البيزنطيين . واختص الجهة الإفريقية بال شخصية الأولى من رجاله الممتازين وهو عمرو بن العاص فأمم مصر الأول ، وواضع الحجر الأساسي لفتوح شمال إفريقيا .

وكان عمرو إذ ذاك قد تقدم به العمر ، وما زالت مشاكل الخلافة بالشرق لا تسمح بشد جيوش كبيرة افتتح شمال أفريقيا ، فأمر أن يبحث سرايا حربية صغيرة إلى رقبة وطرابلس تحت إمرة عقبه بن نافع الفهري ، دون الدخول في مشاريع واسعة النطاق^(١) . وكانت الامبراطورية البيزنطية إذ ذاك قد أخذت تولى عنايتها بشمال أفريقيا ، وتعمل على تدعيم نفوذها بها . ونجلى هذا التغيير في السياسة البيزنطية بعد واقعة ذات الصواري البحرية (٣٤ هـ / ٦٥٥ م) ، إذ بينما شغلت الدولة الإسلامية بقتل عثمان وما تلاها من صراع بين علي ومعاوية ، تحول الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني إلى العناية بشئون شمال أفريقيا .

ودفع الامبراطور قسطنطين إلى الاهتمام بأحوال شمال إفريقيا إدراكه عجز دولته عن إخراج المسلمين من الشام ومصر بعد واقعة ذات الصواري . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم دولته بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن المسلمين غدوا

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١١٦ .

قوة كبرى في البحر الأبيض المتوسط . وبدأ قنسطانز سياسته الجديدة بأن يقلع عاصمته إلى جزيرة صقلية ، حيث يستطيع من هذا المقر الآمن البعيد عن متناول الإغارات الإسلامية إعادة تنظيم صفوفه . واستهدف في الخطة الجديدة ربط ما تبقى لدولته من أملاك بإيطاليا مع إفريقيا البيزنطية ، وتوجيهها إلى صد الزحف الإسلامي الذي أخذ يمتد إلى هذا الشطر من أملاك دولته^(١).

واتبع الامبراطور قنسطانز سياسة لم تؤد الفرض المشهود ، فما أن وصل صقلية . حتى عول على معاقبة البابا مارتين بروما لتشجيعه جرجير من قبل على الانفصال عن الدولة البيزنطية . فبعث جنداً قبضت على البابا ثم قتلاه . وأعقب ذلك بإغصاب أهل شمال إفريقيا من البربر المسيحيين بسبب سياسته الدينية والمالية . إذ تابع سياسة أسلافه من قبل باضطهاد البربر بسبب عقيدتهم الدينية ، وغالاً في فرض الضرائب عليهم لئلاّ خزانته بالمال . وأخذ من عاصمته الجديدة سيراكوز صقلية يسترد بعض الأقاليم التي دانت المسلمين في شمال إفريقيا ، ويطلق عليها سياسته الخفيفة . ونجم عن ذلك أن عم السخط البلاد ودرت مؤامرة لتخلص منه نتجت في ١٢ يوليوس سنة ٦٦٨ م ، إذ اغتيل الامبراطور في عاصمته الجديدة ، وقبر معه مشروع تقوية الجبهة الغربية من امبراطوريته^(٢).

ولم تقتصر نتائج سياسة قنسطانز على إثارة السخط الخصب ، وإنما حملت البربر كذلك على الاستنجاد بالمسلمين وتخليصهم من النير البيزنطي . وجاء هذا النداء في الفترة التي عول فيها الخليفة معاوية على استئناف الجهاد ضد البيزنطيين بشمال إفريقيا . وكان عمرو بن العاص والى مصر قد توفي سنة ٥٤٣/٦٦٤ م وكان يشرف على شؤون إفريقيا إلى جانب ولاية مصر . فنصب الخليفة معاوية عقبة بن عامر

(1) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 282

(2) Hury, op cit, 302, 303

الجهنم على مصر ، وخصص لشئون شمال إفريقيا معاوية بن حديج^(١) إذا نصبه على قيادة الجيوش التي أودها لفتح تلك البلاد ، وتولى إمارة ما يفتحه منها . خرج معاوية بن حديج من مصر سنة ٤٥ هـ / ٦٦٦ م على رأس جيش كبير يضم عدداً عظيماً من الصحابة والتابعين . وسار على طول الساحل حتى وصل سهل نواص ، ونزل عند مكان يدعى قونية ، التي يرجح أنها الموضع الذي شيدت عليه مدينة القيروان فيما بعد . وكان البيزنطيون قد علموا زحف معاوية بن حديج على شمال إفريقيا ، فأعدوا جيشاً كبيراً بقيادة رجل يدعى قفور ، نزل في تلك البلاد ، ليصد زحف المسلمين . ولكن البيزنطيين أدركوا قوة المسلمين وعجزوا بالانسحاب بحراً بعد المفاوضات الأولى^(٢) .

وسار معاوية بعد ذلك شمالاً^(٣) قاصداً مدينة بنزرت . ويلاحظ أن معاوية قدس الاتجاه إلى هذه المدينة متجنباً الهجوم على قرطاجنة ، ويبدو أنه آثر الابتعاد عن المدينة الأخيرة لقوتها ومنعتها ، حيث كانت معقلاً قوياً للبيزنطيين . ولما لم يكن هجومه على بنزرت يؤثر كثيراً في مصائر الفتح الإسلامي لهذه البلاد . على أن معاوية استطاع فتح هذه المدينة ، ولقى من بعض أهالي البلاد القرية منها عطاءً ومساعدات^(٤) . وهذه الظاهرة من الأمور الهامة التي ستتم وتترعرع فيما بعد إبان الحملات الإسلامية التالية الأخرى . إذ كان ترحيب الأهالي بالمسلمين مما ساعد الجيوش الإسلامية على القضاء على البيزنطيين رغم السكر والفقر الذي تبادلته الطرفان على امتداد شمال إفريقيا .

ولم يعمل معاوية على تدعيم هذه الفتوحات الإسلامية قبل عودته إلى مصر ،

(١) كان معاوية بن حديج من كبار القواد في جيش عبد الله بن أبي سرح سنة ٣٤ هـ / ٦٥٥ م ، ومن أنصار عثمان بن عفان ، وبذل جهوداً كبيرة في نصرة معاوية في الشمال الذي تلاه عثمان الخليفة عثمان . وقد كافأ الخليفة معاوية هذا القائد بأن عهد إليه فتح شمال إفريقيا .

(٢) ابن عبد الحسك ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٣) ابن عبد الحسك ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٤) ابن عبد الحسك ، نفس المرجع ، ص ١٩٨ ؛ ابن عذاري ، البيان القريب ، ج ١ ، ص ١١ .

إذ اكتفى بهذا القدر من الفتوحات وقتل راجعاً في أوائل سنة ٥٤٧ هـ. وخرجت المدن التي فتحها عن طاعة المسلمين بعد عودته ، مما جعل حملته لا تتمخض عن نتائج لها أهميتها في فتح شمال إفريقيا . ولكن لم نلبث موجة الفتح الحقيقي أن بدأت بالحركة التي تلت أعمال معاوية بن حديج ، وكانت بطل هذا الفتح رجلاً عرف شمال إفريقيا وطائفت خبرته بها وبأحوالها .

محمد عقبة بن نافع الأولى :

تعتبر حملة عقبة بن نافع الفهري حداثاً فاصلاً بين عهد الاغارات الإسلامية السريعة على شمال إفريقيا وعهد الفتح المنظم المستقر لهذه البلاد . إذ قام بعدة أعمال في ذلك الميدان تعد الحجر الأول في بناء إفريقيا الإسلامية ، رغم أن حملته بدت كسابقتها من الحملات الإسلامية بإغارة سريعة طويلة المدى ، بلغت شاطئ المحيط الأطلسي ثم عادت أدراجها إلى قواعدها الأولى . إذ تركت حملة عقبة وراءها آثاراً جعلت قلوب المسلمين تتعلق بشمال إفريقيا ، وتعتبره قطراً من دولة الإسلام يجب طرد البيزنطيين تماماً منه وضمه إلى أرضهم .

ويعزى نجاح عقبة في وضع الأسس الأولى لبناء دولة المسلمين بشمال إفريقيا إلى خبرته الواسعة بشئون هذا الإقليم . فقد عرف أحواله منذ ولاية عمرو بن العاص الأولى ، كما دان بظهوره على مسرح التاريخ الإسلامي في هذا الميدان إلى تلك الفترة المبكرة من ولاية عمرو على مصر . فكان عقبة قرشياً من قهر بفصل يعمره بصلة قرني من ناحية أمه^(١) . وعرف عمرو فيه المقدرة والشهامة ، ووثق به ثقة كبير . فعهد إليه باستطلاع أحوال برقة ، ثم عينه عليها سنة ٦٤٣/٥٢٣ م أثناء زحفه على طرابلس . وأثبت عقبة مقيماً ببرقة حتى حملة عبد الله بن أبي سرح

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٢٠٠ (Okba) ٢٤ (١) .

سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ، ثم عاد إلى مصر حين رجع عبد الله بن أبي سرح سنة
 ٢٨ هـ / ٦٤٨ م . وقد تركت السنوات الست التي قضاها عقبة ببرقة أثراً كبيراً
 في نفسه . إذ صرف هذه الفترة في التنقل بين قبائل البربر وواحاتهم ، مما جعل
 همته تتعلق بالفتح والغزو ، وغدا شخصية لا تعرف شيئاً غير الجهاد في سبيل الله .
 وأدرك عقبة من محاربه ببرقة أن فتح المغرب لا يتم إلا إذا أشأ المسلمون
 لهم في قلب شمال إفريقيا مركزاً عسكرياً فيه حامياتهم ، ويتخذونه قاعدة لمقاومة
 الغزو . وعهد إلى تحقيق هذا الهدف عندما كلفه معاوية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م
 بالزحف على شمال إفريقيا . وما كاد عقبة يتلقى الأمداد والجيوش حتى اتجه
 إلى أرض المغرب ، واتبع الطريق الداخلي الذي لا توجد به إلا مقاومة ضئيلة
 من البربر وسكان الواحات ، ووصل إلى موضع قونية الذي عسكر فيه معاوية
 بن حديج من قبل .^(١)

وولى عقبة عياله حالاً وصل قونية إلى تأسيس مقر المسلمين لتدعيم فتوحاتهم .
 وجاء اهتمامه ولید تجار به ومشاهداته في أرض المغرب ، إذ قال لجندب حين شرح
 لهم الأسباب التي تدعوه إلى تأسيس معسكر لهم مستقر ، أن أهالي إفريقيا
 لا يعترفون بالإسلام إلا إذا دخلها قائد مسلم « فإذا خرج منها رجس من كان
 أسلم بها ، وارتد إلى الكفر ، وأرى لكم — يا معشر المسلمين — أن تتخذوا
 بها مدينة تجعل فيها عسكراً ، وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر . »^(٢)

وأخذ عقبة يبحث عن مكان يشيد فيه معسكره ، ولم يعجبه موضع قونية
 نفسه الذي سبق أن عسكر فيه معاوية بن حديج . فأخذ يتجول في منطقة قونية
 بحثاً عن مكان يليق بما في نفسه من أهداف . وكانت هذه المنطقة عبارة عن

(١) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

حين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

(٢) الطالبي ، ريس القوس ، ص ٥ .

جوت فسيحة ، بها كثير من الزرع ، كما كانت غاصة بالحصون البيزنطية . وفي
 بقعة بالقرب من قونية وجد حصناً قديماً يدل بقاءه على آثار عز سالفه ، ولكن
 أدركه الخراب أوائل القرن السابع وهجره أهله ، وسكنته بعض الذئاب والضباع
 وما إلى غير ذلك من أشباه هذه الحيوانات . ووقع اختيار عتبة ومعه على هذا
 الحصن وحطوا رعاظمه بالقرب منه ، وأخذوا يستعدون لتخطيط مدنتهم إلى
 جواره . ففرغت الضواري من حركة الجيش ووات الأديار هاربة ^(١) .

ويعزى إعجاب عتبة بموضع هذا الحصن إلى أنه بعيد عن الساحل مما يجعله
 آمناً عن إغارات البيزنطيين المفاجئة من البحر ، كما أنه يقع بالقرب من أرض
 ترمى فيها الماشية في مأمن من هجمات البربر النصاري من أنحلاف البيزنطيين .
 وأثبتت الأحداث صدق فراسة عتبة في انتخاب الموضع الذي شيد عليه معسكره
 إذ كان موقعه الحربي ممتازاً ، حيث يستطيع الحاكم المقيم به أن يدبر دقة عملياته
 في سهولة ويسر . فهو يستطيع أن يرى العدو من بعيد ويأخذ حذره منه ،
 كما يتمكن من مظاردة البربر وتعقبهم في أعالي الهضبة لأن الموقع يسيطر ويتحكم
 في سائر الوديان الهامة التي تخترق الهضبة .

وبدأ عتبة بتخطيط المدينة التي عرفت باسم القيروان ^(٢) ، فشيّد دار الإمارة
 والمسجد أولاً ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم حولها ^(٣) . وقد غدت المدينة
 على عهده أشبه بمخزن للسلاح ، ولسكن أخذت في هذه الفترة المبكرة تلعب
 دوراً هاماً في أحداث الفتح الإسلامي ببلاد المغرب . إذ كان تأسيس القيروان
 الخطوة الأولى العملية في القضاء على نفوذ البيزنطيين بشمال إفريقيا ، حيث

(١) المالكي . نفس المرجع ، ص ٦ ، ٧ : Ence. of Islam (at Kairawan) .

(٢) القيروان لفظ فارسي معرب ، ومعناه : قلعة أو مرايح القوافل ، وكان العرب
 يستخدمون هذه التسمية زمن الجاهلية . انظر حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) المالكي . نفس المرجع ، ص ٧ ، ٨ .

دعمت أقدام المسلمين وسط ولاية إفريقية البيزنطية ، التي تحصنت بها معظم حصون البيزنطيين ومعاقلهم .

ولم يبدد البيزنطيون أي نشاط لمراقبة عقبة عن الاستمرار في بناء هذه المدينة ، إذ قضى أربع سنوات في تخطيطها دون أن يتحرك البيزنطيون في قرطاجنة التي تبعد عن القيروان مسيرة ثلاثة أيام ساكفا ، كما لم يدركوا خطورة ظهور هذا المعقل الإسلامي باقرب منهم . ولكن يعزى السبب في هذا التقاعد إلى أن الدولة البيزنطية عجزت عن بسط يد المساعدة لأبنائها بشمال إفريقيا ، لانشغالها بالدفاع عن عاصمتها ، فقد عاصرت أعمال عقبة في شمال إفريقيا وتأسيس القيروان الحصار الثاني الذي ضربه معاوية حول القسطنطينية ، وهو المعروف بحرب السنوات السبع .^(١)

ولكن عقبة لم ينعم بتأخر جهوده ، إذ تطلع والي مصر إذ ذاك مسلمة بن محمد (٤٧ هـ / ٦٦٨ م) إلى ضم ولاية إفريقية إلى دائرة نفوذه بمصر . ووافق الخليفة معاوية على طلب مسلمة^(٢) ، حيث كان من كبار أنصار معاوية أمراء فتنه عثمان بن عفان . ولما ولي مسلمة شئون شمال إفريقيا عزل عقبة ، وبعث قائداً جديداً يدعى دينار أبو المهاجر ليحل مكان عقبة^(٣) . وقد عاد الأخير إلى دمشق معيظاً حيث كان قد أخذ يعد العدة لاستئناف الفتح بعد فراغه من بناء القيروان .

(١) Deill, L'Afrique, 523

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ١٩٧ : ١ ، السلاوي ، الاستقصاء ، ص ٣٧ .

التحالف البيزنطي البربري

صحة دينار أبو المهاجر (٥٥ - ٦٢ هـ / ٦٧٤ - ٦٨١ م)

عاصرت بداية حملة دينار أبي المهاجر ^(١) انقلاباً في السياسة البيزنطية تجاه البربر ، كان لها أبعاد الآثار في وضع الصعاب أمام فتح المسلمين لبلاد المغرب . إذ استطاعت الدولة البيزنطية في الفترة التي عزل فيها عقبة أن تستعيد نشاطها ، حيث انتهى الخضر الأموي الثاني لعاصمتها . وكان الامبراطور البيزنطي إذ ذاك هو قسطنطين الرابع ، الذي أخذ يدرس الأسباب التي أدت إلى ضعف دولته ويعمل على إزالتها . وتبين قسطنطين أن علة الفساد في دولته وضعفها هو العداء المذهبي والسياسة الدينية الاضطهادية التي اتبعتها السلطات البيزنطية إزاء أهالي ولاياتها الخالفين لها في العقيدة الدينية . ورأى قسطنطين نتائج هذا الاضطهاد في إفريقية البيزنطية ، إذ كان البربر المسيحيون يضمرون الكراهية والبغضاء للدولة ويتمنون زوال سيادتها عنهم .

بادر قسطنطين بالتخاذ خطوة هامة ليتقرب إلى أولئك البربر وضمهم إلى جانب قواه في نضالها ضد المسلمين . لجمع مجلساً دينياً سنة ٦٨٠ م نجح في وضع حد للخصومات المذهبية ^(٢) التي فرقت بين الدولة البيزنطية وبين ما تبقى لها من رعايا بشمال إفريقيا وإيطاليا . وجنى الامبراطور قسطنطين ثمار هذا المجلس الديني ، إذ زال ما عند البربر المسيحيين من عوامل الكراهية نحو الدولة البيزنطية وبدأوا يعملون على شد أزرها ومناصرتها في حروبها مع المسلمين .

(١) انقل الكتاب سيرة دينار أبو المهاجر لأن حملته وقعت بين حلتين كبيرتين قام بهما عقبة بن نافع . ولكن يرجح أنه كان من أهل مصر ، أعفقه مسلمة بن مخلد وإلى مصر . وقربه إليه لكأله ومبارته .

(٢) Diehl, op. cit., 570. (٢)

ووجد بذلك تحالف بين البربر المسيحيين والبيزنطيين بشمال إفريقيا ،
وظهر تعاونهم جليا خلال الحملات الإسلامية التي تلت عزل عقبة ، واضطرم
بتحالفهم الأول دينار أبو المهاجر . ولكن يلاحظ أن هذا التحالف لم يكن
واسع النطاق ، إذ ظل البربر البدو بمعزل عنه ، ولم يدخل تحت لوائه إلا البربر
المسيحيون ، ولا سيما أولئك الذين تأثروا بالخضارة البيزنطية . على أن القائد المسلم
دينار أبو المهاجر استطاع أن يواجه هذا التحالف البيزنطي البربري بحزم وكفاءة
وتسكن أن يقلل من الفوائد التي عمدت الدولة البيزنطية إلى الحصول عليها .

وعندما وصل دينار أبو المهاجر ضواحي القيروان أحس تبذلا في نشاط البربر ،
إذ كانوا من قبل لا يبدون مقاومة في مباحضة الحملات الإسلامية . وأدرك أن
تقرب الأوساط ولا سيما المنطقة الواقعة بين ناهرت ووهزان والتي تتوسطها تلمسان
هي مقر نشاط البربر البديدين . فشككت هذه المنطقة أسرع الجهات استجابة لسياسة
البيزنطيين ، لأنها موطن البربر الذين تأثروا منذ زمن قديم بالخضارة البيزنطية .
وأقام في مرتفعات تلمسان والمنطقة الجاورة لها منذ أواخر العصر البيزنطي أقوى
قبائل البربر المسيحيين وهي قبيلة أوربة ^(١) .

وعرفت قبيلة أوربة نوعا من الزعامات القوية ، كساد أفرادها النظام والطاعة
للرؤساء . وكان يتولى أمرهم في الفترة التي وصل فيها دينار أبو المهاجر إلى القيروان
شخص يدعى كسيلة وأخذ هذا الزعيم يتحرى من البيزنطيين يجمع القبائل البربرية
ويجشدها لمواجهة زحف المسلمين الذي اقترب من موطنهم الأصلي . وهكذا
أخذ أصبح البيزنطيون يندس بين البربر المسيحيين ويحركهم ضد المسلمين بعد
أن كانوا لا يفسكرون في مقاومتهم . وبادر القائد المسلم دينار أبو المهاجر إلى
مهاجمة أولئك البربر في مقرهم ليقضي على تجمعاتهم ، ويعد من شوكتهم رغم بعد
الشفقة بينه وبينهم ^(٢) .

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

وصل دينار أبو المهاجر وجيشه إلى المنطقة المحيطة بتلمسان ، معززة بحركة المقاومة البربرية ، واضطرم بالبربر هناك . ولكن القائد المسلم لم يقم في جزيرة مع كسيلة حيث استخدم السياسة في كسب هذا الزعيم البربري إلى جانبه . ولذا عندما هزم كسيلة وأسر عامله دينار أبو المهاجر معاملة حسنة ، حتى قام نوع من الودعة والصداقة بينهما . فأسلم كسيلة ، وانضم إلى جيش المسلمين يعاونهم في حرب البيزنطيين^(١) .

ويعتبر دينار أبو المهاجر واضع الحجر الأساسي في سياسة فهم البربر عن البيزنطيين وتحطيم التحالف الذي قام بينهما . وآثر في كل أعماله إظهار عطفه واحترامه للسكان الأصليين ، وبشأن مجلاء أن هدف المسلمين تخليص بلاد البربر من نير البيزنطيين . ويبدو أن البيزنطيين في المدن الساحلية اكتفوا بتحرير بعض البربر على المسلمين دون التصدي لهم . واستفاد دينار أبو المهاجر من ذلك ، إذ بعد أن انتهى من القضاء على حركة البربر صار فاصداً قرطاجنة أقوى المدن البيزنطية بشمال إفريقيا .

حاصر المسلمون مدينة قرطاجنة سنة ٥٩ هـ / ٦٧٨ م ، وقتلوا أهلها قتلا شديداً دون أن يستطيعوا الاستيلاء عليها . على أن دينار أبو المهاجر رفض أن يرفع الحصار عنها إلا بعد أن تنازل البيزنطيون له عن جزيرة شريك . وكانت هذه السياسة بارعة من القائد المسلم ، فلم يقبل أن يترك قرطاجنة وحضارها مقابل مبلغ من المال ، وإنما طلب تنازله عن جزء من بلاده . وضمن بذلك وضع شوكة تهدد عاصمة البيزنطيين بشمال إفريقيا . إذ أرسل قائدة حنش الصفاقي ومعه شطر من الجيش الإسلامي لمعسكر بهذه الجزيرة ، وأوجد بذلك حارساً يهدد قرطاجنة نفسها ورفق أعمال البيزنطيين بها ، ويمنعهم من التقدم نحو الجنوب إذا حدثتهم فقتلهم بالهجوم على القيروان^(٢) .

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .
(٢) المالكي نفس المرجع ، ص ٢٠٩ . حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

عاد دينار أبو المهاجر إلى مقره الذي اتخذته بالقرب من القيروان بعد أن أمضى نحواً من عامين في جهاد البيزنطيين ، ونجح في تحقيق أهدافه بضم عرى التحالف بين البربر والبيزنطيين ، واستطاع في حياته أن يكسب إسلام زعيم كبير من رجال البربر وهو كسيلة ، وطبعاً أنه نهج على منوال كسيلة كثير من البربر ودانوا بالإسلام . ولكن تقلب السياسة في الدولة الإسلامية لم يمكن ديناراً أبو المهاجر من تحقيق أهدافه إلى نهايتها ، إذ عزل عن ولاية إفريقية وخلفه عقبة بن نافع مرة أخرى .

صحة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ — ٥٦٣ / ٦٨١ — ٦٨٢ م)

كان عقبة يعمل جاهداً في دمشق منذ عزله عن ولاية إفريقية على العودة إلى هذا الميدان الذي قضى به سنوات كثيرة من زهرة عمره وتعلق قلبه به . وقد حانت الفرصة له حين توفي مسلمة بن مخلد على عهد الخليفة يزيد بن معاوية . إذ استجاب يزيد لرغبة عقبة وبعثه على رأس أمداد كبيرة إلى الجهة الإفريقية في سنة ٥٦٢ / ٦٨١ م . ووصل عقبة إلى حاضرتة القيروان وجدد عمارتها ، حيث أصابها بعض الخراب لإهمال دينار أبو المهاجر لها . وقد دخل هذا القائد في خدمة عقبة ^(١) ، وسار معه في فتوحاته بشمال إفريقيا . ولكن عقبة لم يحاول الاستنادة من خبرة هذا القائد ولا سباً من حيث استرضاء البربر . إذ غاب عن عقبة أن أحوال إفريقية قد تبدلت تبدلاً جوهرياً منذ حمله الأولى ، ولم يدرك كنه التحالف الذي نشأ بين البربر والبيزنطيين بعد سياسة قسطنطين الرابع الدينية . وقد سار عقبة على سياسته القديمة في محاولة التوغل داخل بلاد البربر دون أن يستعملهم إليه ، ونجحت هذه السياسة القديمة في علاقته مع كسيلة زعيم البربر ،

(١) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٧٧ ؛

ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٨ .

الذى اعتنق الإسلام على عهد دينار أبي المهاجر . فقد أخذ عقبة هذا الرجل معه في حملاته دون أن يظهر له العطف والتقدير على نحو ما فعل سلفه . ومن ثم تغير قلب كسيلة على عقبة ، وأصب دوراً كبيراً في القضاء على مجيوداته ، حين جاءته الفرصة المناسبة أثناء الحملة .

فقد زحف عقبة من القيروان على شمال إفريقيا عبر الطريق الداخلى البعيد عن الساحل^(١) . ولكن التحالف البربرى البيزنطى تصدى له عند المدن الحامية وأخذ يطمر آبار المياه في طريقه . وزاد في مقاومة البربر مراسلة كسيلة لهم تبرأ وحشهم على تنظيم صفوفهم . على أن عقبة تغلب على ما واجهه من صعاب حتى بلغ طنجة ، حيث قدم له حاكمها فروض الطاعة .

عاد عقبة بعد ذلك قاصداً القيروان^(٢) التى خلف عليها من قبل وهيب بن قيس البلوى . واختار لعودته نفس الطريق الداخلى الذى سلكه من قبل متجنباً طريق الساحل . وكان طريق العودة مليئاً بالأخطار والخاوف ، حيث استطاع كسيلة أن يفر من جيش عقبة ، وأعد البربر للغزاه . وأحسن عقبة بما كان يدبر له ، فمجل بالسير حتى وصل مدينة طينة . وهناك أمر معظم جيشه بالذهاب رأساً إلى القيروان ، إذ أحسن فساد المياه في الآبار التى مر عليها ، وبقي مع جزء يسير من قواته لحماية مؤخرته .

ورأى البربر والبيزنطيون فرصتهم قد سحبت للغزاه بعقبة بعد أن سبقه معظم جيشه ، فالتحقوا أمامه متجهين إلى الجنوب الغربى في اتجاه تهودة ، وأغروه على أن يقتفى أثرهم ، متظاهرين بقله عددهم . وعند حصن قديم بيزنطى بالقرب من تهودة تحصن كسيلة ، حيث كان البيزنطيون قد استمدوا هناك كذلك^(٣) .

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨ .

(٢) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨ .

(٣) ابن خلدون ، نفس المراجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ، ١١٦ .

وبادر عقبة بالهجوم على الحصن ليقتضى على البيزنطيين وأحلافهم ، ولكن لما أن اقترب منه حتى أحاط به البربر من كل مكان وضيقوا الخناق على القوات الإسلامية . على أن عقبة فلول في شجاعة مما جعل المعركة حامية الوطيس ، ولكن لم يلبث أن استشهد في ساحة القتال ومعه كثير من كبار رجال جيشه ومن بينهم دوتار أبي المهاجر ، ووقع كثير من باقي المسلمين أسرى^(١) . وقد نجم عن هذه المعركة نتائج كان لها أبعاد الأثر على مجريات الفتوح الإسلامية فيما بعد . إذ اقتدى بعض كبار الشخصيات من رجال البربر بقرا من الأسرى المسلمين ، مما يدل على أن الإسلام كان قد دخل قلوب بعض البربر وآمنوا به وكان معظم أولئك البربر الذين مالوا إلى الإسلام من القبائل البدوية البعيدة عن الحضارة البيزنطية^(٢) .

ولما بلغ زهيراً نبأ مأساة تهودة ، أخذ يستعد للأخذ بثأر عقبة ، ولكن الجهد كان قد نال من الجند الإسلامي ، وآثروا العودة إلى مصر . فلم يجد زهير بداً من الانسحاب بالجيش الإسلامي إلى بركة سنة ٦٥ هـ ، وظل هو مقاماً بها تنوق نفسه للعودة إلى الميدان واسترداد شمال إفريقيا^(٣) . إذ أحس زهير كآحس غيره من المسلمين أنهم ارتدوا عن بلد من بلادهم تركوا بها قهراً ومساخداً ، وجماعات تعتنق الدين الإسلامي . وهكذا أثبت دم عقبة بذور دولة المسلمين بشمال إفريقيا ، وقام زهير بن قيس البلوي بالإشراف على رعاية هذه الدولة في عهدها الأول^(٤) .

صمد زهير بن قيس البلوي :

بعد معركة « تهودة » وارتداد المسلمين إلى برقة دخل كسيلة القيروان

(١) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٨ ، Fournel, op. cit., 16.

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٧ .

جسيت مؤنس نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٣) أبو الطاهر ، التجوم الزاهرة ج ١ ، ص ١٧٨ ، Mercier, op. cit., 211.

(٤) جسيت مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

واحتلها ، وبدأ كأنما عادت الأحوال بشمال إفريقيا إلى سابق عهدها قبل الفتح الإسلامي . إذ قام في سهل تونس ما يشبه دولة بربرية مسيحية . ولكن تلك الدولة الجديدة افتقرت إلى الوحدة والتماسك . فلم يكن كسيلة وأتباعه سادة شمال إفريقيا بعد ارتداد المسلمين ، كما أنه لم يكن الحاكم المطلق على سائر القبائل التي أحاطت بالقبروان ، ولا سيما قبائل البربر البدوية ^(١) .

وتعزى الظاهرة السالفة إلى أن الحملات الإسلامية المتكررة على شمال إفريقيا خلفت وراءها بدو من البربر يعتقدون الإسلام ، وأظهروا عطفهم على المسلمين ، كما قدسوا لهم خدمات جليلة أثناء الفتح . ولم يتخذ أولئك البربر إلى السكون والدعة بعد ارتداد المسلمين . وإنما أعلنوا عصيانهم لكسيلة ، وأبوا إطاعة أوامره . إذ كان البربر البدو ينظرون إلى البربر المسيحيين على أنهم حلفاء البيزنطيين ، وأداتهم في قضاء مآربهم بشمال إفريقيا . ولذا ظل البربر المسلمون على ولائهم للدولة الإسلامية ، وانتظروا عودة الجيوش الإسلامية لشدها أزرها في طرد البيزنطيين وتأسيس البربر الموالين لهم .

وكان كسيلة يدرك قوة البربر المسلمين ، وما هم عليه من منعة وعزة ، وأن البلاد التي يسيطر عليها ليست خالصة للولاة . ومن ثم آثر الاحتفاظ بحسن الطوار مع البربر ولا سيما المقيمين منهم في القبروان ، فلم يتعرض بأي أذى للمسلمين في القبروان رغم أن وجودهم كان يحمل في طياته أخطاراً كبيرة على سلامته وسلامة دولته . وظل كسيلة متجنباً الأسباب التي قد تثير عليه غضب البربر المسلمين ، حيث كان لهم أنصار عديدون متفرقون في أنحاء البلاد ^(٢) .

ولذا أخذ كسيلة ينظم دولته معتمداً على مساعدات البيزنطيين . وقد رأت الدولة البيزنطية أن اسحاب المسلمين بعد واقعة « تهودة » خير فرصة لاقسام

(١) حسين موسى ، نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

مناطق النفوذ بشمال إفريقيا مع حليفهم كسيلة . وكانت الدولة البيزنطية إذ ذاك طليقة اليد في تنفيذ أغراضها في هذه البقعة من إفريقيا ، إذ كان المسلمون في شغل ببعض المشاكل الداخلية التي واجهت بداية عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . فاستطاعت القوات البيزنطية بالمدن الساحلية بشمال إفريقيا أن تستعيد ما كان للدولة من أسلاك في هذه البلاد ، ودعمت أقدامها فيها تقاومة أى زحف إسلامي في المستقبل^(١) .

وكان زهير بن قيس البلوي يعمل جاهدًا منذ عاد إلى برقة سنة ٦٨٤/٥٦٥ م على استنهاض الخليفة عبد الملك بن مروان لإعداد جيوش يسترد بها شمال إفريقيا . واستطاع الخليفة رغم الشغلة بثورة عبد الله بن الزبير أن يعد في سنة ٦٨٨/٥٦٩ م جيشًا عظيمًا أمر عليه زهير بن قيس البلوي وبعثه لاسترداد شمال إفريقيا . وبعثه بإقدام الخليفة عبد الملك على اتخاذ هذه الخطوة ، وهو لا يزال في خمرة مشاكله الداخلية ، دليلاً على أن الخلافة نظرت إلى شمال إفريقيا على أنه قطر إسلامي تهتم به الدولة الإسلامية اهتمامها بأمور العراق والحجاز^(٢) .

وكان زهير يعرف الميدان الإفرنجي منذ سنة ٦٤٣/٦٦٣ م حيث حارب عقبة بن نافع في جهاده وفتوحه بثلث البلاد . ثم إن عقبة ولاده على القيروان حين قام بزحفه الواسع المدى ، والذي استشهد بعد عودته منه . ولذا استطاع زهير أن يوفق في زحفه ، إذ سار من مصر على رأس جيشه العظيم الذي ضم عدداً كبيراً من غلبة القوم في الشام ومصر . وما أن عبر زهير إقليم برقة حتى انضم إليه كثير من البربر الجنوبيين أو البدو الذين أشرقت نفوسهم حب الإسلام . ومن ثم انحصرت المقاومة في قبائل البربر الشماليين الذين كانوا متحالفين مع البيزنطيين^(٣) .

(١) Diehl, op. cit., 519.

(٢) كسيلة مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) ابن عسكاري ، نفس المرجع ، ص ١٦ .

وما أن ترامت أنباء الزحف الإسلامي الجديد على شمال إفريقيا حتى استولى
الفرنج والخوف على كسيلة ، وكان مقبلاً إذ ذاك بالقيروان . ورأى أن المقام بهذه
المدينة لا جدوى منه ، إذ بها جماعات من المسلمين ، ويخشى أن تنور عليه
في الوقت الذي يحاصر فيه زهير المدينة . فوقع اختياره على قرية تدعى مس^(١) ،
لقربها من الهضبة وجبال أوراس ، ولا اتصالها بقبائل البربر المسيحيين فيهما ،
وبذلك يستطيع كسيلة أن يحصل على الأمداد والمؤن اللازمة لنضال المسلمين ،
وإذا انهزم قر إلى الجبال واعتصم بها بعيداً عن متناول المهاجمين^(٢)

على أن زهير رسم خطة حربية كفلت له الفوز ، إذ رأى أن يبادر بالمهجوم
على البربر الخاضعين لكسيلة أولاً ، ثم ينزل البيزنطيين بعد ذلك . وكان زهير
يقصد من خطته تجنب النضال في جبهتين واشتيت قوائمه تبعاً لذلك . وساعده
على تنفيذ خطته بنجاح أن البيزنطيين آثروا أن يتركوا المسلمين يحاربون البربر
مستهدفين أن يضعف النضال قوى الفريقين ، وإذا ما تغلب أحدهما على الآخر
يهاجون المنتصر ، ويستردون البلاد منه قبل أن يستفيد قوته . على أن هذه
الأنانية البيزنطية تمحضت عن نتائج خطيرة ، حتى البيزنطيون تمارها فيما بعد ،
إذ فتدوا إلى الأبد قوة البربر مما عجز بالقضاء عليهم بعد ذلك .

وزحف المسلمون على مس بحاس رافع لإعلاء كلمة الإسلام والأخذ بذراع عقبة .
ودارت رحى معركة شنيعة أبلى فيها المسلمون بلاءاً حسناً ، حتى كتب لهم النصر
وقتل كسيلة على أرض المعركة ، دون أن يتمكن من الحرب كما رتب لنفسه من
قبل . إذ أحسن زهير سد المنافذ والمعار المؤدية إلى الهضبة مما جعل الفرار غير
مستطاع ، وقضى على مقاومة البربر تماماً .

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وقتل زهير عائداً إلى القبروان^(١) بعد أن حقق هدفاً عظيماً في الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا . إذ كان انتصار زهير هذا فاصلاً بين نشاط البربر السابق لواقعة خمس والنشاط الذي تلاها . فقد ترك البيزنطيون خلفهم البربر يتلقون وحدهم أشد الضرر من قوة ، مما جعل التحالف القائم بينهما ينتهي بخروج البربر من الميدان . وغدا الموقف في شمال أفريقيا قاصراً على المسلمين والبيزنطيين وحدهم . وجاءت الأحداث بعد ذلك تنبه المسلمين إلى تعجيل ضرباتهم للبيزنطيين ، حيث رأوا فيهم القدر وانتهاز الفرص الملائمة بالجهود الإسلامية في شمال أفريقيا . على أن البيزنطيين استهدفوا من وقوفهم موقف الحياد في الصراع الذي شب بين زهير والبربر المسيحيين تنفيذ أمر يتواء لإفساد أعمال المسلمين . إذ تركوا المسلمين يطيلون خطوط تمويدهم لقطع خط الرحمة عليهم في مهبولة ويسر . ولم يتنبه زهير لمثل هذه الأعمال المفاخرة التي قد يقوم بها البيزنطيون . وقد جاء الخطر من ناحية القوة البحرية البيزنطية ، إذ اتصل البيزنطيون في مدن الساحل الأفريقي بالسلطات المركزية في القسطنطينية وزودوها بمعلومات عن سيرة المسلمين . وانفق الفريقان على حضور أسطول بيزنطي يحط رحاله عند برقة ، ويقاضى الحامية الإسلامية بها ويأسرها ، ثم يعسكر البيزنطيون بالقرب من الساحل للهجوم على جيش زهير فجأة وهو طريق عودته إلى مصر .

وكان زهير قد فرغ إذ ذاك من مهمة إخضاع البربر المواليين للبيزنطيين ، ثم أخذ بعد العدة للرجوع إلى برقة . وكانت غالبية الجيوش الإسلامية حتى ذلك الوقت تعود إلى مصر بعد أن تنتهي من مهمتها في شمال أفريقيا . ووقع زهير في خطأ أشبه بما تردى فيه عقبه . إذ سمح لجنده بأن يعجلوا بالعودة إلى مصر على حين سار هو في المؤخرة . وعندما اقترب من برقة علم أن البيزنطيين قد نزحوا ساحلها ، ولم يتوقع زهير أن يجد البيزنطيين مستعدين في قوة عظيمة ، إذ اعتقد أن سفنا

(١) ابن خلدون ، نفس المراجع ، ج ٦ ، ص ٢٤٧ .

ضئيلة من أسطولهم قصد رست بشواطئ بركة ، ولا غير من مهاجمتها والاستيلاء عليها^(١) .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار ، فوجد البيزنطيين في سفن كثيرة كثيرة العدد ، ومعهم عدد كبير من أسرى المسلمين . ولم يكده هؤلاء الأسرى يرون زهير حتى استغاثوا مستنجدين به . فأخذت الحامية زهير ومن معه وأسرعوا بمواجهة السفن البيزنطية لتخليص المسلمين الأسرى . ولكن البيزنطيين كانوا قد أعدوا معسكرا على الساحل بعيداً عن أعين المسلمين ، إذ ما كاد زهير يظا أرض الساحل حتى فاجأه جنده هذا المعسكر البيزنطي ، ودارت رحى معركة عنيفة أحاط فيها البيزنطيون زهير وأتباعه ، واستكن زهيراً أبدي من خروب الشجاعة والبسالة ماجمل استشهاده^(٢) في ساحة القتال لا يقل روعة عن استشهاده عقبه في واقعة « تهودة » .

وكان لاستشهاد زهير بأرض بركة نتائج بعيدة المدى على مجرى الفتوحات الإسلامية بشمال أفريقيا ، إذ رأى المسلمون أن عدوهم الحقيقي هو الدولة البيزنطية ورعاياها بالمدن الساحلية ، وأن الجهود يجب أن تركز للقضاء عليهم . وجاء هذا التطور في السياسة الإسلامية بعد أن قضى زهير على البربر أحلاف البيزنطيين ، وغدا الميدان قاصراً على البيزنطيين والمسلمين وجهاً لوجه .

(١) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١١٨٧ .

(٢) Fournel, op cit. 28, 29.

جيبين وراس ، نفس المرجع ، ص ٢٢٨ و ٢٢٩ .

زوال النفوذ البيزنطي وتمام الفتح الإسلامي

محمد صابر بن النعمان :

اعتقب مقتل زهير تطوراً عظيماً في سياسة كل من الدوائين الإسلامية والبيزنطية بشئون شمال إفريقيا . فقد رأى أولو الأمر في الدولة الإسلامية أن البيزنطيين يهدفون إلى الإضرار بسعة جيوشهم وإظهار عدم قدرتها على إتمام فتح شمال إفريقيا ، وأن الواجب يقضي ألا تنقض الدولة الإسلامية الطarif عن قائدین عظیمین من قادتها يذهبان ضحية الغدر البيزنطي . وكان الخليفة إذ ذاك عبد الملك بن مروان ، الذي أثبت أنه جدير بـرد اعتبار الدولة الإسلامية وإضعاف هيبة البيزنطيين وطردهم منها .

وأظهرت الامبراطورية البيزنطية إهتمامها كذلك بأحوال شمال إفريقيا بعد هزيمة زهير ^(١) . فبدأت بتقوية مدنها الساحلية وتزويد رعاياها بها بالعتاد والذخيرة . وأدى هذا النشاط البيزنطي الجديد إلى اعتماد القوات البيزنطية في شمال إفريقيا على جهودها الخاصة دون الاعتماد كلية على حلفائهم من البربر . وكان التعاون بين البيزنطيين والبربر قد أصبح قاصراً على بعض قبائل متفرقة منذ قتل كسيلة . ولذا استطاع خليفة زهير أن يستفيد من تغير الموقف بشمال إفريقيا ، ويقضي على البقية الباقية من مظاهر التحالف البيزنطي البربري ^(٢) .

واضطلع بالعبء الجديد من النضال ضد البيزنطيين حسان بن النعمان ، أحد كبار قادة الدولة الأموية . وفي سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥ م . أعد له الخليفة جيشاً كبيراً رغم ما كان يحيط به من صعاب ، حيث رأى ضرورة تخليص شمال

(١) Diehl , op cit, 581 .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٣٥ .

إفريقيا من البربرانيين . وكان اختيار حسان يقوم على ما تتمتع به من شهرة
حربية عالية ، فضلا عن مكانته في البيت الأموي . فهو لم يسبق له الذهاب إلى
الميدان الإفريقي ، ولكن رشحته كفاءته ودرأته بالخطط الحربية والسياسية
لإدارة حركات المسلمين في شمال إفريقيا^(١) ، ووضع حد لهذا الفتوح الذي استغرق
إلى ذلك الوقت خمسين سنة وبيف ، دون أن يحقق هدف نهائي فيه . وسار
حسان على رأس جيشه إلى مصر حيث قضى بها بعض الوقت أين فيها
استعداداته الحربية^(٢) .

سار حسان من مصر مسرعا إلى شمال إفريقيا ، واجتاز برقة وطرابلس
دون أن يلقى مقاومة . وقد انضم إليه في طرابلس كثير من البربر ، اتخذهم أدلاء
في زحفه على سائر أنحاء البلاد . وكذلك دخل في جيشه كثير من البربر البدو
من أهالي الجنوب الذين سبق لهم اعتناق الإسلام^(٣) .

وعندما دخل حسان القيروان أدرك التحية السياسي الذي طرأ على البلاد ،
وأن البربرانيين غدوا أصحاب السكينة العليا في المدن الساحلية ، على حين ضعفت
شوكة حلفائهم من البربر . وكان حسان يسير وفق خطة مرسومة أعدّها من
قبل ، وجاءت مطابقة للموقف الذي واجهه في شمال إفريقيا . إذ حضر إلى
القيروان وفي خطته مهاجمة البربرانيين في قرطاجنة ، أقوى معاقلم^(٤)

وكان يدرك أن بحاجة يتوقف على سرعة العمل والتنفيذ ، فيأمر بالهجوم
على ضواحي المدينة وأوقع بالبربرانيين هزيمة قاسية . ولذا تمكنت الحووف والقرع
الحامية البربرانية في المدينة ، وأسرع بالانسحاب منها ، والاتجاه إلى السفن

(١) ابن عذاري ، نفس المرجع ، ص ١٨٠ ، السلاوي ، كتاب الاستبصار ، ص ٤٤ .

(٢) Fournel, op. cit., 38 .

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٤) جبرين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

والهرب إلى صقلية^(١). وهكذا سقطت المدينة دون غناء كبير، ونزل حسان أول معقل البيزنطيين عام في شمال إفريقيا. على أن البيزنطيين لم يهدفوا بإخلاء قرطاجنة تركها إلى الأبد في أيدي المسلمين، وإنما يبيتوا في أنفسهم الهجوم عليها مرة أخرى بعد خروج حسان منها.

وساعد البيزنطيين على تنفيذ مآربهم ما كان لهم من حصون ومعقل منتشرة في المنطقة المحيطة بقرطاجنة. ولما ما أن غادر حسان قرطاجنة عائداً إلى القيروان حتى علم أن البيزنطيين الذين هجروها أخذوا يقدون عليها ثانية من النواحي المحيطة بالمدينة، وعملوا بالاعتصام بها، وإصلاح أسوارها وحصونها وأدرك حسان خطورة هذا العمل وما ينطوي عليه من عند البيزنطيين وخداهم. فعاد حسان سريعاً إلى قرطاجنة وحاصرها حصاراً شديداً حتى اقتحمها، وأزل بالبيزنطيين هزيمة فادحة. ثم هدم كثيراً من أسوار المدينة وحصونها ليقتضي على أي أمل للبيزنطيين في الاعتصام بها مرة أخرى^(٢).

وقد نهت أعمال البيزنطيين حسان بن النعمان إلى الخطة التي يجب أن يسير عليها بعد استيلائه على قرطاجنة. فعرف أن للبيزنطيين على الساحل معقل وحصون أخرى يستطيعون الاعتماد بها والاتجاء إليها بعد أن فقدوا الأمل في استماد قرطاجنة، وأن قوتهم في هذه المنطقة الساحلية ما زالت خطراً يهدد بقاء المسلمين في القيروان. ولذا لم يعجل حسان بالعودة إلى القيروان، وأمر متابعة حملاته على البيزنطيين بالساحل لإزالة ما لهم من نفوذ به^(٣).

وقد حاول البيزنطيون اتخاذ شبه الجزيرة الواقع شمال تونس والذي تقع فيه بنزرت مقراً لأعمالهم الحربية ضد المسلمين. وتعرف هذه المنطقة بإقليم صفاقورة،

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ١، ص ١١٣؛ البكري، وصف إفريقيا، ص ٢٧؛

Fournel, op. cit., 38.

(٢) ابن عسكري، نفس المرجع ج ١، ص ٢٠؛ Fournel, op. cit., 39.

(٣) حسن مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٤٠، ٢٤١.

ويضم عددا كبيرا من أهم مدن تونس ، ويعتمد على البحر في الحصول على
الأمداد ، إذا ما اشتد الخطر على الجند المدافعين عنه ^(١) . على أن حسان تمكن
من هزيمة البيزنطيين هناك ، وتابع إخضاع أهالي هذا الإقليم ، دون أن يقابل
مقاومة بيزنطية أخرى . فلأثر العودة إلى القيروان ليحصل جنده على الراحة بعد
عناء الجهد الشاق الذي بذلوه في الزحف السابق ^(٢) .

ودخل حسان وجنده القيروان معتقداً أنه قد أطاح بالبيزنطيين ، وأنه لن
يقوم لهم بعد الضربات الشديدة التي أنزلها بهم أية قائمة . ولكن البيزنطيين
لم يركعوا إلى الهدوء والاستسلام طالما بقي لهم مدن أو معاقل على الساحل مهما
كان شأنها ، ثم جاء حادث مفاجئ . منحهم بعض الوقت ، يستردون فيه قوتهم .
إذ انشغل حسان بثورة لم يكن يتوقعها ، جاءت من إحدى قبائل البربر ، عرف
أخبارها بعد عودته إلى القيروان .

ثورة الطاهنة

بلغ حسان بن النعمان عندما دخل القيروان أن إحدى قبائل البربر المقيمة
بجبل أوراس لم تأنس لاستقرار المسلمين في منطقة تقع بالقرب من موطنهم .
وكانت هذه القبيلة تدعى جراوة ، على قسط من الحضارة ولها رؤساء يتولون
شئونها ، وجهدوا على الاحتفاظ باستقلالهم الذاتي رغم قيام بعض المصاهرات بينهم
وبين البيزنطيين . إذ ظلت مضارب هذه القبيلة بعيدة عن متناول القوات
البيزنطية ، ونحيا أفرادها حياة خاصة بهم وبدين معظمهم بالديانة اليهودية ^(٣) .
ولم تكن قبيلة جراوة على علم بأهداف المسلمين ورسالتهم في شمال إفريقيا ،

(١) ابن عشاري ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عشاري ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٣) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

بما جعلهم يتخوفون من اقترابهم من موطنهم بجبل أوراس . وكان يزعم هذه القبيلة إذ ذاك امرأة تدعى بالسكاهنة ، وصلت إلى مركز الصدارة لتوليها الوصاية على ولدين لها من زعيم جراوة السابق . وقد توفي هذا الزعيم قبل عودة حسان إلى القبروان وترك زوجته السكاهنة ترعى شئون القبيلة . وكانت ذات نفوذ واسع وكلمة مسموعة بين مائر أفراد قبيلتها ، وبأمر الجميع بأمرها . وكانت تدعى العلم بالغيب ، مما جعل المسلمين يطلقون عليها لقب السكاهنة عند ما تسامعوا بأخبارها ^(١) .

وكانت خطة حسان دائماً المبادرة بالهجوم قبل أن يتم عدوه واستعداداته . وطبق هذه الخطة مع السكاهنة وقبيلتها جراوة ، حيث عجل السير إليها . ولكن هذه السياسة لم تنجح مع قبيلة جراوة ، إذ كانت السكاهنة قد علمت بمسير حسان إليها ، وأسرعت بجمع عدد كبير من أتباعها وتمحصنت بجبل أوراس عند مدينة باغاية ، التي تقع على سفح الجبل وتحكم في الدروب المؤدية إليه . واختارت السكاهنة هذا المكان لتسكن قريبة من موطن قبيلتها وتستمد منها العون إذا ما اشتد عليها الخطر . ولكن يلاحظ أن السكاهنة عملت هذه الاستعدادات دون مساعدة من البيزنطيين ، الذين لم يكن لهم أي نصيب في تلك الثورة بعد هزيعهم في واقعة قرطاجنة وبرزت . إذ أن السكاهنة ما كانت تحظر رجالها بالقرب من باغاية حتى هدمت حصون هذه المدينة خشية أن يستولى عليها المسلمون ويتخذونها قاعدة لأعمالهم ^(٢) .

وسياسة هدم المعاقل والحصون لا يقرها البيزنطيون وإنما كانوا يشجعون البربر إبان تحالفهم السابق على الاعتماد على الحصون والمدن المنيعة ضد الزحف

(١) السلاوي ، نفس المرجع ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

ابن عذاري ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٢١ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٥٧ .

والصراع مع البيزنطيين وأحلافهم من البربر . إذ غاب عنها أن المسلمين يسرون في فتح شمال إفريقيا وفق خطط مرسومة تهدف إلى نشر الإسلام في هذه البقعة ، وطرد البيزنطيين منها ، وإقصائهم عن أي مكان قد يهددون به أرض الإسلام . وكذلك يستدل من اعتقاد الكاهنة الخاطي ، على أنها كانت تجهل تماما ما غرسه المسلمون من بذور في حلالهم المتوالية على البلاد .

وجنت الكاهنة غار تفكيرها السقيم حين عمدت إلى تحريب المدن وقطع الأشجار حتى لا يطعم فيها المسلمون . إذ أخذ كثير من البربر يستنجد بحسان لتخليصهم من نير الكاهنة ، بعد أن رأوا أنها تحرب بلادهم بنفسها على حين لم يمسهم المسلمون بسوء . وهكذا أصبح البربر ينظرون إلى المسلمين على أنهم منقذون لهم ، وكان هذا التطور من أهم العوامل التي ساعدت حسان فيما بعد على طرد البيزنطيين نهائيا من شمال إفريقيا بعد أن تخلص من الكاهنة . وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة هزيمة حسان في حرب الكاهنة واستردوا قرطاجنة . وظل حسان مقبلا بطرابلس حتى جاءت له الأمداد سنة ٨٨١ هـ ، فاستأنف الزحف على شمال إفريقيا . ووجد أن أحوال الكاهنة قد تغيرت عما كانت عليه من قبل ^(١) ، إذ انقص عنها جانب كبير من أهلها حيث ملأ طول القتال . وعند فاس لقيه أهلها بالطاعة وقدموا له الأموال لمساعدته . ثم التقى بعد فاس بجيوش الكاهنة ، وأوقع بها هزيمة قادحة ، ثم تبعها إلى جبال الأوراس حيث لقيت حتفها ، وخضع البربر من قبيلة جزاوة لسيادة المسلمين .

وكان للكاهنة إيمان عاملها حسان معاملة حسنة ، وعمد إلى تأليف قضييها ليستفيد منها في صراعه المقبل ضد البيزنطيين . فعين الابن الأكبر على رأس الجماعات البربرية المنضوية تحت لوائه وقريه إليه ^(٢) . وبذلك قضى حسان

(١) ابن خلدون نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ إلى عذاري ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ .

على آخر خطر مفاجئ ، قد يأتي من ناحية البربر ، إذ سارع البيزنطيون إلى الدخول في الدين الإسلامي أفواجاً لما رأوه من حسن معاملة المسلمين لهم ، وأهمهم يساوون بينهم جميعاً في المعاملات لا فرق بين مسلم عربي ومسلم من البربر .

نهاية البيزنطيين :

بعد أن فرغ حسان من شئون البربر اتجه بجميع قواته صوب البيزنطيين حامداً على اقتلاع جذورهم نهائياً من البلاد . وكانت الدولة البيزنطية تقف بالرصاد لحركات حسان متسدة طردة القوات البيزنطية من قرطاجنة وتضيفه الخلق عليها في شبه جزيرة صقلية . واعتبرت السلطات البيزنطية سقوط قرطاجنة ضربة قوية لا بد من العمل على التخلص من آثارها ، وجاءتها ثورة السكاهنة فرصة ذهبية بحب اقتناصها . وكان الإمبراطور البيزنطي إذ ذاك يدعى ليونتيوس ، (٦٩٥ — ٦٩٨ م) ، وأراد أن يستغل هذه باستعادة قرطاجنة وإعلاء شأن دولته بشمال أفريقيا ، إذ رأى أن غض الطرف عن قرطاجنة معناه نهاية السيادة البيزنطية إلى الأبد من تلك البلاد (١).

وول على اهتمام الإمبراطور ليونتيوس بشئون شمال أفريقيا أنه ما أن علم بارتداد حسان بن النعمان بعد مقاومة السكاهنة حتى أعد جيشاً عظيماً وأسطولاً كبيراً لاسترداد قرطاجنة ، وعهد بقيادة هذه الحملة إلى قائد من أشهر قادة الدولة وهو البيطريق يوحنا «Patricius Jean» ، وهاجم الأسطول البيزنطي مدينة قرطاجنة على حين غفلة منها سنة ٦٩٧ م / ٧٨ هـ ، واستولى على المدينة في سهولة ويسر . وكان في المدينة إذ ذاك أبو صالح الذي تركه حسان على القير وان قبل هجومه على السكاهنة . فارتد أبو صالح ومن معه من القوات عن المدينة ، وترك البيطريق يوحنا يشفي غائلة في الانتقام من أهلها ، وقضى يوحنا طيلة شتاء سنة

(1) Diehl, op cit, 583.

٦٩٧ م في تمذيب أهالي قرطاجنة غير عانى بما قد يأتي من ناحية المسلمين^(١).

على أن حسان ما كاد يفضي على الكاهنة حتى توجه لطرده البيزنطيين من قرطاجنة. وقد عرف أنهم يعتمدون على قوتهم البحرية في إغاراتهم المتكررة على القواعد الإسلامية. ومن ثم استعان بأسطول إسلامي كان أول قوة بحرية إسلامية ظهرت في مياه شمال أفريقيا. واستطاع حسان بفضل المعونة البحرية أن ينال النصر على البيزنطيين، إذ دارت رحى معركة بحرية بين الأسطول الإسلامي والبيزنطي أسفرت عن هزيمة البيزنطيين. فذهب اليأس في قلب البطريرق يوحنا، وجمع قوائمه وأمر الفرار بما تبقى لديه من سفن قاصداً بيزنطة^(٢).

وكان البطريرق يوحنا يقصد من انسحابه الحفظة على قواته ليمودبها مرة أخرى إلى قرطاجنة حين تسمح له الظروف. ولكن غاب عنه أن انسحابه عن شمال أفريقيا في هذه المرة هو آخر عهد للبيزنطيين بالبلاد، إذ أصبح البربر والمسلمون قوة واحدة جعلت تفكيز البيزنطيين في استعادة نفوذهم بالقرب ضرباً من الأوهام أو من قبيل الأحلام. ودخل حسان بن النعمان مدينة قرطاجنة وأعلى بها كلمة الإسلام مرة أخرى.

واستعاد حسان كثيراً من مجرى النضال بين البيزنطيين، ورأى أن يقطع عليهم خط الرجعة نهائياً في استرداد قرطاجنة. فأنشأ إلى اتخاذ قاعدة بحرية جديدة تحل مكان قرطاجنة، وبنواقرطاج الحامية والابتعاد عن إغارات البيزنطيين المقابلة. فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلداً على بحيرة داخلية صغيرة تسمى آدس (Ados) لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير. وكانت هذه المدينة يونانية اضطلع أمرها، ولم يبق من معالمها غير دبر قام به بعض الرهبان. فوقع اختباره

(1) Diehl, op cit, 383.

السكوى نفس المربع، ص ٣٨، ٣٨.

(2) Diehl, op cit, 384.

عليها حيث رأى فيها توافر جميع المميزات التي يتطلبها ^(١).

وبدأ حسان بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر ، كما حفر في ماء البحيرة الضحلة قناة عميقة تستطيع السفن السير فيها حتى تصل إلى البلد . وعرف هذا الميناء الجديد باسم تونس ، وغداه بحيرة واسعة محمية من أمواج البحر ، وبعيدة عن قوات البيزنطيين البحرية . واضمحلت بذلك شأن قرطاجنة ، وانصرف الناس والتجار عنها ولم تعد مدينة يرغب البيزنطيون في استردادها . وهكذا حقق حسان أولى الخطوات الحاسمة في إبعاد خطر البيزنطيين عن ولاية إفريقية الجديدة ، وجعلها مكاناً مرغوباً فيه ، يقبل المسلمون الفاتحون على الاستقرار به والتخاضع وطاعة لهم . ويعتبر حسان بذلك أول قائد تم على يديه استقرار المسلمين النهائي شمال إفريقيا ، وانصرف بعد إتمام الفتح إلى تأمين البلاد وتشجيعها على أن تأخذ بنصيب في جهاد البيزنطيين فيما تبقى لهم من أملاك يجرز البحر الأبيض المتوسط . فأنجبه حسان إلى إنشاء « دار صناعة » تبني بها السفن والأساطيل ليغير بها على سواحل البيزنطيين ، ويشغلهم بالدفاع عن أنفسهم بدلاً من إغارتهم على ولاية إفريقية واستعمار حسان بالمصريين في تأسيس هذه القاعدة البحرية الجديدة ، فأرسل يطلب من الخليفة عبد الملك أن يوفد إليه جماعة من المصريين ممن لهم خبرة ببناء السفن ، وكلف الخليفة أخاه عبد العزيز بن مروان وإلى مصر أن يرسل إلى تونس ألف قبلى بأهل وولده ، وأن يمدهم أحسن اعداد بما يكفل لهم الراحة طيلة السفر والوصول في أمان ^(٢).

ووصل المصريون إلى تونس وحسان بن النعمان مقبلاً بها ، وأنشأ بمساعدة منهم دار صناعة للسفن ، وعهد إلى البربر قطع الأخشاب من سفوح الجبال ونقلها إلى تونس حيث يتولى الصناع المصريون بناء السفن . ونشطت حركة الصناعة

(١) ابن عذاري ، نفس المرجع ، ص ٣٩ .

حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٦١ .

(٢) البكري نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

في هذا الميناء الجديد ، وخرجت منه أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب البحر الأبيض المتوسط . وغدت تونس القاعدة الحربية الإسلامية الثانية بعد القيروان ، وآخر خطوة حققت انضمام شمال إفريقيا نهائياً إلى رقعة الدولة الإسلامية . إذ كان تأسيس القيروان بداية الجهاد الذي أدى إلى دخول البربر في الدين الإسلامي ، وأول قاعدة لاستقرار المسلمين في بلادهم . ثم جاء تأسيس تونس قاعدة قضت على البيزنطيين نهائياً من شمال إفريقيا ، وانخرعت منهم هذه البلاد إلى الأبد . وأصبحت القاعدتان محورياً تدور عليه أحداث الولاية الإسلامية بشمال إفريقيا .

وبانتهاء المسلمين من تخليص البلاد من النفوذ البيزنطي انجهوا إلى تنظيم أحوالها ونشر الإسلام بين ساكنيها^(١) التي لم يصل الإسلام إليها بعد . وساروا في تلك السبيل على قاعدة ذات تماماً على أن هدف المسلمين في فتح شمال إفريقيا هو نشر الإسلام بين أهلها وطرد البيزنطيين منها . إذ اعتبر المسلمون الأرض التي كانت تابعة للبيزنطيين أرضاً مفتوحة عنوة ، وطبقوا عليها النظام الإسلامي الخاص بها . فعاملوا من تبقى في المدن الساحلية من البيزنطيين وأخلافهم معاملة الموالى لهم ، لأنهم خشوا ما قد يثيره أولئك الناس من فتن واضطراب في البلاد . وترتب على هذه السياسة الإسلامية اختفاء المظاهر البيزنطية من البلاد تماماً ، وزوال اللغة اليونانية واللاتينية ، وأصبحت البلاد مهداة لقبول الإسلام وحضارته .

وساعد على انتشار الإسلام سريعاً في أرض المغرب ، واضطراب رعاياه بالحضارة الإسلامية حسن معاملة المسلمين الفاتحين للبربر سكان البلاد الأصليين . إذ لم يطبق عليهم المسلمون السياسة التي اتبعوها مع البيزنطيين ، وإنما سادوا بينهم وبين البربر في الحقوق والواجبات . فضم حسان عدداً كبيراً من جنود البربر

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٢ ص ١١٠ .

إلى جيوش المسلمين ، وسأوى بينهم وبين جند المسلمين العرب في القتال ،
وحرص دائماً على تجنب أى معاملة يحس منها البربر خضوعهم للعرب المسلمين .
وفضلاً عن ذلك اعتبر المسلمون البقاع التي سكنها البربر أرضاً مفتوحة صلحاً ،
فأقروا البربر على ما يريدون من الأرض ، وأصبحت كل قبيلة بربرية تختص بحمة
تتصرف فيها وتؤدي عنها التزاماتها ^(١) .

وهكذا دخل البربر أفواجاً في الدين الإسلامي على عهد حسان بن النعمان
بعد أن زالت سلطات البيزنطيين ، وأحسنوا أن الدين الجديد أخرجهم من عهد
طويل من الذل والاضطهاد إلى حياة زاهرة غامرة بالإخاء والمساواة . وقضى
حسان فترة حكمه في شمال إفريقيا جاهدًا على الإغلاء من شأن البربر الذين
دخلوا في الإسلام ، ورفع شأنهم بين الجند المسلمين الفاتحين ، حتى أدرك سائر
البربر عظمة الدين الإسلامي ، وفهموا حقيقة رسالته السامية . ولكن شاءت
الأقدار أن يخلف خليفة حسان وهو موسى بن نصير ثمار اعتناق البربر للدين
الإسلامي .

الجناح الرئيس لدولة الإسلام :

تولى شتون شمال إفريقيا بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير (سنة ٥٨٩هـ /
٧٠٧ م) . وقد واجه موسى فتناً من البربر استطاع أن يخمدها في سهولة ويسر .
إذ كانت بقايا البيزنطيين ووكلائهم وأحلافهم بشمال إفريقيا يفتهمزون الفرص
لإثارة الشعب ضد المسلمين الفاتحين . وجاء عزل حسان بن النعمان تسكئة اعتمدوا
عليها في تأليب البربر على السلطات الإسلامية بالقيروان . ولكن موسى بن نصير
أثبت أنه لا يقل شكيمة وأساساً عما سبقه من قادة المسلمين ، فبادر بإفشاء الخوارجين

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٧٦ .

على الفتنة من البيزنطيين عن البلاد، وضرب على أيدي الذين انضموا تحت
لواتهم بقسوة وشدة^(١). وهكذا كان أصبح البيزنطيين دائماً وراء كل حركات
البربر في هذه المرحلة الحثامية من استقرار الفتح الإسلامي بأرض المغرب.
وحالف التوفيق قادة المسلمين في نشر رسالة الإسلام بشمال إفريقيا، لأنهم
منذ أيام حسان وجهوا ضرباتهم للبيزنطيين وحدهم، وأبعدوهم عن كل بقعة
قد يتخذونها شوكة تهدد أرض الإسلام. وجعل موسى بن نصير هذه السياسة
نصب عينيه بعد أن رأى وكلاء البيزنطيين يتابعون سياسة الدس ضد المسلمين،
وأن الأساطيل البيزنطية أخذت تغیر من بعض قواعدها بجزر البحر الأبيض
على أرض المسلمين بشمال إفريقيا. فاعد أساطيلاً إسلامية غزا بها جزر منورقة
وميورقة (سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م)، وضمها إلى سلطان المسلمين^(٢)، وأخذت الحياة
تزدور في هذه الجزر بعد أن استقر بها المسلمون. وأصبحت ولاية موسى بن نصير
تمتد من حدود مصر الغربية إلى شواطئ المحيط الأطلسي، ولها هيبتها في حوض
البحر الأبيض المتوسط الغربي. وساد السكون والهدوء هذه الولاية في ظل
الإسلام، إذ استطاع موسى بن نصير بعدة وجه الإنصاف أن يجذب إليه كبار
رجال البربر، كما عين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين، وتقويةهم قواعدهم
على أسس سليمة صحيحة. وظهرت بشائر هذا العهد الجديد سريعاً، إذ حقق
الإسلام معجزة كبرى شهدت له بأنه دين الفطرة. فقد صيغ البربر بالصيغة
الإسلامية، وجعل لسانهم جميعاً اللسان العربي.

وكانت هذه الحقيقة حذاً فاصلاً في تاريخ البربر الطويل، إذ عجزت
الحضارات القديمة، التي وصلت بلاد المغرب منذ أقدم العصور وهي الإغريقية
واللاتينية، عن إدخال البربر في نطاقها، واقتصر تأثيرها على بعض مدن

(١) Mercier, op cit I, 217.

(٢) أبو الحسن، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

مبعثرة على طول الشريط الساحلي لشمال إفريقيا . ولكن بعد طرد البيزنطيين من شمال إفريقيا واستقرار الفتح الإسلامي بها دان البربر جميعاً بالدين الإسلامي ، ودخلوا في مضمار المدنية الإسلامية ، وأصبحوا شعباً له رسالة في العالم الإسلامي . وهذا التطور في حياة البربر هو الذي يعتبر معجزة الإسلام ، حيث تمكن من إنشاء وطن جديد له استعان به في ارتقاء سلم الرخامة العالمية .

ونجأت آية هذه المعجزة في أن الإسلام استطاع أن يجتهد من البربر جنوداً جددًا تسابقوا في مضمار الفتح الأخرى ، وغدوا الجناح الأيسر لقوات الإسلام . وكان أولئك البربر المسلمون يتحلون بالحماس والحمية التي عرف بها المسلمون العرب في أيامهم الأولى ، والتي ظهرت في فتوحاتهم المبكرة . فأنجب البربر قادة لا يقلون عن قادة المسلمين الأول في حماسهم لإعلاء كلمة الإسلام ونفاسهم في نصرته ، منهم طارق بن زياد ، قاض الأندلس^(١) وحامل راية الإسلام به^(٢) . وقد ساهم هذا الموطن الجديد للإسلام في مشاريع الدولة الإسلامية الكبرى ضد البيزنطيين . إذ كانت جيوش الدولة الإسلامية سنة ٧١٧ م محاصرة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وتعمل جاهدة على إزلالها والخط من شأنها . وقد اشتركت قوات الإسلام في شمال إفريقيا في هذا الجهاد الرائع ، إذ أمدت ولاية إفريقية جيوش المسلمين بأساطيل ومؤون وعقاد شددت من أزر الجند الإسلامي المحاصر للقسطنطينية ، وسجلت إسمها إلى جانب سائر الولايات الإسلامية الأخرى الداخلة في حظيرة الدولة الأموية ، والمشاركة في حرب البيزنطيين .

(١) كانت الحملة الإسلامية في شبه جزيرة أيبيريا من أروع الأعمال الحربية التي قام بها المسلمون ، ففي سنة ٧١١ م عبر طارق بن زياد إلى أسبانيا وبدأ سلسلة من الحملات اشترك فيها كذلك موسى بن نصير ، وانتهت باستقرار المسلمين في هذا الركن الجنوبي الغربي من أوروبا .

(٢) حنين بن أبي صالح ، تاريخ الهمم ، ص ٢٩٢ . ٢٩٣ .

وهكذا حقق الأمويون انتشار الإسلام في شمال إفريقيا والأندلس عملاً جيداً ،
هو انزعاع الصفة البيزنطية القديمة المنصقة بالبحر الأبيض المتوسط وإحلال
الطابع الإسلامي محلها ، إذ كان البيزنطيون يعتبرون دائماً بأن البحر الأبيض
المتوسط هو بحرهم ، حيث يرتوا عن أمهم الدولة الرومانية الكبرى الملقب الذي
أعذفته على هذا البحر وهو « بحر الروم » . على أن انتصار الجيوش الأموية
في شمال إفريقيا والأندلس كتب للمسلمين السيادة على الحوض الغربي للبحر
الأبيض المتوسط ، إلى جانب السيادة التي اكتسبوها على الحوض الشرقي من
هذا البحر بعد واقعة ذات الصواري . وأصبح البحر الأبيض المتوسط حراً
أن يدعى « بحر المسلمين » نتيجة مجهودات الأمويين الجليلة .

الفصل الخامس

التجاوب الحضارى

بين الدولتين الأموية والبيزنطية

التراث البيزنطى فى نظم الأمويين الإدارية

إدارة الأقاليم :

يعتبر العصر الأموى عهد امتصاص النظم والتقاليد البيزنطية التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة ، ثم استخدامها بما يتفق والوضع الجديد لدولة الإسلام . وكان أول نظام بيزنطى أبقى عليه المسلمون هو طريقة إدارة البلاد وتصريف شئونها . إذ رأى المسلمون أقاليم الشام ومصر وشمال أفريقيا ذات إدارات ومصالح ، ومنظمات وهيئات ، تجرى وفق نظم بيزنطية راسخة الأوتاد ، وأدركوا أن حكم دولتهم وتوجيهها لما فيه الصالح العام يقتضى ألا نسل الإدارات البيزنطية ويهمل عملها فى تلك الأقاليم التى استولت بالإسلام .

وقد أظهر المسلمون فى هذه الفترة المبكرة من بناء دولتهم عقلية فذة ، وأفقاً واسعاً فى استيعاب النظم الصالحة السائدة فى البلاد التى أخذوها من الإمبراطورية البيزنطية . وكان لهذه الظاهرة أثر كبير فى استقرار أحوال الدولة الإسلامية الفتية على عهد الأمويين ، وتجنبها المصاعب والمتاعب الاقتصادية والاجتماعية التى تواجه دائماً الدول فى المراحل الأولى من تكوينها . إذ استطاع الأمويون الاستفادة من نتائج تجارب الإدارة والحكم البيزنطى ، ووضعوا الأسس والدعائم المتينة لصرح دولة الإسلام ، وجعله أكبر قوة عرفها عالم المصور البىطلى .

وكان معاوية يسير على هدى الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي عرف عنه الاهتمام بدولة الإسلام وحرصه على تنظيم أحوالها بما يحقق لها الرفاهية والطمأنينة . إذ اعتمد الخليفة عمر على النظم البيزنطية في ترتيب شئون دولته ^(١) ، إلى جانب الأنظمة الفارسية الساسانية . وظهر تقدير الخليفة عمر لتواصي الإدارة البيزنطية في احتفاظه بكثير من مظاهرها عامة غير منقوصة . إذ حين وفد عمر إلى الشام ، وكان كثير التردد عليها أثناء الفتوحات الإسلامية ، وضع لهذا الإقليم تقسيم إدارياً جاء نموذجاً لما سار عليه البيزنطيون من قبل في إدارة هذه البلاد .

قسم الخليفة عمر إقليم الشام إلى عدة أجناد ، وهي أقاليم حربية يفهم في حاضرة كل إقليم فيلق من فيلق الجيش ، وكان هذا النظام سائداً في الشام البيزنطي . وجاء معاوية وخلفاؤه ودعخوا هذا النظام الحربي حتى أخذ مظهراً كاملاً . فكان جند فلسطين هو ما عرف عند البيزنطيين باسم فلسطين الأولى (*Palestina Prima*) وعاصمته مدينة « الرملة » . أما جند الأردن فكان فلسطين الثانية (*Palestina Secunda*) وعاصمته « طبرية » . وجند دمشق اشتمل على ما سماه البيزنطيون فلسطين الثالثة (*Palestina Tertia*) وفينيقيا الأولى ولبان (*Ad Libanum*) . ثم جند قيسرين فكان قبلاً يدعى سوريا الأولى (*Syria Prima*) ^(٢) .

وعقدت الدولة الإسلامية على عهد الأمويين بتنظيم إمارات كبرى ، بحكم كل منها والى مسلم مرتبط مباشرة مع الخليفة . وقد حافظ الأمويون في ولايات القسم الغربي من دولتهم على طريقة الإدارة البيزنطية فيها . فكانت الشام ومصر وشمال أفريقيا هي نفس الولايات التي خضعت للبيزنطيين من قبل ،

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ١٤٩ .

(٢) Le Strange, Palestine Under the Muslims, 20 .

بإدارتها وعملها^(١). ونعتبر مصر نموذجاً للطابع الإسلامي الإداري الجديد، إذ انتقلت مهام الحاكم البيزنطي العمام بها، الذي أطلق عليه اسم سيمبولوس (Symbolos) إلى عامل إسلامي لقب « بالأمير ». وكان يشرف على شئون الوجهين البحري والقبلي كما فعل سميح أيام سيادة البيزنطيين.

وساعد « الأمير » أو الحاكم الإسلامي العام شخص عن كل قسم من قسمي الدولة عرف باسم « صاحب »، وهو يرادف عند البيزنطيين « كاتب » (Chartularius). كذلك قسم الوجهان، البحري والقبلي إلى « كون » كانت هي الأقاليم التي عرفت في العهد البيزنطي باسم بجارخي (Pagarchies). وكان للمهين على شئون « السكورة » يدعى صاحب السكورة، وهو مرادف للبحارخي (Pagarchos). وظل دولاب العمل يسير على نسق الأداة الحكومية البيزنطية، فكل قرية من قرى السكورة استفظت بسجل فيه أسماء دافعي الضرائب وممتلكاتها، وكذلك أرباب المهن والحرف. وكانت هذه السجلات تعد بمساعدة كبار رجالات القرى^(٢)، الذين عرفوا في العهد البيزنطي باسم موازيت (Mezones). وبعد أن تنتهي السلطات المحلية من إعداد السجلات ترسلها إلى العاصمة حيث تعتمد السلطات العليا هناك^(٣).

وبذلك استطاع الأمويون أن يشهضوا بإدارة هذه الرقعة الكبيرة من

(١) كانت الدولة الأموية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى، يحكم كل منها أمير مرتبط رأساً بالخليفة وهي: الحجاز واليمن ومصر والعراق، وشيعة بلاد ما وراء النهر والسند وخراسان وحمص والحيرة ومعها أرمينيا وبعض أقسام آسيا الصغرى، ثم أخيراً إدارة إفريقيا ومعها الأندلس.

(٢) تذكر المراجع التاريخية أن قادة المسلمين حين ضلوا عند دخولهم البلاد المفتوحة على الاستفادة من خبرة كبار الشخصيات بها. وتحت هذه الطائفة بصفة خاصة في مصر، فكان عمرو بن العاص يسأل ساداتها القدامى عن اقتصاديات الأقاليم ومصرفاتها والتشريف التي تسكنها تحسب مراقبة. ويسار على نهج عمرو بن العاص سائر الولاة الذين تولوا إدارة مصر.

(3) Bell, *Greek Papyri*, 17, 48;

Nabia, *The Kairouan Papyri*, op. cit., 100.

الأراضي التي دخلت في حظيرة دولتهم . ولكن الخلفاء الأمويين أقدموا على خطوة جريئة ساعدت على نفوذه أواصر الروابط بين ولاياتهم جميعها ، وخلق الوحدة الإسلامية التي تنعم بها الدول الإسلامية اليوم . إذ أنجحت السلطات الأموية إلى تعريب الدواوين والإدارات التابعة لها في الدولة وضمها بالصيغة العربية . وبدأت هذه الخطوة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فبقيت لغة الدواوين في مصر والشام من اليونانية إلى العربية ، وفي العراق والمقاطعات الشرقية من الفارسية (الفارسية) إلى العربية ^(١) .

وكان الدافع على تعريب الدواوين والإدارة الإسلامية تمكين الولاة المسلمين من الإشراف إشرافاً كاملاً على شئون دولتهم . إذ كان تدوين السجلات باللغات الأجنبية حافزاً شجع صغار العمال على التزوير والتلاعب في السجلات دون أن يكتشف أمرهم ^(٢) . ولا شك أن أعراضاً أخرى هامة ، منها صيغ الدولة بالصيغة العربية ، هي التي حملت خلفاء بني أمية على تعريب الإدارة . إذ تروى بعض المراجع أسباباً مختلفة أو مبهمة لتعميل نقل الدواوين إلى العربية . فذكر البلاذري مثلاً « أن رجلاً من كتّاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء ، فبال في الدواة . فبلغ ذلك عبد الملك ، فأدبه . وأمر سليمان بن سعد بقتل الديوان ^(٣) » .

وسار ولادة الدولة الأموية على نهج خلفائهم في تعريب الدواوين في مقاطعاتهم ^(٤) ، حتى أخذوا النظام الجديد يشبه وينمو ، ويشمل سائر البلاد

(١) البلاذري نفس المرجع . ص ٢١

(٢) كان التزوير في السجلات شائعاً منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ، فأداه ديوان الخاتم . فلفظ على أمثال الروم ، وسبيل السجلات بينه وبين عمله . وبذلك أصبحت الأوامر والرسائل لا تصدر عن يلام الخليفة إلا بعد أن تسجل النسخة الأصلية في سجل خاص وتحت خاتم الخليفة نفسه .

(٣) البلاذري نفس المرجع . ص ٢٠٠

(٤) أشراف الحجاج بن يوسف الثقفي على تعريب الدواوين في العراق والمقاطعات الشرقية =

الإسلامية . ومما ساعد على اكتمال هذا النظام سريعاً أن عبد الملك أشار باستخدام من يجيد العربية في المناصب الرسمية بالدولة . وهكذا وضع الخلفاء الأمويون نصب أعينهم الاستفادة أولاً من نظم الإدارة البيزنطية . ثم تعريبها تاريخياً عما فيه صالح دولتهم .

وأنتم الأمويون بدورهم في نظم البيزنطيين الإدارية ، ولا سيما في بلادهم المعرضة لهجوم المسلمين . وكان أوضح مثال على ذلك إقليم آسيا الصغرى ، فقد رأت الدولة البيزنطية ضرورة وضع نظام إداري خاص لهذا الإقليم لصد هجمات الأمويين المذكورة عليه . وحفز الأباطرة على الاهتمام بإدارة هذا الإقليم أيضاً اتخاذهم خط دفاع لحماية القسطنطينية . فوضع الأباطرة لآسيا الصغرى نظام الأقاليم الخيرية الذي يعرف بالثيمود (Themies)^(١) ، وهو أشبه بنظام الأجناد الذي طبقة الأمويون على إقليم الشام .

وأنتم الأمويون بشرافتهم على إدارة البلاد التابعة لهم باقتباس نظام البريد (Veredus) من البيزنطيين . وكان معاوية واضع أسس هذا النظام الذي ظل يتطور طيلة العصر الأموي . واستخدم البريد في نفس الأغراض التي انتهت أيام البيزنطيين ، إذ اقتصر البريد على خدمة مصالح الدولة لا لتصرف شئون الأفراد والناس . فكان الخليفة يتصل بمحافظ الولايات ويقف على أخبار عماله بها وأحوال سكانها بواسطة « عمال البريد » ، وغدت هذه الأداة أشبه بإدارة البريد (Cursus Publicus) في النظام البيزنطي^(٢) .

وأكمل الخليفة عبد الملك ما بدأه معاوية في نظام البريد . فأصبحت هذه الإدارة تامة الإعداد ، وخول البريد تنقل الرسائل والمسافرين من دمشق إلى سائر

== فنقل المسكانيين وأعمال الدواوين من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية . وهناك من تعريب الدواوين في الدولة الأموية سيراً متظليماً مضطرباً .

(١) انظر الفصل الثالث من المسكاني ، ص ١٥٨ .

(٢) Hitti, op cit, 438. (٢)

حواضر الأقاليم الإسلامية . على أن أهم عمل قام به عمال القبريد هو مراقبة سير
الولاية والعمل في الأقاليم الإسلامية ، وإحاطة الخليفة علماً بما يبدر منهم من أعمال
حسنة أو سيئة^(١) . وغدت هذه الإدارة حريّة أن تدعى بعين الخليفة وأذنه
في شتى أرجاء دولته .

الفن المعماري والفنون :

تعتبر مجوهرات الأمويين في العمائر والفنون النواة الأولى للفن الإسلامي
وما حفل به آيات رائعة الجمال . وقد استغل الأمويون طرز البناء والفنون البيزنطية
التي وجدوها في البلاد التي دخلت في حظيرتهم ، ثم بدأوا يصيغون هذه المظاهر
البيزنطية بألوان تتفق مع الوضع الجديد لدولة الإسلام . فخرج مزاج إسلامي رائع
تولاه سائر خلفاء الدولة الإسلامية فيما بعد بالرعاية حتى أصبح لكل بقعة من
أرض الإسلام ذوقها وطابعها الفني الخاص .

ويعزى نجاح الأمويين في وضع النواة الأولى للفنون الإسلامية إلى ما عرف
عندهم من الأفق الواسع ، وحسن استغلال ما تصل إليه أيديهم من وسائل بيزنطية
لإعلاء وإتمام مبادئهم وسائر المرافق التي ترمز لعظمتهم وسلطانهم . ويعتبر
المسجد الأموي و « القصور الريفية الأموية » نماذج رائعة للفن الإسلامي
في بدايته ، واعتماده على النماذج البيزنطية . فالمسجد الأموي كان في الأصل
كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة القديس يوحنا^(٢) . ولكن الوايد استولى على
هذه الكنيسة سنة ٧٠٥ م وأدخل عليها كثيراً من التعديلات مما جعل البناء
الجديد مسجداً إسلامياً في البهاء والعظمة ، وشاهدنا على ما نحلى به الأمويون
من ذوق سليم .

(١) Hitti op cit, 484.

(٢) ابن عسكرو، عن المرجع، ص ١٩٩.

ونجحت الطرز البيزنطية في عمارة المسجد الأموي حيث استعان الخليفة
بعمال وفنانين بيزنطيين جلبهم خصيصاً من القسطنطينية^(١)، واشترك إلى جانب
أولئك الفنانين البيزنطيين عمال من أقباط مصر^(٢)، الذين تلقوا دروسهم عن
الفنون في مدارس البيزنطيين أيام تبعيتهم للدولة البيزنطية. وقام الفنانون
البيزنطيون ببناء القبة الحجرية الشائخة التي تعلو المسجد الأموي، والتي أصبحت
أول جزء يستقرى نظر الزائر للمسجد. وعهد إلى العمال البيزنطيين كذلك زخرفة
القبة من الداخل وسائر جدران المسجد بالفسيفساء التي كانت نموذجاً خاصاً
بالزخرفة البيزنطية.

وكان الوليد مهتماً بالحصول على الفسيفساء وتزين مسجده بها، فبذل شتى
الطرق للحصول على الفسيفساء البيزنطية وغيرها من المواد التي تصلح لزخرفة
مسجده. فكان الوليد يفرض على الجيوش الإسلامية من أهل الشام ومصر
والعراق أن يحمل كل جندي منها يغير على أرض البيزنطيين لا سيما من الفسيفساء
وذراعاً في ذراع من رخام، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب ويستأجرون
من يحمله إلى دمشق. ويحمله أهل حمص إلى حمص ومنه إلى دمشق، وأهل
دمشق يحملونه إلى دمشق^(٣).

على أن الأمويين، رغم استعانتهم بالعمال البيزنطيين وغيرهم من الفنانين
الأجانب، أكسبوا المزيج الفني طابعاً جديداً جعله إسلامياً في مظهره، حتى غدا
المسجد الأموي بدمشق نموذجاً اسائر للمساجد التي شيدت في البقاع الإسلامية
الأخرى. وكان الدليل على الفتح الإسلامي الجديد للفنون في الدولة الأموية
ظهور العقود في المسجد التي أشبه حدود الفرس. واستمد هذا الطابع الجديد

(١) ابن عساکر، نفس المرجع، ص ٢٠٢.

(٢) Bell, Greek Papyri, 18.

(٣) ابن عساکر، نفس المرجع، ص ٢١٠.

مميزاته من خصائص الوطن الأصلي للعرب . إذ كان تقوس العقود وغيرها من المظاهر المشابهة لها فيما بعد تقليداً لتقوس وتقيب فروع الفخيل المهيبة إلى قلوب العرب . وسرعان ما أصبح هذا المظهر الجديد للفن الإسلامي النموذج الذي احتذاه المسلمون في بناء مساجدهم ^(١) ، وغدا الرمز الذي يذكرهم بدولتهم ووحدة أممها انشئت رفعتها ^(٢) .

وقد اهتم الخلفاء الأمويون بمسكنهم التي يقضون فيها أوقات فراغهم . فكان لهم قصور في بادية الشام يذهبون إليها للاستجمام من متاعب الحكم . وشيدت هذه القصور على النماذج البيزنطية ، وتقليداً لما فعله الفساسنة وكلاء الدولة البيزنطية في الشام من قبل . إذ اتخذ أمراء الفساسنة مقاراً ريفية لأنفسهم ، جاءت آية في الروعة والاستعداد لقضاء أوقات الفراغ ^(٣) . وغدت أطراف بادية الشام عامرة بقصور الخلفاء الأمويين ، وكان بعض هذه القصور حصوناً بيزنطية أعدها الخلفاء الأمويون لراحتهم . وتعدد أسماء هذه القصور ، فمنها ما يسمى بالأخضر ، والوفر الذي يرجح أن يزيد بن عبد الملك قام ببنائه ، والقسطل (من اللاتينية Castellum أي حصن) ، والأرق الذين اتخذها الوليد الثاني مقراً للصيد وغيره من الملاحى ، والمشقى الذي بناه الوليد الثاني كذلك ^(٤) .

واشتهر من هذه القصور الأموية وبناها جميعاً « قصير عمرة » ^(٥) ، الواقع شرقي الأردن في محاذة الحافة الشمالية للبحر الميت . وينسب بناء هذا القصر إلى الوليد الأول فيما بين سنة ٧١٢ ، ٧١٥ م ، وتجلى فيه الطابع الفني البيزنطي ، ولا سيما في النقوش والزخرفة التي حلت جدرانها . فكان على أحد جدران هذا

(١) Hell, Die Kultur der Araber ١٢٩ .

(٢) سيد أمير على ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

(٣) حتى ، تاريخ العرب ، (ترجمة الأستاذ مبروك طافح) ص ٣٣٢ .

(٤) حتى ، نفس المرجع ، ص ٣٣٣ .

(٥) اكتشف هذا القصر العالم ألوا موزل (Alois Musil) سنة ١٨٩٨ م .

القصر صور أربعة ملوك يمثلون الامبراطوريات التي دانت للإسلام^(١)، وفوق هذه الصور نقش بالعربية واليونانية لتمييز كل صورة من الأخرى^(٢). وكانت هذه الصور تمثل قيصر وكسرى والنجاشي ولذريق آخر ملوك أسبانيا القوطية^(٣). عندما ويتجلى في زخرفة هذه القصور الأموية نواة الزخارف الإسلامية الخضة، التي اختص بها الفن الإسلامي وحده، حتى عرفت في اللغات الأوروبية باسم «أرابيسك» (Arabesque) نسبة إلى العرب، إذ كانت بعض الزخارف تحوي أوراق شجر وتخيل يتدلى من عراجينها الباح، وعدد من طيور الصحراء. واستخدمت الزخارف النباتية بشكل واسع في المساجد، وبرع الفنانون في سبكها حتى غدت ذات أشكال هندسية رائعة جميلة^(٤).

وهكذا خلفت آثار الأمويين المعارية آيات تنطق بمقدرة المسلمين على استيعاب الطرز البيزنطية الفنية وتحويلها بما يتكسب مبادئهم بهاءاً وروعة. على أن الحقيقة الكبرى التي تخضعت عن مجهودات الأمويين هو ظهور نواة الفن الإسلامي، التي ازدهرت فيما بعد وملأت سائر البلاد الإسلامية بروائع الفنون.

(١) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٧.

(٣) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٧.

(٤) حتى نفس المرجع، ص ٢٢٤.

الاتصال الثقافي وحصدي الحروب في آداب المسلمين والبيزنطيين

استطاع الأمويون أن يضعوا أسس نهضة المسلمين الثقافية في هذه الفترة المبكرة من ظهورهم على مسرح الحضارة العالمية ، وأن يكشفوا النماذج التي تغذى هذه النهضة وتعمل على ازدهارها . ونجح انطلاء الأمويون في إعداد طبقة من المسلمين كانت العمدة التي شيد عليها صرح الحضارة الإسلامية ، وما حفلت به من ألوان العلم والعرفان . ويعتبر العصر الأموي عهد غرس بذور دوحه العلم التي أثمرت زمن العباسيين ، وقدمت ثماراً ناضجة شبيهة الدولة الإسلامية ، وجعلتها تؤدي رسالتها في مضمار الحضارة العالمية .

٤ وتعزى قوة الدننامة الثقافية التي وضعها بنو أمية إلى حسن استغلالهم لتراث الثقافة الهلنستية ، ذلك ينبوع الذي زود البيزنطيين كذلك بشقي المعارف والمعلوم . وكان هذا الميدان الثقافي الخلبة التي تنافس فيها المسلمون والبيزنطيون ، كل يعمل جاهدأ على إفادة نفسه وترقية مستواه . وكانت الثقافة اليونانية وحضارتها قد اتصلتا ببلاد الشرق منذ غزا الإسكندر المقدوني أرض فارس (٣٣١ ق . م) ، وتأثرت بفلسفة الشرق وأفكاره . ونجم عن هذا الاتصال مزيج ثقافي جديد يضم ألواناً يونانية (هيلينية) وأخرى شرقية ، عرف باسم الثقافة الهلنستية . وظل هذا الطابع الهلنستي يسود بلاد الشرق إلى عصر انصوائه في رقعة الدولة البيزنطية .

ولما انفرد الأمويون بحكم الدولة الإسلامية وجدوا بأرضها التي كانت تابعة للبيزنطيين من قبل ، مثل الشام ومصر مراکز حضارة هيلنستية موزعة بين مدنها الكبرى ، فكانت هناك أنطاكية بالشام وقبصرية بفلسطين والاسكندرية بصفة

خاصة في مصر ، تذخر جميعها بالعلماء والمدارس والمتاحف ، ويمتلئ جوها بالحياة الفكرية والحضارة الهلنستية . وقد آل هذا الشطر الثمين من كنوز المعرفة إلى دولة الإسلام^(١) ، وتولى الأمويون استغلاله وتنميته لصالحهم وما فيه خير قوتهم .

اعتمد الأمويون على أنفسهم في تنمية نصيبهم من تراث الثقافة الهلنستية ، ثم اتجهوا إلى التيزنطيين يستعينون بهم فيما يقرأى لهم . فشجع الأمويون نقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية ، إذا كان على هذا التراث أن يصبح عربياً إسلامياً أولاً وقبل كل شيء^(٢) . ولذا بدأت حركة الترجمة لتعريب الكتب اليونانية على نحو تعريب النظم الإدارية وسجلاتها في البلاد المفتوحة . واضطلع بهذه المهمة في مبدأ أمرها رجال من رعايا الدولة الإسلامية الذين حملوا مشعل الحضارة الهلنستية في بلادهم قبل ظهور الإسلام^(٣) .

وتجلى اهتمام الأمويين بتعريب التراث اليوناني في أعمال خالد بن يزيد بن معاوية . إذ كان مغرمًا بعلم الكيمياء ، واستدعى بعض العلماء من الإسكندرية وكلفهم ترجمة الكتب اليونانية التي تناولت هذا الموضوع^(٤) . وكانت مدرسة الإسكندرية وعلمائها في طليعة حركة نقل التراث اليوناني إلى العربية . وساعدت أحداث الفتح الإسلامي على استغلال جهود علماء الإسكندرية إلى أقصى حد خلال العصر الأموي . إذ كانت اتخذ القسطنطينية عاصمة جديدة لمصر سبباً في احتلال شأن الإسكندرية واضطراب علمائها إلى الذهاب إلى الشام ، التي غدت مقر خلفاء بني أمية المعروف عنهم تشجيع العلم^(٥) .

(١) عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني ، ص ٦٩ .

(٢) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٦٩ .

(٣) Khuda — Bukhsb, Islamic Civilisation, 1, 2. (٤)

Hitti, History of Syria, 408. (٥)

(٥) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٦٨ .

وحفلات الشام وحاضرتها دمشق بالعلماء الذين وقفوا جهودهم على نقل الثقافة الهلنستية إلى العربية ، على حين تولى الخلفاء وأبنائهم رعاية هذه الحركة الثقافية المبكرة . ولذا اجتذب بلاط الأمويين بدمشق الضليعين في العلوم الإغريقية وغيرهم ممن يمكن الاستفادة بهم كالأطباء^(١) . وغدت تربة الشام صالحة لفرس بذور المعرفة ، وإحياء المراكز الحضارية بها . وظهر ذلك جلياً عندما انتقلت أخيراً مدرسة الطب بالأسكندرية إلى أنطاكية بالشام على عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، بعد أن اضطلع شأن الأسكندرية وانتقل مركز النشاط بها إلى القسطنطينية .

وكانت أنطاكية نموذجاً لاهتمام الخلفاء الأمويين بإحياء مراكز الثقافة الهلنستية بتقريب حكمهم . إذ اشتهرت أنطاكية قبل الإسلام بتقدمها في مضار الحضارة بفضل علمائها من اليعاقبة^(٢) . ولكن تدهورت أحوال هذه المدينة على عهد الإمبراطور هرقل بسبب غزو الفرس للشام . وظلت أنطاكية تنح من وضعها حتى دخول الإسلام أرض الشام . فتولى بنو أمية إعادتها إلى سيرتها الأولى وبعث دم الحياة فيها مرة أخرى . وازدهرت أنطاكية على عهد الأمويين رغم وقوعها بالقرب من منطقة التخوم القلقة الأوضاع بين الدولتين الأموية والبيزنطية . ذلك أن موقع أنطاكية ساعد على جلب المخطوطات من آسيا الصغرى^(٣) ، وحركة تبادل المراجع التي كانت تنشط في فترات السلم وانتهاء الحروب^(٤) .

(١) كان أطباء بلاط الأمويين من عبيدون يونانية ، واشتهر منهم ابن أبي عمير الذي كان يبالغ معاوية ، ويخافون اليوناني ، كما يتضح من اسمه ، والذي كان يبالغ في الحاجة .

(٢) ينسب اليعاقبة إلى زعيم المذهب النسطورية ويدعى يعقوب بن راديموس ، الذي ظهر في الشام .

(٣) عبد الرحمن بن عوف ، نفس المرجع ، ص ٦٩ .

(٤) عبد الرحمن بن عوف ، نفس المرجع ، ص ٦٩ .

وزار بعض علماء المسلمين المشهورين القسطنطينية ، حيث أوقدهم الخلفاء في سبام خاصة . وكان من هؤلاء العلماء الفقيه عامر بن شراحيل الشعبي (المتوفى سنة ٧٢٨ م) . وهو من أهل الكوفة التي اشتهرت في هذه الفترة المبكرة من عهد الحضارة الإسلامية بأنها مركز هام من مراكز الثقافة . وعرف الشعبي باطلاعه الواسع وأنه سمع الأحاديث التي كان يحفظها عن ظهرفاب و يرويها دون أي خلط من نحو مائة وخمسين من الصحابة ؛ وظهر من تلاميذ الشعبي أبو حنيفة العظيم . وقد زار الشعبي بلاط القسطنطينية مبعوثاً من الخليفة عبد الملك ابن مروان ، واسترعى أنظار البيزنطيين بعلمه الواسع ، وعزارة مادته .

وقد ظهر في الفواحي الثقافية آثار الاتصال السياسي والاحتكاك الحربي بين الأمويين والبيزنطيين وتعدد حصدى أعمالهما في الآداب والأشعار . فادت الحروب إلى اعتلاء آداب الدواوين والقصص والأشعار التي تمجد البطولة والبسالة وتشيد بالأقدام والمغامرة ، وغدا كثير من الرجال الذين تناولتهم هذه الآداب شخصيات أسطورية ، لها قوة خارقة للعادة ، ومقدرة على أداء الصعب من الأعمال . فمن ذلك أن المراجع العربية تشيد بمحارب مسلم اسمه عبد الله البطال ؛ وتمجد مغامراته وحروبه ضد البيزنطيين ، على حين تروى المراجع البيزنطية الكثير عن مغامر هاجم الأراضي الإسلامية ويدعى ديجينيس أكريتاس ^(١) Digenis Akritas

وإذا كانت سائر كتب الأدب العربي تروى الكثير من قصص البطولة التي أبدعها المسلمون في الميدان البيزنطي ، فإن الشعر الأموي سجل بدوره نشاط قادة المسلمين وأشاد بهم . وقد اهتم الخلفاء والأمويون بالشعراء وجذبوهم إلى بلاطهم وأغدقوا عليهم العطايا الوفيرة ، حتى أصبح أولئك الشعراء صحف بني أمية ورواة

أعمالهم . وكان من أشهر الشعراء الذين وفدوا على بلاط الأمويين بدمشق ،
وتناولوا في أشعارهم جهود بني أمية في حرب البيزنطيين وإعزاز دولة المسلمين ،
الفرزدق وجريز والأخطل ^(١) .

وقد شهد عصر أولئك الشعراء الثلاث الفطاحل عهد انسحاق الفنوح
الأموية وضم كثير من أرض البيزنطيين إلى دولة الإسلام . وكان عنوان عظمة
الأمويين في تلك الفترة ثلاثية من أعظم الخلفاء ، عبد الملك بن مروان وإبناه
الوليد وسليمان . فعاصر الشعراء الثلاثة الأحداث التي قام بها أولئك الخلفاء ضد
البيزنطيين وسجلوها في أشعارهم . على أن معظمهم أشادوا بسليمان الذي اشتهر عنه
تحصنه لمحصار القسطنطينية وبذله أقصى الجهود لإذلال البيزنطيين . وسجل
جريز في مدائحه أفضال سليمان في نصرة الإسلام وانتصاراته على البيزنطيين ^(٢) .

وتناول الشعراء كذلك أعمال قادة الأمويين ضد البيزنطيين وخلدوا أعمالهم
في أشعارهم . وكان مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة على رأس من مدحهم جريز
وسجل أعماله الرائعة ضد البيزنطيين ^(٣) . وقد أجاد جريز في شعره ، وإن كان
مقتضياً ، وبعد مدحه تعبيراً عما ساد عصره من حماس وحسب للجهاد ، وأن الخليفة
وأخاه كانوا رمز الشعور الإسلامي ، وتغافى الجميع في الزود عن حياض الإسلام
وإعلاء شأنه .

(١) أشهر أولئك الشعراء الثلاثة بأنهم كانوا في منبة شعراء العصر الأموي وأكثرهم
انصالاً بالخلفاء الأمويين ، وحرب عنهم المبال إلى الفجاء الشديد والندح كذلك . وتعمل الراجع
بالمكتبر من أخبار هؤلاء الشعراء الثلاثة وما خلفوه من فساد .

(٢) مدح جريز الخليفة سليمان وأشاد بانتصاراته على البيزنطيين ، ودافع ملك السند
كذلك :

هذاك الذي يهدي المسلمين لنقى وأعطيت نصراً في تلك الملائق
وأرسل هرقل قد هيرت وداهرا وتبعني لسكن من آل كسرى اللواصف
(٣) أشاد جريز بما عرف عن مسلمة بن عبد الملك من حب قيادة الجيوش الإسلامية
وما ناله من نصر : فكان

ولم تخل الأشعار الأموية من تسجيل طرائف تتردد فيها صدى أحداث الحروب بين المسلمين والبيزنطيين ، ومن ذلك أن الخليفة سليمان خرج للحج مرة وحجبت معه الشعراء ، وهناك عقد مجلساً بالمدينة حيث وصلت طائفة من أسرى البيزنطيين ، بلغت نحو من أربع مائة . وكان من بين الأسرى شخصيات رأى الخليفة قتلها ، فأمر الفرزدق الشاعر أن يتناول سيفاً ويطيح برأس أسير . ولكن أحد مناهضي الفرزدق دس له سيفاً غير ماض ، ولما ضرب به الأسير لم يمت ، فضحك الخليفة والحاضرون ، وسمت أخوال سليمان وهم بنو عيسى بالفرزدق ^(١) . فرد بشعر يسفه به الناصرين عليه ، ويذكر أن شيعة سليمان المنفور عن الأسرى وإطلاق سراحهم ^(٢) .

وهكذا حفلت الآداب الأموية بتأليفات متعددة تصور مظاهر الاتصال الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين ، وتبين مدى ما كان للخلفاء الأمويين من تأثير في رقي الحركات الثقافية بالدولة الإسلامية . على أن أهم مظهر ميز الثقافة الإسلامية في هذه الحقبة المبكرة هو ظهور الطابع الشرقي في الحضارة الهلنستية والاستفادة من ثقافات بلاد البحر الأبيض المتوسط . وتعد الحقيقة السالفة من أهم العوامل التي غذت حضارة المسلمين بدم جديد ، وجعلتها تزدهر على عهد العباسيين .

تمسلم جرار البيروني إلى بغداد كما زاد أصحاب القينة نوح
بذلك تنق المدام عسيرة وأخرى برأت السحاب تنوح
(١) كتاب الفرائد ، ٤٨٢ .

وأندد الفرزدق بعرضاً بني عيسى :

إن يك سيف حال أو قدر أني لأخبر نفس حقتها غير شاهد
فكيف يتو عيش وقد ضربوا به بنا يلقى ورقاء عن رأس خلد

(٢) وعرض الفرزدق في هذه المناسبة أيضاً بأعدائه ، ودمج فضائل سليمان وميله إلى إطلاق سراح الأسرى قائلا :

فلا تغفل الأسرى ولكن تفكهم أحسن بأيام العسلى والسكرام
فهل خربة الروم جاعة لك أب عن كليب أو أبا مثل دارم

الاتصالات الدبلوماسية

لم ترق الدوتان الأموية والبيزنطية ستاراً يفصل كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال ويجعلهما تعيشان عيشة إنعزالية موحشة . إذ استلزمت صلة الجوار وقيام الحروب بينهما ظهور نوع من الاتصالات الدبلوماسية ، تهدف إلى حل المشاكل التي تطرأ لها ، وخدمة سائر الأغراض الأخرى التي تمنع للفريقين . ولكن يلاحظ أن العلاقات الدبلوماسية بين الدوتين اختلفت عما نعرفه في الوقت الحاضر « بالتمثيل الدبلوماسي » بين دول العالم . إذ لم يكن هناك في الدولة الإسلامية أو البيزنطية دور سفارات يقيم بها ممثلون دائمون للاعتراف على شئون دولتهم وحماية مصالحها .^(١)

كان التمثيل الدبلوماسي بين الأمويين والبيزنطيين يقتصر على إرسال سفير عندما تقتضي الظروف ، الاتفاق على عقد هدنة أو التفاهم على إنهاء وضع شاذ خاص بأسرى الحرب أو مسائل تجار من دغايا الدوتين . ويشبه هذا النوع من التبادل الدبلوماسي ما نعرفه اليوم بالسفراء فوق العادة ، وهم الأشخاص الذين توفدهم الدول لحضور حفلة زفاف أو إبرام اتفاق ، ثم تنتهي مهمتهم بانتهاء المناسبة أو المهمة التي أوفدوا من أجلها ، ويعودون إلى بلادهم .

وظهر في هذه الفترة المبكرة من الاتصال الدبلوماسي بين المسلمين والبيزنطيين نظم مقررة اتبعها الفريقان ، حتى يتمكن السفراء من تأدية رسالتهم على أحسن وجه . فقد راعى أولو الأمر في الدوتين الإسلامية والبيزنطية تزويد السفير بخطاب يحمل تعريفاً بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسمياً باسم دولته . وكان هذا الخطاب أشبه بأوراق الاعتماد التي يحملها السفراء اليوم

Runciman, op. cit., 156. (١)

Baynes, the Byzantine Empire, 74.

عند مقابلتهم رؤساء الدول التي يقدون إليها . وإلى جانب ذلك تمتع السفراء المسلمون والبيزنطيون بكافة أنواع الحصانة الدبلوماسية التي نعرفها اليوم . إذ كان السفير يعتبر رمز الدولة التي توفده وله كافة الحقوق التي لرئيس دولته .^(١)

وحرص الأمويون والبيزنطيون على الحفاوة بالسفراء وإغداق مظاهر التكريم عليهم . إذ قصد كل من الفريقين إظهار عظمتهم لمثل الطرف الآخر والعمل على ترك أطيب الأثر في نفسه . وكان ذلك من الوسائل الفعالة في حل المشاكل ونصفية الأحقاد . وخصصت الدولتان الأموية والبيزنطية مبالغ كبيرة للأغراض الدبلوماسية .

فاجتهد معاوية بمقد أن كان والياً على الشام في تخصيص مبالغ الانفاق على استقبال السفراء وضيافتهم . فطلب من الخليفة عثمان بن عفان أن يترك له خراج بعض أراض وضياح كان يرسل إلى بيت المال في الحجاز للمرضى بأعباء التمويل الدبلوماسي . فأجابه الخليفة إلى طلبه^(٢) ، وغدا معاوية يقوم بدخل واسع كان أساس سياسته إزاء سفراء البيزنطيين بعد أن أصبح خليفة المسلمين .

وعرف عن الدولة البيزنطية مبالغتها في التقاء سفرائها إلى الدولة الإسلامية^(٣) ، ولأنها كانت تسكن لها الهيبة والاحترام . إذ أرسلت إلى دمشق بعد انتهاء حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع أحد رجالها المتنازين ويدعى يوحنا . وكان هذا السفير مسناً حكماً لبقاً ، عولت الدولة البيزنطية عليه الشيء الكثير في إنهاء حالة الحرب الطويلة الذي بينها وبين الأمويين .

وصل يوحنا إلى دمشق واستقبلته السلطات الأموية بالحفاوة والترحيب .

(١) ابن الفراء ، رسائل الملوك ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ ، أنظر ص ٥٨ في الكتاب .

(٣) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

وعقد له مجلس كبير ضم كبار شخصيات البيت الأموي وعالية القوم من المسلمين .
واكتسب هذا السفير عطف معاوية لأنه حرص دائماً على إظهار احترامه للدولة
الاسلامية . واستطاع بوحده أن يعقد صلحاً مع الدولة الاسلامية نداه ثلاثون
عاماً ، ثم عاد إلى القسطنطينية مزوداً بأطيب الأخبار عن عظمة البلاط الأموي
وتبلى رجاله ^(١) .

وبلغ حرص الدولة البيزنطية على أن يسكون سفراؤها إلى الدولة الاسلامية
عنواناً للأخلاق الرفيع مبلغاً كبيراً . فزودتهم بتعليمات مكتوبة تحضهم على التمسك
بمكارم الأخلاق ، وأداء رسالتهم بصدق وأمانة . إذ حدث أن توفي أحد السفراء
البيزنطيين الذين وفدوا إلى دمشق على عهد معاوية ، فوجد في جيبه « لوح
ذهب مكتوب فيه حفرأ : إذا ذهب الوفاء نزل البلاء » ، وإذا مات الاعتصام
عاش الانتقام ، وإذا ظهرت الخيانات قلت البركات » ^(٢) . ونهض هذه الحادثة
دليلاً على ما كانت الدولة البيزنطية تعاقبه من أعمال على سفرائها ، ونذ كبيرهم
دائماً بسمو الرسالة التي ينهضون بأعبائها .

وكان يتوقف على السفير إلى حد كبير تنفيذ أغراض دولته ورفع شأنها . ومن
ثم كان تمسكه بالعفة النصيحة الأولى التي يزوده بها صاحب الأمر في الدولة .
إذ كثيراً ما جهدت السلطات في البلاد التي يذهب إليها السفير في اجتذابه إلى
جانبها لتكشف سره أو تخفيف الشروط التي يجادلها وكان ذلك يتطلب معرفة
بأحوال السفير ودراسته شخصيته . إذ حدث أن أرسل معاوية أحد سفرائه إلى
القسطنطينية لإبرام هدنة مع السلطات البيزنطية . وكان هذا السفير مزوداً
بتعليمات مشددة تقضي ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين . ولكن
لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية ، وشهاون في عقد الهدنة حتى جاءت

(١) Berg, op cit, 312

(٢) ابن القراء ، نفس المربع ، ص ٣٤ .

في صالح البيزنطيين^(١). ولما عاد السفير عزله معاوية عن تولى مناصب الدولة ، وأثبت أنه يقف بالمرصاد لتصرفات سفيراته .

واشتهر من سفراء الأمويين إلى بلاط القسطنطينية العالم الفقيه عامر بن شعرا حبل الشامي . إذ بعثه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى امبراطور الدولة البيزنطية في رسالة خاصة . وقد استطاع الشامي أن يثبت علو كعبه في ميدان الدبلوماسية الاسلامية ورفع شأن دولته . اذ دخل في مناقشات مع السلطات البيزنطية جعلته موضع احترامها وإجلالها . فأقبل عليه الامبراطور بحفاوة وسأله عدة أسئلة أجاب عليها الشامي إجابات رائعة حازت إعجاب الامبراطور . وظننت السلطات البيزنطية أن الشامي من أبناء البيت الأموي لنول تصرفاته وإطلاعه الواسع . وقد حسد الامبراطور البيزنطي الخليفة عبد الملك على هذا الرسول الحاذق^(٢) ، وعهد إلى الوشاية بينهما ، لكن فطن الخليفة إلى خيلة الامبراطور وازداد تمسكا ورعاية بالشامي^(٣) .

وتمددت أغراض المهام التي أوفد من أجلها السفراء الأمويون والبيزنطيون ، ولكن كان أبرزها محاولة إنهاء حالة حرب أو الأبقاء على فترات السلم أطول مدة ممكنة ، إذ يلاحظ أن العصر الأموي حفل بالحروب المستمرة تقريبا بين المسلمين والبيزنطيين وتبادل الإغارات الخربية بينهما على أنه لم تقم سفارات كبرى بين الدولتين الأموية والبيزنطية لتبادل الأمري (الفداء) على نحو ما حفل به العصر العباسي فيما بعد ، رغم اتساع دائرة الحروب في العصر الأموي ، وما يتبع ذلك من ازدياد عدد الأمري الذين يترددون من الطرفين . فلا توجد في المراجع إلا إشارات عابرة عن اتصالات دبلوماسية لإطلاق سراح بعض الشخصيات

(١) ابن خلدون ، الفخرى ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ج ١٧ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) ابن القراء ، نفس المرجع ص ١٣ .

السكبري من رجال الدولتين ، واقتصر القداء على حالات فردية ^(١) . وكثيراً ما استهدف المسلمون والبيزنطيون من تبادل كبار الأمري التذليل على حسن النية أو الإصرار في عقد معاهدة أو هدنة .

حر على أن هناك سفارات دبلوماسية لم تكن من طرافه في نوع النومة التي تقوم بها . إذ كان بعض السفراء يحملون كتباً فيها مداورات ومحاكاة على نحو ما يفعل بعض رجال الدبلوماسية في الوقت الحاضر . وكان المذهب من هذه السفارات للنيل من أولى الأمر في البلاد أو وصف بعض أعمالهم بالسفه ^(٢) . وتجلي هذا النوع من الرسائل حين أخذ الوليد كنيسة دمشق وجعلها إلى المسجد الأموي ، إذ كتب إليه إمبراطور الدولة البيزنطية « إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها ، فإن كان حقاً فقد خالفت أبك ، وإن كان باطلاً فقد أخطأ أبوك » ^(٣) . فلما وصلت الرسالة إلى الوليد رأى ما فيها من مغالطة ، وعقد مجلساً من العلماء وقرأ عليهم الرسالة وشاورهم في طريقة الإجابة عليها . واستطاع القرزوق الشاعر أن يأتي بأحسن الآراء . إذ أشار على الخليفة أن يرد على الإمبراطور بقصة سليمان وداود الذين تعرضا للقضاء في إحدى المناكبات ، وأبدى فيها كل منهما رأياً دون أن يختلفا مطلقاً . واستشهد الوليد في رسالته بالآية القرآنية « وداود وسليمان ، إذ كانا في المحار » إذ نفشت فيه غم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، فقمناهما سليمان ، وكلا آثينا حكماً وعلماً . » ^(٤)

ومما يسكن من أغراض السفارات الأموية البيزنطية فإن الجانب الذي راعاه الطرفان دائماً هو وضع برنامج خاص لضيافة السفراء والترفيه عنهم . إذ كانت السفارة تضم بعض شخصيات كبيرة يجب إعطاءهم صورة حسنة عن

(١) القزويني ، المخطوط ، ج ٢ من ١٩١ .

(٢) ابن القراء ، نفس المرجع ، من ٤١ .

(٣) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ج ١ ، من ٤١ .

(٤) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ج ١ ، من ٢٠٢ .

الأماكن التي يذهبون إليها . وكانت المبالغة في إكرام السفراء أمراً حرص عليه الأمويون والبيزنطيون ، ولا سيما أثناء تبادل الهدايا أحياناً ^(١) . فكان ركب السفارة يصل محملاً بالهدايا النادرة لأولى الأمر في البلاد وغيرهم من كبار رجالهم . وفي العاصمة يستقبلهم عامل خاص بقمهم الآداب والتقاليد التي يجب أن تراعى عند مقابلة صاحب البلاد ^(٢) .

وخصصت دور ينزل بها السفراء طوال الفترة التي يقضونها في العاصمة ^(٣) . وحرصت السلطات الأموية على مراقبة السفراء البيزنطيين حين يغدون إلى دمشق دون أن تشعرهم بذلك . إذ كثيراً ما كان السفراء البيزنطيون يغدون في تلك الفترة المبكرة من الاتصال السياسي بين الدولتين للتجسس ، والوقوف على مبلغ استعدادات الأمويين الحربية . وفي أمثلة ذلك السفارة التي أرسلتها الدولة البيزنطية أثناء استعداد الخليفة الوليد لحصار القسطنطينية ، — وهو الحصار الأخير لها — زمن سليمان ^(٤) . وكانت الدولة البيزنطية تفرد دوراً مخصوصة ينزل بها السفراء المسلمون عندما يأتون إلى القسطنطينية ، وتهتم بضائقتهم ورعاية مطالبهم .

وكان من المرافق التي يحرص الأمويون على عرضها للسفراء البيزنطيين قصورهم وزواجر مساجدهم ، وكثيراً ما استمع الخلفاء الأمويون للملاحظات التي كان السفراء يبدونها ويأخذون بها إذا كانت حسنة مقبولة . ذلك أنه وفد على معاوية رسول بيزنطي بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء ،

(١) إكرام السفراء عادة قديمة ترجع إلى عهد الرسول الكريم ؛ إذ جاءه سفير من الدولة البيزنطية بالهدايا الكريمة . فقد قال الرسول (ص) للسفير البيزنطي : « إنك رسول قومك ، وإن لك حقاً ، ولكن جلتنا ونحن مسلمون » . فقال عثمان بن عفان : أنا أكسوة حلة صفورية ، وفان رجل من الأنصار على ضيافته .

(٢) Runciman, op. cit., 157.

(٣) Hamidullah, Muslim Conduct of State, 139.

(٤) انظر الكتاب ص ١٨٤

والذي أصبح فيما بعد دار الإمارة . وكان القصر مبنياً بالطوب ، فلما شاهدته السفير البيزنطي أبدي عليه بعض الملاحظات ، ورواها حين سأله معاوية « كيف ترى هذا البنيان ؟ » فرد السفير قائلاً « أما أعلاه فله مصافير ، وأما أسفله فلأفار » . وأدرك معاوية صحة انتقاد السفير ، وأعاد بناء قصره من الحجارة ، مما جعله رائعاً صالحاً للبقاء طويلاً ^(١) .

وحرص الخلفاء الأمويون كذلك على جعل سفراء الدولة البيزنطية يشعرون بعظمة العمارة الإسلامية ، ولا سيما في مساجدهم . فكان الجامع الأموي بدمشق قبلة أنظار السفراء ، يطلبون مشاهدته والتمتع بما فيه من روعة البناء . ولم يستطع بعض السفراء البيزنطيين إخفاء ما دخل قلوبهم من هيبة وروعة عند مشاهدة الجامع الأموي .

وتجلى نجاح الأمويين في أهدافهم عند ما وفدت سفارة بيزنطية من عشرة رجال إلى دمشق زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز . إذ عهد الخليفة إلى عشرة رجال مسلمين ممن يعرفون اللغة اليونانية بمصاحبة أفراد هذه السفارة دون أن يعلمهم أنهم يعرفون اللغة اليونانية ، ثم كلفهم أن يدونوا له ما يبدونه من ملاحظات . ولما دخلت السفارة البيزنطية الجامع الأموي وأخذت تنفوس في روائعه الفنية خر رئيسها مغشياً عليه ، فحمل إلى منزل الضيافة ، ولما أفق سأله رفاقه عما حل به فجاء ، إذ كان طوال الطريق موفور الصحة والعافية . فقالوا له « ما الذي عرض لك حين دخلت هذا المسجد ؟ » فقال ، إنا معشر أهل رومية (أي القسطنطينية) نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيقونها ، فلذلك أصابني ما أصابني » ^(٢) .

(١) ابن عساکر ، قس المرجع ، ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) ابن عساکر ، قس المرجع ، ج ١ ص ٢١٠ .

وكانت الدولة البيزنطية بدورها تعرض على السفراء المسلمين روائع عاصمتها وما بها من مباحج . فكانت تعهد إلى بعض موظفيها باصطحاب السفراء لرؤية كنيسة أياصوفيا وقناطر المياه والأديرة القائمة حول القسطنطينية ، والحفلات الرياضية التي كانت تقام في الملعب (Hippodrome)^(١) . وأعجب السفراء المسلمون بنواحي النشاط في الملعب ، حيث كان المتنافس لسائر مباحج مكان العاصمة . وكان سباق العربات أهم لون في الاستعراضات التي تقوم في الميدان ، وفي الفترة التي تتخلل سباق العربات كانت تعرض ألعاب يقوم بها المهرجون والبهائم . فبعضهم من يمشي على الخيل ، ومنهم من يضع عموداً على جبهته ويتسلقه الأطفال .

وكان الامبراطور وكبار رجال دولته يحضرون مع السفراء أحياناً لمشاهدة الألعاب في الميدان ، وكانت لهم مقاصد خاصة . وعندما يدخل الإمبراطور مقصورته ويرفع شطاء رأسه ويرسم علامة الصليب تبدأ الموسيقى تعزف وكذلك الملعب . وقام بالتقرب من الميدان دار البلاط ، التي كان ينزل بها السفراء ، وكبار رجال الأسرى من المسلمين . وهذه الدار بنيت منذ أيام الخليفة عبدالملك ، وروى أحد الكتاب المتأخرين سبب بناء هذه الدار قائلاً : « اعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلاد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصرة في الميدان ، ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليسكنوا تحت كنفه وتعاوده ، فأجابه إلى ذلك ... ولا يسكن دار البلاط إلا وجيه في إجراء وتعاوده وتنزه »^(٢) .

وخلف لنا الرحالة المسلمون فيما بعد صوراً عن مشاهداتهم في الملعب

(١) Runciman, op. cit. 157, 158.

(٢) القدس ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .

البيزنطى^(١)، مما ينهض دليلاً على حسن السياسة الدبلوماسية التي وضعها
الأمويون، والتي نعم خلفاؤهم بها، وساروا على هديها فيما بعد. إذ تعرضت
نواة التمثيل الدبلوماسي التي وضعها الأمويون مع الدولة البيزنطية على عهد
العباسيين، وحفظت المراجع الإسلامية والبيزنطية بشئ الصور عن مظاهر هذا
التبادل السيامي.

(١) ذكر ابن رسته، في كتابه الأملق النفسية، ص ١٢٠، وصفاً للامبراطور البيزنطي
فيما يلي: —

« في وسط المدينة بلاط الملك وهو قصر، وإلى جانبه موضع يقال له البفرون (وهو
Hippodrome)، وهو يشبه الميدان يمتدح إليه فيه البعارة، يشرف عليهم الملك من قصره
وفي وسط المدينة، وعلى طرفي الميدان .. بابان، يسوقون إلى هذين البابين ثمانية من الخيل.
وهناك عجلمان من ذهب يشد كل عجلة على أربعة من الخيل، ويركب فوق العجلة رجلان
قد ألبسا ثياب مئوجة بالذهب، ويركبا تحري .. حتى تخرج من تلك الأبواب .. فأبواب
صاحبيها، التي إليه من دار الملك طوف من ذهب ورمال ذهب، وكل من في فلسطينية
يشهدون ذلك الميدان ».

السياسة الدينية

أظهر الاتصال الدبلوماسي بين الأمويين والبيزنطيين احترام الفريقين لشعائر ديانتيهما ، واتخاذ كل منهما سياسة خاصة في المسائل الدينية التي تعرض لها . فسارت الدولة الأموية على سياسة معاملة أهل الذمة من رعاياها بالحسنى ، وفق تعاليم الدين الإسلامي السامية . وكان أهل الذمة يكونون إحدى الطبقات الأربعة التي انقسم إليها المجتمع الأموي ؛ إذ وجد إلى جانبهم طبقة العرب المسلمين الذين قاموا بالفتوحات وقبضوا على أزمة الحكم في الدولة الإسلامية ، ومن هذه الطبقة الأمويون الذين أخذوا أعنة السلطان في يدهم . ثم هناك الموالى من أهالي الولايات الذين اعتنقوا الإسلام وأخيراً طبقة الرقيق . وكان المسيحيون خاصة هم حلقة الاتصال بين الأمويين والبيزنطيين وخبر الزاوية في سياستيهما الدينية .

• مظهر • واشتهر عن الدولة الأموية حسن معاملتها للمسيحيين حتى وصل كثير منهم إلى مراتب عالية في الإدارة الإسلامية . وكان لهذه السياسة أثر كبير في استقرار أوضاع الدولة الإسلامية في هذه الفترة المبكرة من تاريخها السياسي ، وسد الثغرات التي حاول البيزنطيون النفاذ منها إلى أرض الإسلام . إذ انجذبت الدولة البيزنطية إلى تغيير سياستها بعد ظهور الإسلام بما يحقق أغراضها ، فالمعروف أنها كانت من قبل تعامل رعاياها من أصحاب المذاهب الدينية المخالفة لمذهبها الرسمي معاملة قاسية وتعتبرهم « هراطقة » خارجين على قوانين الدولة ويستحقون أشد ألوان التعذيب .

وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين في التبعية لها اتجهت الامبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياساتها بحيث جعلت من نفسها صاحبة الحق في رعاية المسيحيين في بلاد المسلمين والدفاع عن مصالحهم . وعهد

البيزنطيون بهذه السياسة الجديدة وضع العراقيل أمام دولة المسلمين الفتية ، ولا سيما في الجهات التي لم تستقر فيها أقدامهم تماماً . وتجلت هذه السياسة مع البربر المسيحيين شمال إفريقيا ، ومحاولة ضمهم إلى جانبهم في صد التقدم الإسلامي على بلادهم . ولكن المسيحيين لقوا كل غناية وتكريم من المسلمين ولا سيما من الأمويين بحكم الدولة الإسلامية .

وأظهر معاوية مؤسس الدولة الأموية كل مودة وتقدير للمسيحيين بالشام . فزوج بامرأة مسيحية من قبيلة كلب وتدعى ميسون . وكانت زوجته على المذهب اليقوي الذي اضطلعت الدولة البيزنطية من قبل أنصاره ومعتقيه . وارتفع شأن ميسون ولا سيما أنها أنجبت لمعاوية ولحقه يزيد . فكانت تحمل ابنها إلى مضارب قبيلتها حيث يتقدم مع أقاربه من المسيحيين ، وأثبت بنو كلب أنهم أوفياء مخلصون للبيت الأموي ^(١) .

ونصب يزيد وسط أصدقاء من المسيحيين . فكان من أعز أصدقاءه في أيام شبابه يوحنا الدمشقي . وكان هذا الصديق المسيحي حفيد منصور بن مرجيوس الذي تولى منصب المشرف المالي لمدينة دمشق أواخر العصر البيزنطي ، ونصب معاوية والد يوحنا على إدارة الشؤون المالية ^(٢) . وظل يوحنا الدمشقي يتمتع بحرية عقيدته في ظل خلفاء بني أمية حتى أنه غدا من أقطاب المسيحية وقطاعها المدافعين عنها والمهتمين بنشاكلها . وقد خلف يوحنا أيامه كذلك في الانتماء على إدارة مالية دمشق . وظل هذا المنصب المالي حكراً على أسرة مرجيوس حتى عهد الوليد وتعميرب الدواوين ^(٣) .

وكان الأخطال شاعر القصر الأموي مسيحياً ، إذ كان ينتمي إلى عرب

Hilli, History of Syria, 324-440 ;

Landels, Le Règne du Califé Mo'awia 280.

Hilli, op. cit., 430, 499

(١)

(٢)

(٣) يروكلمان ، نفس المرجع ص ١٦٨

تغلب النصراني الذين أقاموا في الحيرة . وكان الأخطل نديماً ليريد كذلك
 وصديقاً ليوحنا أيضاً . ودأب الأخطل على دخول قصر الخليفة وقد تدلى من
 عنقه الصليب ، ويلقى قصائده التي نالت إعجاب الخليفة ومن حوله . وبلغ التسامح
 الديني أقصاه في السماح للأخطل المسيحي بالتدخل في المناقشات التي كانت
 سائدة بين عرب الشام المسلمين ^(١) . إذ ظهر على عهد الأمويين الشعر السياسي
 الذي يمجّد الأمويين ويشيد بأعمالهم ، وتنظم الأخطل القصائد في مدح البيت
 الأموي .

واستخدم الأمويون أطباء مسيحيين . حتى كان أطباء الخلفاء منهم .
 فكان طبيب معاوية مسيحي يدعى ابن أنال . وقد نصبه معاوية مديراً مالياً
 لمقاطعة حمص ، وهي وظيفة لم يسبق أن شغلها مسيحي في الدولة الأموية ^(٢) .
 إذ كانت الوظائف التي تولّاها المسيحيون على عهد الأمويين هي المناصب التي
 كانوا يشغلونها من قبل ، واحتفظت السلطات الإسلامية بها لهم . ولكن جاء
 تعيين معاوية لابن أنال على شؤون مالية حمص دليلاً على ما تتمتع به المسيحيون
 من عطف ورعاية .

وكان طبيب معاوية أن يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة
 ويستمع إلى جدلهم الديني ومناقشتهم المختلفة . ودفعت الكتب التي وضعها
 المسيحيون الأول بصور متعددة للرجال التي عقدها انديحيون من رعاية الدولة
 الأموية بحضرة الخليفة ، وهي تنطق بالمرن التسامح الديني وحمو الإسلام .
 وأشادت المراجع البيزنطية كذلك بما أثمر عن معاوية من عطف على المسيحيين ،
 إذ تشير إلى أن معاوية سمح للمسيحيين بإعادة كنيسة الرها سنة ٦٧٨ م ، وكانت
 قد تمحطت بفعل أحد الزلازل ^(٣) .

(١) Lammen, op cit, 393

(٢) حن ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

Duty, op cit, II, 413 (٣)

وقد حفظ المسيحيون معاوية وآله هذا التسامح الديني وما نالوه على أيديهم من عطف وتكريم . فأخلصوا البيت الأموي ، وتقاتلوا في تأدية ما عهد إليهم أداءه من أعمال . فاستطاع الأمويون أن ينهضوا بأعباء إدارة شئون دولة الإسلام على أحسن الوجوه وخيرها . ومن ناحية أخرى سجل المسيحيون فيما وضعوه من مؤلفات فضائل البيت الأموي وأشادوا به بما يعلى من شأنه .

وتردد صدى المعاملة الطيبة التي تقبها المسيحيون في الدولة البيزنطية ، إضرأت السلطات بها أن من الأجدى الاعتراف بفضائل المسلمين ورعاية شعائرهم من يفد منهم إلى بلادها . وكان معظم الزائرين المسلمين لبلاط القسطنطينية من السفراء ، فضلا عن الأسرى المسلمين . وتحلى احترام الدولة البيزنطية لشعائر المسلمين الدينية أن بنت بالقسطنطينية مسجداً يؤدون فيه طقوسهم حين حضورهم إلى العاصمة .^١ وتنسب الزوايا بناء هذا الجامع إلى عهد الامبراطور ايوان الثالث^(١) الذي قاوم الحصار الأموي الثالث على القسطنطينية . إذ أدرك هذا الامبراطور أن من الأجدى كسب مودة المسلمين باحترام شعائرهم الدينية ولا سيما أنه عرف سمو معاملاتهم للمسيحيين في بلادهم .

وكان الامبراطور ايوان نفسه قد نشأ في جو إسلامي وتأثر بتقاليده . إذ هو من مدينة مرسى في منطقة التحوم الإسلامية البيزنطية ، وكان يجيد العربية إجادة لغة اليونانية . وقد نهج ايوان على سياسة دينية إزاء رعاياه كان لها صدى في الدولة الأموية ، وجاءت دليلاً على ما اتصفت به الدولة الإسلامية من تسامح إزاء حرية العقيدة للمسيحيين . إذ رأى الامبراطور أن عبادة الإيقونات ، أي الصور المقدسة والتماثيل التي تصور العذراء والقديسين غدت ظاهرة متفشية بين رعاياه ، وصمم على وضع حد لهذه الظاهرة ، وشن حملة شعواء على أنصارها . وتعرف سياسة الامبراطور ايوان في التاريخ البيزنطي باسم الحركة اللايقونية ، أي الحركة

(١) القديس ، نفس المراجع ، ص ١٤٧ .

المتاهمة للصور والتماثيل المقدسة وعبادتها ، وإصلاح الحالة الدينية وتطهيرها من الماديات ^(١) .

أصدر الامبراطور ايو الثالث سنة ٧٢٦ م مرسوماً يطالب فيه من القائمين على شئون البيوت الدينية والأديرة رفع الصور المقدسة إلى أماكن عالية ^(٢) حتى يقلع الناس تدريجياً عن الوقوف والركوع أمامها خاشعين متبتلين ^(٣) . وأدى هذا المرسوم المعتدل الى فئنة شديدة بالقسطنطينية ، مما يدل على أن الايقونات كانت تحتل مكاناً أساسياً من اعتقادات الناس ، غير أن الامبراطور رأى عدم التخاذل أمام ثورة شعبية لا تقوم على أساس ، وإنما زائفة الفتنة عزمًا ، إذ أعقب مرسومه الأول بمرسوم آخر أزيل بمقتضاه التماثيل والصور المقدسة الموجودة في الكنائس وغيرها ^(٤) .

على أن تطبيق هذا المرسوم أثار ضجة عالية في القسطنطينية امتدت آثارها إلى خارج العاصمة ، إذ ناهض معظم رجال الدين السياسة اللا إيقونية التي قرنها الامبراطور نيو ، وتذرعوا بأن بقاء الصور والتماثيل وسيلة لتقريب الدين إلى أذهان الناس . وظهر من طبقة رجال الدين أحد قطايع علماء المسيحية المقيم في أرض الدولة الأموية وهو يوحنا الدمشقي ؛ إذ عارض يوحنا سياسة الامبراطور ايو اللا إيقونية ، وكتب في ظل الخلافة الأموية ثلاث مقالات تعد من أروع ما كتب دفاعاً عن الصور المقدسة وإجازة تقديسها . إذ قال إن ما يعبد هو الشخص الذي تمثله الصورة لإمادة الصورة نفسها ^(٥) .

واشتد الجدل والنزاع حول مسألة الايقونات ، فاتهم ايو بأن سبب حملته هو محاولته التقرب من الدولة الإسلامية ، ووصفه بعض المراجع بأنه « ذو عقلية

(1) Bury, op. cit. II, 428, 429.

(2) Vasiliev, L'Empire Byzantin, I, 339, 340.

(3) Ibid., 232.

(4) Ibid., 342, 343.

(5) Ibid., op. cit. 501.

عربية « . وكانت الدولة الإسلامية قد بدأت منذ ثلاث سنوات ، قبل مرسوم
ليو بإزالة الإيقونات — أى فى سنة ٧٢٣ م — ، بحركة أشبه بما قام به الامبراطور
البيزنطى . إذ أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ م / ١٠٤ هـ ، بتخليم
الصليبان فى كل مكان ، وهو الصور والتماثيل من الكنائس فى جميع بلاد الدولة
الإسلامية^(١) . ولكن السلطات الإسلامية لم تمنح رعاياها المسيحيين من الأدلاء ،
بآرائهم فى المسألة اللا إيقونية ، رغمًا عن أنها لم تفر عبادة الإيقونات فى أرضها
نفسها .

وهكذا احترمت الدولة الإسلامية وجهة نظر رعاياها المسيحيين ، ولم تتركهم
على اتخاذ عقيدة معينة فى شئونهم الدينية الخاصة . فلم تعرض بأى أذى للقديس
يوحنا الدمشقى حين طاف بأنحاء الشام يناضل من أجل عبادة الصور المقدسة
ويدحض آراء المعتادين لها . وبلغ من حماس يوحنا أنه خاطر بنفسه وزار بلاط
القسطنطينية ليدافع عن أرامه فى المشكلة اللا إيقونية ، ويعتبر يوحنا نموذجاً
لتسامح الإسلام ، إذ لم يكف بالدفاع عن الإيقونات فحسب ، وإنما ألف تراجم
لا يزال بعضها مستعملاً فى احتفالات الزواج البروتستانتية ، ونعد من أجل
ما وصل إليه شعراء الكنيسة المسيحيون من إجابة وروعة فى الأدب الكنسى .
وله فضلاً عن ذلك كتب دينية وأناشيد تجعله ذرة لامعة فى جبين الكنيسة المسيحية
على عهد خلفاء بنى أمية^(٢) .

ومن ثم اتصفت السياسة الدينية لكل من الدولتين الأموية والبيزنطية
بالاعتدال عن التعصب المذهبى ، وما يودى ذلك من محاولة أنصار كل ديانة
القضاء على أتباع الديانة الأخرى . وهذا أمر فريد من نوعه فى تاريخ العصور
الوسطى عامة ، التى نعتها بعض المؤرخين بأنها عصور دين وعصود حزب .

{1} Byzantium 319.

{2} Hill, op cit, 500, 501.

إذ عرف المسلمون على عهد بنى أمية كيف ينهرون العالم المحيط بدوائهم بسمو
تعاليم دينهم ، واعتقادهم بسياسةهم الدينية إزاء رعاياهم من المسيحيين وأهل
الكتاب عامة . وضربت الدولة الأموية بذلك المثال الأعلى على عظمة
الإسلام ، واعتقادهم عما وضع به البيزنطيون من قبل من عنيت واضطهاد ديني
إزاء رعاياهم ، وإنزال أشد ألوان التعذيب بهم وكبت حرية عقيدتهم .

التراث الأموي في الحضارة الإسلامية

سقوط الدولة الأموية :

إهتم الخلفاء الأمويون اهتماماً كبيراً بالشطر الغربي من دولتهم الممتد على البحر الأبيض المتوسط ، وسخروا ما به من مقومات وحضارات لخدمة المسلمين وبلادهم . واستطاع الأمويون بفضل هذه السياسة الوقوف وقفة الحارس الأمين للدفاع عن أرض الإسلام ضد البيزنطيين ، وإعداد التربة في هدوء وأمان لتثبت فيها بذور الحضارة الإسلامية . وكان البيزنطيون طوال العصر الأموي يتربصون للدولة الإسلامية ويعدون على النيل منها كلما ساحت لهم الفرص . إذ كانت الغيرة تآكل قلوبهم لارتفاع صرح الدولة الإسلامية وعلو سلطانها في ميدان البحر الأبيض المتوسط .

واستطاعت الدولة الأموية أن تتفرغ لجهتها الغربية وتُدفع عدوان البيزنطيين باستمرار بفضل سلسلة من الولاة المخلصين ، تولوا تصريف شئون الشطر الشرقي من الدولة الأموية . إذ نصب بنو أمية على إقليم العراق الذي كان مركز القسم الشرقي من الدولة الإسلامية عمالاً عرفوا بالحزم والثبات في أداء الواجب والإخلاص لأمرهم . فكان المفيزة بن شعبة وزيايد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي نماذج رائعة لهذا النوع من الولاة الأمويين في الشطر الشرقي من الدولة الأموية .

ويعزى إلى أولئك الولاة حسن إدارة إقليم العراق وما يتبعه من بلاد ، مما جعل الخلفاء الأمويين يطمئنون مطمئناً تماماً إلى سير الأحوال على خير ما يرجى في رقعة بلادهم الشرقية . وظل العمال الأمويون في العراق وسائر البلاد الشرقية الإسلامية على الولاة لبني أمية في أخرج الفترات التي أخذت تحتازها

دولتهم بعد عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣ م) . إذ يعتبر حكم هذا الخليفة حداً فاصلاً بين عهد ازدهار الدولة الأموية وعلو شأنها وبين عهد اضمحلالها وانتشار العوامل الفتاكة في جسمها .

ونخرجت معاول الهدم التي أطاحت بالدولة الأموية من القسم الشرقي من بلادها ، واستغلت اضطراب الأحوال في القسم الغربي من الدولة وأزالت نهائياً الأمويين عن عرش الخلافة الإسلامية . فبدأ كرس انطفاء الأمويين جهودهم في مصر حضارات البحر الأبيض المتوسط وتحويلها لمنفعة الدولة الإسلامية كانت أرض العراق وإيران تضطرب بحركات وراء ظهر الأمويين ، هدفها التخلص من سلطانهم وإقصائهم عن الخلافة .

وقد بدأت عوامل الاضطراب تحدث أحداثها في أراضي الشطر الشرقي من الدولة الأموية بعد حادثة كربلاء ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب (٦١ هـ / ٦٨٠ م) . إذ اختار الشيعة أنصار علي بن أبي طالب وأولاده العراقي مقرأ لهم ، ونشروا هناك دعوتهم . والتف حولهم السواد الأعظم من أهل العراق تكفيراً عن اتخاذهم في نصرة الحسين ^(١) . وكان سكان العراق يعتقدون على أهل الشام علو ذكركم وقيام حاضرة الدولة الأموية في ديارهم . وظل الشيعة يترصدون الدوائر بالأمويين ويسعون على الانتقام لما حل بهم هوان .

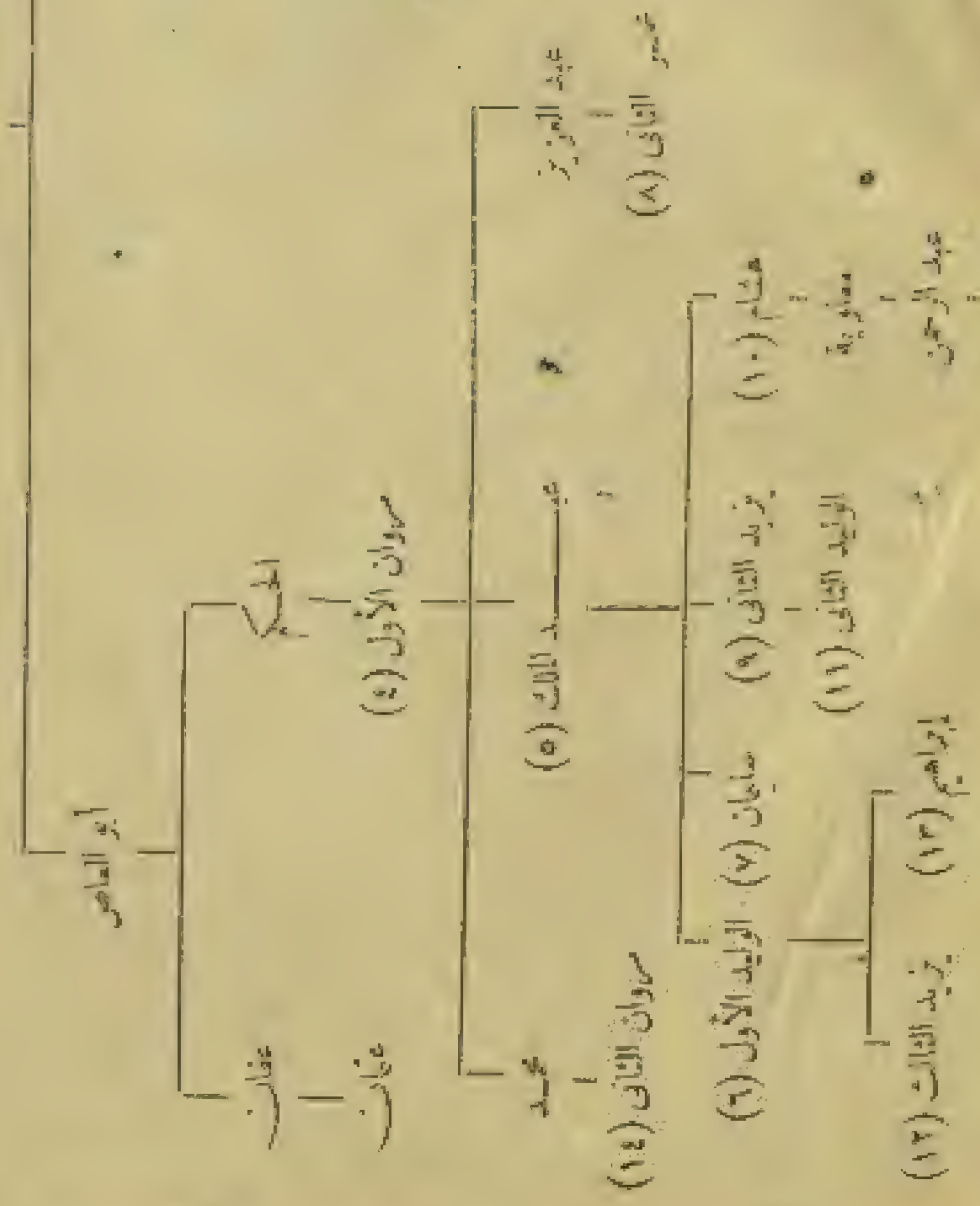
وساعد على انتشار روح التدمير في العراق ظهور حركة العباسيين ، التي عمل أصحابها على انتزاع السلطة من أيدي بني أمية . إذ جهد العباسيون بما عرف عنهم من الدهاء على احتضان الشيعة والاستفادة منهم في إزالة دعائم الدولة الأموية . ونجح العباسيون في تحقيق أهدافهم بأن مرجعوا دعوتهم مع العلويين بظواهرهم بالمطالبة بحقوق آل البيت (البيت الهاشمي) . وكان الشيعة يعتقدون

(1) Nicholson, Literary History of the Arabs, 167, 198.

أبنة

عرب
 أبو صفهان
 معاوية الأول (١)
 يزيد الأول (٢)
 معاوية الثاني (٣)

بني



الأمرؤيون في أسبانيا

أن المقصود بالدعاية سلالة علي بن أبي طالب ، وأنهم أحق الناس بالخلافة
سائر أفراد آل البيت .

وعرف العباسيون كيف يديرون الدعوة لأنفسهم ويزيدون عدد أتباعهم
وأنصارهم . فأنخذوا لأنفسهم حق الدفاع عن الدين الحق ، متهمين بني أمية
بمخروجهم على تعاليم الدين الاسلامي وعدم مساواتهم في المعاملة بين سائر المسلمين
المنضوين تحت رايهم . وكان العباسيون يهدفون من ذلك كسب أهل فارس
الذين انتشرت بينهم دعاية الشيعة^(١) ، ولا سيما في منطقة خراسان في الشمال .
إذ كان سكان هذه الجهات يحقدون على الأمويين اعتزازهم بالعنصرية العربية
وتعاليمهم على رعاياهم من غير العرب^(٢) .

وغدا العباسيون بذلك أبطال المعارضة للبيت الأموي وقادة حركة المقاومة .
وأجادوا تدير دعايتهم ضد بني أمية ، فتخبروا قرية صغيرة إلى الجنوب من
البحر الميت تدعى الخيمة وجعلوها مركزاً لهم . وتمتاز هذه القرية بمحسن موقعها
وصلاحياتها لنشر الدعوة ، إذ تقع في ملتقى طرق تجارية وعلى طريق الحجاج إلى
مكة . ونجح العباسيون في إيجاد اتحاد بينهم وبين الشيعة وأهل خراسان ،
وكان ذلك إيذاناً بأفول نجم الخلافة الأموية . إذ عرف الخلف الجديد كيف
يستفيد من مظاهر الاضطراب التي انتشرت في الدولة الأموية بعد عهد
الخليفة هشام .

وكان أول مظاهر الاضمحلال التي طرأت على الدولة الأموية تجدد روح
النعصب القبلي بين القبائل العربية المنتشرة في أرجاء البلاد الاسلامية . إذ قام
الشقاق بين عرب الجنوب أي اليمنيين وعرب الشمال أي المضريين واشتد النزاع
بينهما . وانفجر الصراع في الشام مقر الخلافة الأموية بين قيس أشهر القبائل

(1) Browne, op cit, 130, 131.

(2) Nicholson, op cit, 280, 281.

المفسرية وقبيلة كلب أشهر اليمنيين ، وفي خراسان والعراق تجدد النزاع بين تميم
أشهر قبائل عرب الشمال ، وبين الأزدية من عرب الجنوب .

ووقفت القبائل العربية وجهاً لوجه من عرب الشمال وعرب الجنوب في سائر
أرجاء الدولة الأموية . وأدركنا التنافس بينهما أن الخلفاء المتأخرين من بني أمية
لم يستطيعوا حفظ التوازن بينهما على نحو ما فعل معاوية من قبل ، وغيره من
الخلفاء الأقوياء . فقد أخذ كل خليفة أموي يحايي بعض القبائل ويناصرها على
غيرها . وتطور النزاع بين القبائل إلى أنها غدت تساعد أسراء البيت الأموي
في الوصول إلى العرش . فكان الوليد الثاني يناصر القيسية ، على حين استطاع
يزيد الثالث أن يغتصب العرش منه بمساعدة اليمنيين ، الذين أصبحوا منذئذ
موضع رعايته . وغدا الخلفاء الأمويون بذلك رؤساء أحزاب خاصة ، لا خلفاء
للدولة الأموية المتحدة ^(١) .

وزاد هذه الاضطرابات سوءاً مبدأ ولاية العهد الذي وضعه الخلفاء الأمويون .
فكان نظام ولاية العهد غير ثابت أو مستقر الأوضاع ، إذ جرى شككياً وفق
طريقة البيعة العامة دون أن يستطيع الخلفاء تقرير أسلوب خاص لولاية العهد بين
أبنائهم . ثم زاد هذه المشكلة تعقيداً السابقة الخطيرة التي سببها مروان بن الحكم
مؤسس الفرع المرواني ، إذ لم يكن يكف بتعيين ابنه ولياً أمهده ، وإنما عذب الأشخاص
الذين يخلفونه في ولاية العهد . ونجم عن ذلك أن كل خليفة يتولى العرش بعمل
جاهداً على إقصاء من عينه سلفه ويقتصر ولاية العهد على ابنه فقط . وأصبحت
الخلافة تبعاً لذلك مسرحاً للدياساس في الفترة المتأخرة من عهد الدولة الأموية
وصرفت الخلفاء عن المشاكل الداخلية التي أخذت تعرقل مرافق الدولة ونشل
أدائها .

وكان الجو بذلك ممهداً أمام التحالف المعادي لبني أمية ليضرب ضربه

(1) Hitti, op cit, 328, 330.

الآخيرة . وبدأت نهاية الأمويين سنة ٧٤٧ م عندما نشر أبو مسلم الخراساني ، أحد دعاة العباسيين ، العلم الأسود شعار العباسيين في خراسان ، التي أصبحت أولى البقاع التي رفعت راية العصيان على الأمويين . وأظهر عامل الأمويين في خراسان وهو نصر بن سيار ولاءه للبيت الأموي ، إذ أسرع بإرسال وصف للحالة في خراسان وطلب من الخليفة الأموي إذ ذاك وهو مروان الثاني (٧٤٤ - ١٧٥٠ م) تدريك الثورة في خراسان . وكان مروان يتصرف بالجهد الشديد في الحرب مما جعله يلقب بمروان الحار ، واشتهر أيضاً ببراعته في فنون القتال حتى أنه يعزى إليه تدعيم نظام الكراديس ، وهي وحدات صغيرة شديدة التماسك ، وإزالة نظام الصفوف الذي كان مستعملاً من قبل .

ولم يستطع مروان رغم صفاته الشخصية أن يثبذ الموقف ، إذ كان منغمساً في إخماد فتنة ثارت بالشام وامتدت إلى فلسطين وحمص ، وأذكي نيرانها الطامعون في الخلافة . وزاد موقف مروان سوءاً أن ولاء أهل الشام بدأ يتحول عنه ، ذلك أن مروان ارتكب خطأ فاحشاً عندما نقل مقر حكمه وخزائنه إلى حران في العراق الأعلى . وكان أهل الشام يرون بقاء الخليفة في دمشق رمزاً لعظمتهم ومركزاً للتفاني في خدمته . وبذلك ذهبت صيحات نصر بن سيار سدى ، وهذا الطريق مفتوحاً أمام العباسيين لإكمال دعوتهم وحركاتهم ضد الأمويين .

ودخل أبو مسلم مروان عاصمة خراسان سنة ٧٤٧ م بمساعدة قبيلة الأزد اليمنية وفلاحى الفرس ، ثم تلا ذلك سقوط الكوفة أهم مدن العراق سنة ٧٤٩ م . وفي أكتوبر من نفس السنة أخذت البيعة العامة في مسجد الكوفة لأبي العباس ، وتوذى به أول خليفة عباسي . وعندما أخذت راية الأمويين تتجه أمام علم العباسيين الأسود . وقد أفاق مروان الثاني لما دهمه من خطر ساحق بعد فوات الأوان . إذ صمم على صد الزحف العباسي ، والتوجه إلى العراق قبل وصول جيوش العباسيين إلى الشام .

وسار مروان على رأس قواته والذين يجيوش العباسيين التي كانت تحت قيادة
عبد الله بن علي ، عم الخليفة العباسي ، على الضفة اليسرى للزاب الكبير أحد فروع
دجلة ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الجيوش الأموية وفرار مروان الثاني . وقد
قررت معركة الزاب مصير إقليم الشام ، إذ دخل العباسيون هذا الإقليم في سهولة
وبسر ما عدا مدينة دمشق ، إذ أثبتت هذه العاصمة أن تستسلم دون مقاومة . ولكن
العباسيين حاصروا المدينة العاتية المتكبرة ، وضيقوا عليها الخنادق حتى سلمت
في إبريل سنة ٧٥٠ م ، بعد حصار دام أياماً قلائل .

أروستوط دمشق زالت دولة الأمويين عن مسرح التاريخ الإسلامي .
وقد جهد مروان الثاني على القيام بمحاولة أخيرة لينقذ ما بقي له من سلطان^(١) .
ولكن أعماله كانت كسعادة الموت وضرباً من حب الحياة والتسلية بها . إذ تابع
العباسيون زحفهم واستولوا على فلسطين ، ثم أرسلت فرق من الجيش لتعقب
مروان الثاني في مصر . واستطاع العباسيون القبض على مروان الثاني في مدينة
بوصير ، ووضعوا حداً لما كان يجيش في نفسه من أطماع بإعصامه ، وذلك
في أغسطس سنة ٧٥٠ م .

وبدأ العباسيون بعد ذلك في استئصال أبناء البيت الأموي ، فأعملوا
في أفراد القاتلين بالشام القتل ليظلموا بهم تماماً عن دائرة السلطان والنفوذ ،
وليأمنوا حركات المقاومة التي قد يشيرونها ضد النظام الجديد . فبث العباسيون
العميون والجواسيس في سائر أرجاء البلاد الإسلامية للقبض على الأمويين الخائفين
بها وقطع دابرهم . ولكن استطاع أحد أبناء البيت الأموي أن يحافظ على تراث

(١) كان مروان قد عقد لنية على الرحيل إلى إحدى مدن الدولة البيزنطية ليستعيد بالامراتور
فلسطين القدس . ولكن بعض مشورة الذين لم يتفوا به في غنائه أشاروا عليه بالإفراج عن
هذه السكرة وتصفه بالاربحال إلى مصر أو إفريقيا ، والتأهب هناك للدفاع عن ملكه واستمداده
مرة أخرى . لكن سرية الزحف العباسي قضت على هذه الفكرة في مهدها . وقد حقق
عبد الرحمن الأموي هذه السكرة حين استطاع الحرب إلى الأندلس .

آبائه وأجداده وأن يفر من حملة الاضطهاد والتقتيل التي قام بها العباسيون .
إذ استطاع حفيد هشام ، الخليفة الأموي العائش ، ويدعى عبد الرحمن الخلال من
يد العباسيين القوية ، ووصل إلى أرض الأندلس في أقصى أطراف الدولة
الإسلامية في الغرب وأسس لنفسه دولة هناك مستقلة عن الدولة العباسية .

الترات الأموي :

غربت شمس الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ولسكن خلفت وراءها
دفناً لهم به المسلمون قروناً طويلة . إذ تولى الأمويون تدعيم دوحة الإسلام في حوض
البحر الأبيض المتوسط ، ووضع نواة حضارة للمسلمين في تربة هذا البحر ، الذي
شاهد الحضارات التي عرفها العالم القديم . ونجح الأمويون في الإغلاء من شأن
الإسلام والمسلمين باتجاههم صوب البحر الأبيض المتوسط ، الذي كانت قطب
الرحى في الأحداث العالمية ومحط أنظار كل دولة كبرى تبغى لنفسها مقاماً سامياً
وعظمة خالدة .

وكان الأمويون يتحلون بخلق سكان البحر الأبيض المتوسط ، وهو بعد النظر
وما يتبعه من الاهتمام بالمستقبل والاستعداد له ، والمقدرة على إيجاد روح التعاون
والترابط وما يتطلبه ذلك من متابة وعزم صادق . وتجلت هذه الصفات التي
فطرت عليها نفوس بني أمية منذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وتمسك
بها سائر آل بيته الذين تداولوا عرش الخلافة حتى زوالها عنهم . فأدرك معاوية
أن البحر الأبيض المتوسط هو الميدان الحذر بأن تنجح إليه قوى المسلمين لإحراز
دولتهم الناشئة وحمايتها من الأخطار المفاجئة .

ورسم معاوية لخلفائه السياسة التي كفأت المسلمين ودولتهم العزة والمنعة ،
وحققت لهم السيادة على غيرهم من الأقوام الحاورة لدولتهم . فكرس الأمويون
جهودهم لخلق بحرية إسلامية قوية دفعت عن أرض الإسلام أخطار البيزنطيين ،

العدو المدود ، وسكنت المسلمين من التوسع على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والاستيلاء على شمال إفريقيا . ولذا ما أن ظهر العباسيون وقلوا حاضرتهم إلى بغداد حتى سارت البلاد الإسلامية في غرب الدولة على تراث القوة البحرية التي خلفها الأمويون في تلك الجهات (١) .

وهكذا حافظ الأمويون على الفتوحات والجهودات التي بدأها الخلفاء الراشدون ، ثم تابعوا في نشاط رافع بسط رقعة الإسلام ولا سيما في حوض البحر الأبيض المتوسط . فقدت شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية أراضي إسلامية فضلا عن شواطئ الأندلس . ولم يكف الأمويون بهذا السلطان الواسع ، وإنما بدأوا خطوة جعلت من البلاد التي وصل إليها الإسلام وحدة وثيقة العرى لا تقصم لها معها تساقبت الأزمان والأجيال . إذ بدأ عبد الملك بن مروان صوغ الدولة الإسلامية على عهد بالصيغة العربية ، وتابع ابنه الوليد سياسة تعريب مرافق البلاد حتى ظهر رباط اللغة العربية رويداً ، وبدأ يحيط أرض الإسلام بسياج قوى متين .

ووضع الأمويون بذلك أسس الثقافة العربية التي ألفت بين قلوب المسلمين في سائر البلاد وقربت من عقلياتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم . فبعد أن فويت جذور اللغة العربية في سائر أنحاء الدولة الإسلامية غدا المسلم الذي يرتحل من أي بلد يجد في المكان الذي يزول به إخوة له في الدين يستطيع أن يتفاهم معهم بلغة واحدة . ولذا نعم الرحالة المسلمون على عهد الدولة العباسية ببذور اللغة العربية التي غرستها بنو أمية في سائر البلاد التي استظلت على عهدهم براية الإسلام .

وخلف لنا أولئك الرحالة صوراً صادقة عن أحوال العالم الإسلامي ، من طبيعة بلاده الجغرافية ومزاج سكانه وتقاليدهم وطرق كسب معاشهم ، وذلك بفضل اللغة العربية التي أصبحت وسيلة التخاطب ووسائل للرحالة المسلمين سبل الدراسة الصحيحة لمظاهر الحياة في البلاد الإسلامية . ولا أدل على قوة رباط اللغة

(١) تناول الدكتور حسين مؤنس في منشورات الجمعية المسكية للدراسات التاريخية (مارس ١٩٥٣) بيان هذه المظاهر السالفة ، ومدى . كان للأمويين من نشاط عظيم في ميدان البحر الأبيض المتوسط .

العربية من أسسها غدت إلى جانب رباط الدين الاسلامي المظهر الذي أبقي على وحدة المسلمين في شتى أنحاء البلاد ، بعد أن زالت الوحدة السياسية بينهم وغدوا شعوبا وأقواما شتى . وما زال هذا المظهر الثقافي الذي وضع الأمويون نواته الأولى يلعب دوراً كبيراً في خلق لون من الوحدة السياسية بين دول المسلمين التي ظهرت على مسرح العصور حتى الوقت الحاضر .

وقد ترك الأمويون نموذجاً يتفق والعصر الذي نشأوا به عن ضم صفوف المسلمين سياسياً وتوجيههم ضد أي عدو يدم أرغهم عامة . فكان أمام الدولة الأموية مهمة إعداد المسلمين لمحاربة البيزنطيين وحصد عدوانهم المتكرر . ونجح الأمويون في تسليق قوى مصر وشمال إفريقيا وأرض العراق مع القوات المركزية بالشام في الحملات الإسلامية الثلاثة التي حاصرت القسطنطينية . فسكانت أساطيل مصر وشمال إفريقيا تتخذ قواعد لها في موانئ الشام ، على حين يتجمع العمال الأقباط من مصر في أرض الشام للمساعدة في الأعمال الحربية حسب ما تحتاجه السلطات الأموية .

وحال التعاون الحربي الذي سقته خلفاء الأمويون بين بلاد الدولة الإسلامية المتناحرة الذي جهز خلفاء الدولة العباسية على السير على هدية . وتفاوتت حالة الدولة الإسلامية فيما بعد في المحافظة على هذا التآزر والتضامن باختلاف الملامح والأوضاع الزمنية . وبقدر نجاح أولى الأمر في البلاد الإسلامية في إيجاد ضرب من التعاون الحربي بين بعضهم بعضاً بقدر ما كتب لهم من فوز واستقرار . فجهدت الدولة العباسية في عصرها الزاهر على إبقاء التعاون البحري بين مصر والشام وشمال إفريقيا . إذ أن الدولة البيزنطية جهدت على الإطاحة على سواحل المسلمين المطلقة على البحر الأبيض المتوسط والاستفادة من اتعاض بغداد عن هذا البحر .

وهكذا استطاع العباسيون بفضل الخطة البحرية التي آت إليهم عن بني أمية الدفاع عن دولتهم وحمايتهم من أخطار البيزنطيين . ولكن الدولة العباسية لم تلبث أن تعرضت للضعف والاضمحلال ، وتفتت فيها ظاهرة استقلال الولاة عما يديرونه من بلاد خلال العصر العباسي الثاني (منذ ٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م) ومن

تم ضعف الروابط بين الحكام الجدد ، وهذا التعاون بينهما قاصراً على ما يمكن أن يحصل عليه كل منهما من عقد تحالف أو تضامن .

وقد تجنب الأمويون المصير الذي حوت فيه الدولة العباسية ، ولا سيما تفككها في أواخر أيامها ، بانتقاء العمال والولاة الذين تولوا نصرتهم بثبوت البلاد الإسلامية . إذ كان العمال الأمويون نموذجاً عالياً للطاعة والإخلاص ، فلم يفكروا أخد في الخروج على السلطة المركزية بدمشق أو الانفصال عن جسر الدولة في الأزمات التي تعرضت لها . إذ كان أولئك العمال أشبه بقناصل الدولة الرومانية وحكام الدولة البيزنطية على الأقاليم المختلفة . فانصف عامل بني أمية كما انصف أسلافهم من قناصل الرومان والبيزنطيين باحترام السلطة المركزية وتنفيذ أوامرها دون تردد (راجع)

وتجارت الظاهرة السائدة طوال العصر الأموي حتى نهايته . فكان الخجاج بن يوسف الثقفي مثلاً جندياً كرس نفسه لخدمة البيت الأموي دون اعتبار للوسائل التي تدور بها لتحقيق هذا الهدف . إذ أخذ ثورة عبد الله بن الزبير بالخجاج في غير هواذة أو أين ، وبعد أن فرغ منها امتثل لأمر الخليفة عبد الملك بن مروان وانتقل إلى إقليم العراق حيث تولى نشر الهدوء والاستقرار في ربوعه . ولم يظهر الخجاج ضيقاً في نقله من ميدان إلى ميدان ، وإنما ظل عاملاً مخلصاً أميناً . فبمكان يبعث إلى دمشق خبره الشعراء والعلماء الذين علا كعبهم في إقليم العراق ، واستفاد الخليفة عبد الملك من بعض هؤلاء العلماء مثل عاصم بن نزار حول الشعبي الذي أوفده سفيراً إلى بلاط الدولة البيزنطية .

وكان موسى بن نصير عامل الأمويين على شمال إفريقيا مثلاً آخر لطاعة الولاة للسلطة المركزية . فيبعد أن أتمم موسى إخضاع شمال إفريقيا وقطع شوطاً كبيراً في فتح الأندلس استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق . ورغم أن الموقف الحرجي في بلاد الأندلس كان يستدعي بقاء موسى بن نصير واستمراره في عملية الفتح فإنه أسرع بالذهاب إلى العاصمة في الشام ومعه كثير من الهدايا والتحف للخليفة . واستهدف الوليد من استدعاء موسى خوفاً من اتساع نفوذه ، ولكن

موسى نزل خاضعاً لمشيئة بنى أمية ، ولا سيما بعد أن منعه سليمان ، خليفة الوليد من العودة إلى مقر ولايته بالمغرب .

وإذا كان الحجاج وموسى بن نصير نموذجين لارتباط العمال الأمويين بالخلفاء في دمشق فإن عهد الدولة الأموية فإن نصر بن سيار يعتبر خير مثال للإخلاص عمال بنى أمية ساعة الحنة والخطوب . وكان نصر بن سيار عاملاً على خراسان التي بدأت منها الشرارة التي أطاحت بالدولة الأموية . وظل يرقب بعين ساهرة تطور الموقف في خراسان ويتبع الخليفة مروان الثاني بانتظام أنباء الثوار وحركاتهم . وعندما اضطر أن يغادر مروان حاضرة خراسان أمام ضغط وهجمات أبو مسلم الخراساني بعث نداءاً مؤثراً إلى الخليفة ، ظلت أصداءه تدوى على مر العصور^(١) . وكان باستطاعة نصر بن سيار أن ينضم إلى أنصار الدعوة الجديدة والتي بدا أن نصرها مؤكداً ، ولكنه ظل على ولائه يزيدى واجبه مما كانت النتائج والمواقف .

وهكذا كانت الأسس والنماذج التي وضعها خلفاء بنى أمية ومخاضهم قوية راسخة الأوتاد ، هيأت لدولة الإسلام مكاناً غالباً في عالم العصور الوسطى ، وكفلت لها إسمًا خالدًا لا يفتى . إذ اقترنت تاريخ المسلمين بالبحر الأبيض المتوسط عهد الحضارات القديمة وعصب الحياة في العالم القديم . فأصبحت شواطئه تزدح بالشعوب الإسلامية ومظاهر حضارتها ، ومياهه تنضج بالناسف الإسلامية وأشاطها . وقد آذن هذا المظهر الجديد بعهد حرى أن يذكره المسلمون بأن البحر الأبيض المتوسط غذاقيه بحيرة إسلامية .

(١) قالت أبيات الشعر التي بعث بها نصر بن سيار إلى مروان الثاني خودجاً لردده
الأسن كلًا واجهت الدول فتناً أو مشاكس . ومن هذه الأبيات قوله :

| | |
|-------------------------|------------------------|
| أرى بين الزمان وبين حمر | ويوشك أن يسكون له صرام |
| فإن السار بالعربى لذكرى | وأب الحرب أوفى الكلام |
| أقول من العجب إن شمعى | أبسط أمية أم نسام |

المراجع

- ١- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (بولاق)
- ٢- البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (باريس ١٩١٢)
- ٣- البلاذري ، فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠١ م)
- ٤- أبو الحسن ، الفجوم الزاهرة (لندن ١٨٥١ م)
- ٥- جرير ، ديوان جرير (مصر ١٣١٣ هـ)
- ٦- حسين مؤنس ، فتح العرب المغرب (١٩٤٧ م)
- ٧- ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة)
- ٨- ابن رسته ، كتاب الأعلام النفيسة (لندن ١٨٩١)
- ٩- السلاوي ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى
- ١٠- ابن طباطبا ، الفخرى في الآداب السلطانية (مصر ١٣١٧ هـ)
- ١١- الطبري ، تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٣٢٦ هـ)
- ١٢- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب (لندن ١٩٢٠)
- ١٣- ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة)
- ١٤- عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (١٩٤٠)
- ١٥- العدوي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية (١٩٥١)
- ١٦- ابن غداري ، البيان المغرب في أخبار المغرب (لندن ١٨٤٨)
- ١٧- ابن العربي ، تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٨٩٠)
- ١٨- ابن عساكر ، التاريخ الكبير (١٩٢٩)
- ١٩- ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك (القاهرة ١٩٤٧ م)
- ٢٠- مفردريك بيك ، تاريخ شرق الأردن وقبائلها (تعريب بهاء الدين طوقان ١٩٣٤)

- فيليب حتى ، تاريخ العرب (ترجمة محمد مبروك نافع)
قدامة بن جعفر ، نبذة من كتاب الخراج (لندن)
الفاشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة ١٩٢٢ م)
سكارل بروكمان ، تاريخ الشعوب العربية (نقلة إلى العربية نبيه فارس ومخير
العليكي — بيروت ١٩٤٨)
كرديلي ، خطط الشام (دمشق ١٩٢٤)
المالكي ، رياض النفوس (نشر الدكتور حسين مؤنس)
محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الإسلام (١٩٤٨)
المعزدي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة ١٢٨٣ هـ)
الزبيدي والأثراف (مصر ١٩٣٨)
X المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (لندن)
X القرطبي ، كتاب النزاع والنخاع فيما بين بني أمية وبني هاشم
(لندن ١٨٨٨)
اللدكي ، أسراء غسان (ترجمة بتدلي جوزي ، وقسطنطين زريق —
بيروت ١٩٣٣)
المخداني ، صفة جزيرة العرب (لندن ١٨٨٤)
ياقوت ، معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٧)

- Arculf.
The pilgrimage of Arculf in the Helly Land (Trans. by
Mac. pherson-London 1899.)
- / Baynes, N. H.
The Byzantine Empire (London 1925),
Byzantium (Ed. Baynes. — 1948.)
- / Bau, H. I.
The Agnadin Papyri (Der Islam.)
- / Bréhier, L.
Vic et Mort de Byzance (Paris 1930.)
- Browne E. G.
A Literary History of Persia (London 1920.)
- Bury, J. E.
A History of the later Roman Empire (London. 1880, 1931.)
- Charlesworth, M. P.
Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1926.)
- Cheira, M. A.
La Lutte entre Arabes et Byzantins (1947)
- Daussaud, R.
Les Arabes en Syrie avant L'Islam (1907)
- De Lacy O'Leary.
Arabia before Mohammed (1937.)
- Diehl, ch.
L' Afrique Byzantine (1896.)
- Encyc. of Islam
- Feddau R., Syrie (1947.)
- Finlay, J. History of Greece (1877.)
- Fournel, H., Étude sur la Conquête de L'Afrique Par Les Arabes.
- Grant, C. P.
The Syrian desert (1938)
- / Hamidullah, M.
Muslim Conduct of State (1945)
- Hill, J.
Die Kultur der Araber (Leipzig 1916)
- / Hill, G.,
A History of Cyprus (1940.)
- / Hill, P. K.,
History of Syria (1951)

- Kammerer, A.,
Petra et la Nabatène (Paris 1920)
- ✓Khuda-Bukhsh,
Islamic Civilisation (1920)
- Kremer
Orient under the Caliphs (Trans-by Khuda-Bukhsh-1920)
- ✓Lammens, P.H.,
L'Arabie Occidentale avant l'Islam (1928)
Études sur le règne du Calife Mo'awia I^{er} (1908)
La Syrie (1921)
- Laurent, J.,
L'Arménie Entre Byzance et L' Islam (1919)
- Le Strange, G.,
Palestine under the Moslems (1890)
The Lands of the Eastern Caliphate (1920)
- Mercier, F.,
Histoire de L'Afrique Septentrionale (1888)
- Mommsen, T.,
The Provinces of the Roman Empire (1909)
- Muir , W.,
The Caliphate (1931)
The Life of Mohamad (1912)
- Nabia Abbot,
The Kufrah Papyri
- Oman, ch.,
A History of the War in the Middle Ages (1924)
- ✓Runciman, S.,
Byzantine Civilisation (1933)
- ✓Semple, E.C.,
The Geography of the Mediterranean Region (1932)
- ✓Vasiliev,
Histoire de L'Empire Byzantin
Byzance et Les Arabes. (1935)
- Wellhausen, J.,
The Arab Kingdom and Its Fall (1927)

الفهرس

صفحة

ج

٤٥ - ١

مقدمة الكتاب

الفصل الأول

عهد الخلافة الأموية ورحلة الصيف

١٦ - ١

عرب الشام قبل الإسلام

١

الشام على عهد البيزنطيين

٨

القبائل العربية في الشام البيزنطية

٣٢ - ١٧

بنو أمية ورحلة الصيف

٤٥ - ٣٣

قيام البيت الأموي في الشام

١١٩ - ٤٦

الفصل الثاني

معاوية فاهر البيزنطيين

٧٢ - ٤٦

المرحلة الأولى في الجهاد الأموي ضد البيزنطيين

٤٦

استيلاء معاوية على منطقة الشام الساحلية

٥٤

أداة الجهاد ضد البيزنطيين

٦٥

الصهوة البيزنطية على عهد قسطنطين الثاني

١١٩ - ٧٣

معاوية والبيزنطيون في شرق البحر الأبيض المتوسط

٧٣

سياسة معاوية البحرية

٨٠

فتح قبرص

٨٦

الإغارات الإسلامية على الجزر البيزنطية

٩٢

ذات الصواري

١٠٠

مناطق التخوم

| | |
|-----------|------------------------------------|
| ١٠٨ | المرقة أو الجراجمة = |
| ١١٢ | الاستيلاء على أرمينيا = |
| ١٩٢ — ١٣٠ | الفصل الثالث |
| | دمشق والقسطنطينية |
| ١٥٣ — ١٢٠ | أسس نحو المدن وأزدهازها |
| ١٢٠ | أوضاع المدن |
| ١٢٣ | دمشق — قبلة نفق الصخر |
| ١٣٠ | دمشق الأموية |
| ١٣٩ | نشأة القسطنطينية |
| ١٤٥ | القسطنطينية البيزنطية |
| ١٧٠ — ١٥٤ | مساوية والقسطنطينية |
| ١٥٤ | قتى العرب وحصار القسطنطينية |
| ١٥٨ | خط الدفاع البيزنطى عن القسطنطينية |
| ١٦٤ | حرب السنوات السبع |
| ١٦٧ | النار البحرية |
| ١٨٠ — ١٧١ | بنو مروان والقسطنطينية |
| ١٧١ | تدعيم البيت الأموى |
| ١٧٤ | عبد الملك بن مروان وجستنيان الثانى |
| ١٧٧ | استئناف الجهاد ضد البيزنطيين |
| ١٩٢ — ١٨١ | الحصار الثالث للقسطنطينية |
| ١٨١ | الاستمدادات الإسلامية والبيزنطية |
| ١٨٥ | سير الحملة الإسلامية |

صفحة

| | |
|-----------|---|
| ١٨٨ | الحصار الإسلامي |
| ١٩٣ — ٢٣٣ | الفصل الرابع |
| | استيلاء الأمويين على شمال إفريقيا |
| | واقصاء البيزنطيين |
| ١٩٣ — ٢٠٠ | المغرب قبل العصر الأموي |
| ١٩٣ | إفريقية البيزنطية |
| ١٩٦ | طلائع الفتح الإسلامي |
| ٢٠١ — ٢٠٧ | معاوية بن أبي سفيان والمغرب |
| ٢٠١ | حملة معاوية بن حديج |
| ٢٠٤ | حملة عقبة بن نافع الأولى |
| ٢٠٨ — ٢١٨ | التحالف البيزنطي البربري |
| ٢٠٨ | حملة دينار أبو المهاجر |
| ٢١١ | حملة عقبة بن نافع الثانية |
| ٢١٣ | حملة زهير بن قيس البلوي |
| ٢١٩ — ٢٣٣ | زوال النفوذ البيزنطي وتنام الفتح الإسلامي |
| ٢١٩ | حملة حسان بن النعمان |
| ٢٢٢ | ثورة السكاينة |
| ٢٢٦ | نهاية البيزنطيين |
| ٢٣٠ | الجناح الأيسر لدولة الإسلام |
| ٢٣٤ — ٢٧٦ | الفصل الخامس |
| | التعاقب الحضاري بين الدولتين الأموية والبيزنطية |
| ٢٣٤ — ٢٤٢ | التراث الأموي في نظم الأمويين الإدارية |

| صفحة | |
|-----------|--|
| ٢٣٤ | إدارة الأقاليم |
| ٢٣٩ | العائر والفنون |
| ٢٤٣ — ٢٤٨ | الاتصال الثقافي |
| ٢٥٧ — ٢٥٩ | الاتصالات الدبلوماسية |
| ٢٥٨ — ٢٦٤ | السياسة الدينية |
| ٢٦٥ — ٢٧٦ | التراث الأموي في الحضارة الإسلامية |
| ٢٦٥ | سقوط الدولة الأموية |
| ٢٧٢ | التراث الأموي |
| ٢٧٧ — ٢٨٠ | المراجع |
| ٢٨١ — ٢٨٣ | الفهرس |
| | الخرائط والجداول |
| ١٣١ | ١ — خريطة الدولة الأموية وشرق البحر الأبيض المتوسط |
| ١٤١ | ٢ — خريطة للقسطنطينية |
| ٢٦٧ | ٣ — جدول يمثل أبناء البيت الأموي |
| | تعريف عن الكتاب بالإنجليزية |

[تم طبع كتاب « الأمويون والبيزنطيون » في مطبعة
لجنة البيان العربي بالقاهرة في يوم الاثنين ٦ من شعبان سنة
١٣٧٢ هـ (الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٥٣ م) . والحمد لله
أولاً وآخراً] .

مدير محفوظ كامل
المدير الفني للمطبعة

However in spite of the war between the Omayyads and Byzantines they exchanged diplomatic missions, and the Omayyads, especially, did not hesitate to make use of the Byzantine artists and their methods of work. Therefore the Omayyads were able to lay the solid foundation of the Islamic Empire and its civilisation. They achieved their role with Success because they had officials of Mediterranean mentality. They were like the consuls and prefects of the Roman and Byzantine Empires, and showed no interest in self-government during the decline of the Omayyad dynasty.

The Omayyad dynasty was thus able to leave a heritage, which gave the Muslims cultural unity, and also examples of political unity. These models are of great value to Modern Muslim States nowadays, and may help them to take part in the contribution to the world affairs to-day.

I. A. El-Adawi

THE OMAYYADS & BYZANTINES

The Mediterranean an Islamic Lake

By

Dr. Ibrahim Ahmed EL-Adawi

B. A. Hon. (Cairo)

Ph. D. (Liverpool)

Lecturer in Mediaeval History

University of Cairo

Published by
The Anglo-Egyptian Bookshop

El-Bayra El-Arabi Press